التوحيد الخالص

من

كتاب الدين الخالص

للعلامة محمد صديق حسن خان

تأليف

الشيخ الفقيه عبدالله بن صالح المحسن

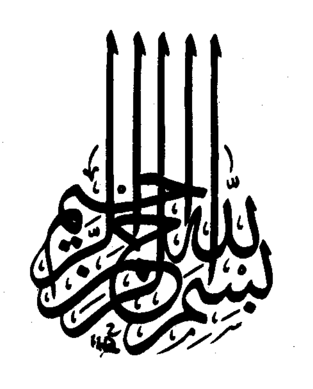
المدرس بمعهد الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة

اعتنى به سبط المؤلف

د. ناصر بن عبد الرحمن بن ناصر الحمد

إمام وخطيب جامع الإمام ابن ماجه بالرياض

دار قرطبة



التَّوحِيدُ الخَالِص

مِنْ

كِتَابِ الدِّينِ الخَالِص

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى
١٤٣٢هـ - ٢٠١١م

يطلب الكتاب من سبط المؤلف
د. ناصر بن عبد الرحمن بن ناصر الحمد
إمام وخطيب جامع الإمام ابن ماجه بالرياض
٠٠٩٦٦-٥٠٣١٨٧٤٤٢

قامت بطباعته وإخراجه دار قرطبة للطباعة والنشر والتوزيع
بيروت - لبنان ص.ب: ٥٠١٣ - ١٤ - فاكس: ٠٠٩٦١١/٦٥٩٠٧٣
Email:dar_kortoba@hotmail.com

ترجمة الشيخ عبدالله بن صالح المحسن

الحمد لله، وبعد: فإن الله تعالى جعل العلماء نجوم الأرض، إذا ذهبوا بقي نور علمهم بتلاميذهم وكتبهم وفقههم الذي بثوا ضياءه على الناس ليكون لهم نورا في الحياة يستبصرون الهدى والنور ويعرفون الخير من الشر والحق من الباطل.

ولا شك أن العلماء هم ورثة الأنبياء وهم حملة العلم من بعدهم يهدون ويرشدون ويبينون ويوضحون، كلٌّ على حسب ما أعطاه الله تعالى، فذاك بقلمه، والآخر بلسانه وبيانه، وثالث بطلابه وتلامذته، وقد رفعهم الله تعالى لما رفعوا ذكره وأعظموا أمره ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَـٰتٍ﴾ [سورة المجادلة: آية ١١]، وكان حقا علينا أن نحفظ حقوقهم ونصون جنابهم ونبين أمرهم للناس ليعرف الناس فضلهم ومكانتهم وعلمهم.

وقد كتبت هذه الترجمة لجدي الشيخ العالم: عبدالله بن صالح المحسن الذي يعرفه كل من كان في زمانه من أهل العلم ممن كانوا من أهل الحديث وقد أعانني وزودني بكثير من معلوماتها أخي الشيخ عبدالعزيز إمام وخطيب جامع الشعيبي بالرياض، وما كتبته هو غيض من فيض مما جرى له في حياته، وقد مر بالشيخ حادث كان له أبلغ الأثر في وقوفه عن مواصلة التعليم ومخالطة العلماء والحمد لله على كل حال، ويعيش الشيخ الآن في مدينة الرسول ﷺ، ويأتي إليه الطلاب من بعض الدول خاصة الدول الخليجية ليأخذوا منه إجازات في التعليم وما زالت له علاقات مع بعض العلماء منهم الشيخ صالح بن حميد وذلك لعلاقة الشيخ مع والده الشيخ عبدالله بن حميد، وكذلك له علاقة بإمام الحرم الشيخ السبيل الذي زامله في التدريس.

ولادة الشيخ ونشأته:

ولد الشيخ سنة ١٣٣٣هـ في الشيحية بالقصيم ويرجع أصل نسب الشيخ إلى قبيلة سبيع من العرينات وأصل مرجع الشيخ يعود إلى قرية الضلفعة إحدى قرى القصيم وكانت معروفة بالزراعة والخير الوفير حيث كان فيها أجدادنا الأوائل حيث كان حمد المحسن (الجغافي) جد الشيخ عبدالله أميراً عليها أربعين سنة، نشأ الشيخ عبدالله نشأة مباركة بين كنف والدين كريمين حريصا على أن ينهل من العلم وأن يوفق فيه، وحرص الشيخ أن يجمع في أخذه للعلم من كثير من المناطق، حيث طلب العلم في القصيم والرياض ومكة والمدينة على يد علماء كان لهم الأثر البالغ في إخراج كثير من أهل العلم والمشايخ.

بداية طلب الشيخ للعلم ومراحل حياته العلمية:

درس الشيخ في القصيم على جمع من أهل العلم على رأسهم الشيخ صالح الخريصي، وكانت أول رحلة له إلى بلدة البكيرية حيث درس على مجموعة من مشايخها وعلمائها، ومن ثم قدم الشيخ إلى مدينة الرياض عام ١٣٦٤هـ، لينهل العلم من المشايخ وعلى رأسهم الشيخ العلامة محمد بن عبداللطيف رحمه الله جد سماحة مفتي عام المملكة سماحة الشيخ عبدالعزيز آل الشيخ وفقه الله.

وقد حرص الشيخ أن يكون في طريقة تعلمه متبعا للسنة ونابذا للتعصب متبعا للحق ولذا فقد فاق كثيرا من أقرانه في طلب العلم حيث لم يكن مقتصرا في نهل العلم من كتب المذهب الحنبلي فحسب، بل كان ينهل من جميع المذاهب ويرجع لكلام المحققين من أهل العلم كابن تيمية وابن القيم رحمهما الله تعالى.

بدأ الشيخ عبدالله الدراسة النظامية في ثرمدا، ثم عين مدرساً ومديراً لمدرسة ثرمدا الابتدائية من عام ١٣٧١إلى عام ١٣٧٢هـ، وتخرج من كلية الشريعة عام ١٣٨٠هـ، وعين مدرساً بمعهد الجامعة الإسلامية في ١/ ٥/ ١٣٨١هـ.

وقد حبا الله تعالى الشيخ كثيرا من الفراسة والحكمة ومعرفة الناس ومعادن الرجال حتى عرض عليه العلامة الشيخ عبدالله بن حميد القضاء مرتين وألح عليه في ذلك ولكن الشيخ رفض واعتذر.

مشايخه:

درس في البكيرية على قاضي البكيرية الشيخ محمد بن مقبل (١٢٨١-١٣٦٨هـ)، وعلى الشيخ صالح الشاوي (١٣٠٨-١٣٨٠هـ)، والشيخ محمد بن صالح الخزيم قاضي الرس والمذنب فيما بعد (١٣٢٠-١٣٩٤هـ)، والشيخ سليمان بن صالح الخزيم قاضي نجران وعروى (١٣٢٥-١٤٠٧هـ)، والشيخ عبدالعزيز بن عبدالله السبيّل قاضي البكيرية (١٣٢١-١٤١٢هـ) وذلك بعد ابن مقبل وقد زامل في دراسته عليه إمام الحرم المكي وقد كان أخا للشيخ عبدالعزيز.

وقد زامل بعض مشايخه عند الشيخ ابن مقبل فأصبحوا مشايخ وزملاء ثم ارتحل الشيخ إلى مدينة بريدة للتزود من العلم فطلب العلم على بعض المشايخ الكبار في بريدة منهم: الشيخ عمر بن محمد بن سليم قاضي بريدة (١٢٩٩-١٣٦٢هـ)، والشيخ عبدالعزيز بن إبراهيم العبادي (١٣١٤-١٣٥٨هـ)، والشيخ صالح بن إبراهيم الخريصي رئيس محاكم القصيم (١٣٢٨-١٤١٥هـ) وقد لازمه الشيخ عبدالله قرابة العشرين سنة، والشيخ صالح بن عبدالرحمن السكيتي إمام مسجد الأمير عبدالعزيز بن مساعد وقد كان قاضيا للمذنب فترة ليست بالطويلة (١٣٣١-١٤٠٤هـ)، وكذلك الشيخ العلامة عبدالله بن محمد بن حميد (١٣٢٩-١٤٠٢هـ) وذلك بعد قدومه لرئاسة محكمة بريدة، ثم رئيساً لشؤون الحرمين ثم رئيساً لمجلس القضاء الأعلى وقد لازمه الشيخ قرابة العشر سنوات.

ثم إن الشيخ بعد ذلك ارتحل إلى مدينة الرياض حيث العلماء الكبار فوصل الرياض عام ١٣٦٤هـ، فاجتهد في طلب العلم على المشايخ ومنهم الشيخ محمد بن

عبداللطيف بن عبدالرحمن بن حسن بن الشيخ محمد بن عبدالوهاب قاضي الرياض (١٢٧٣-١٣٦٧هـ) وهو جد سماحة مفتي عام المملكة العربية السعودية الشيخ عبدالعزيز بن عبدالله بن محمد بن عبداللطيف آل الشيخ.

وأيضا على الشيخ صالح بن عبدالعزيز بن عبدالرحمن بن حسن بن الشيخ محمد بن عبدالوهاب قاضي االرياض (١٢٨٧-١٣٧٢هـ)، والشيخ إبراهيم بن سليمان آل راشد رئيس المحكمة الكبرى في الرياض (١٣٢٠-١٣٧١هـ)، وإمام الجامع الكبير في الرياض (١٣٢٠-١٣٧١هـ)، والشيخ عبدالله النصيبي وكان مأذون الأنكحة في الرياض وإماما لأحد المساجد.

رحلة الشيخ في التدريس:

في عام ١٣٧١هـ عين الشيخ عبدالله مدرساً ومديراً لمدرسة ثرمدا الابتدائية وزامله في التدريس الشيخ عبدالرحمن العجلان رئيس محاكم القصيم والمدرس في الحرم المكي. والشيخ سعد العنقري إمام وخطيب جامع ثرمدا والشيخ سليمان الدخيل، وحينما قام مدير عام المعارف الشيخ محمد بن عبدالعزيز بن محمد بن مانع (١٣٠٠-١٣٨٥هـ) بجولته التفقدية في بعض أنحاء المملكة عام ١٣٧٢هـ ،كان من ضمن ما زار بلدة ثرمدا وحضر الشيخ إلى المدرسة وناقش الطلاب وأبدى إعجابه بالشيخ وبتدريسه.

وفي عام ١٣٧٢هـ فتحت المعاهد ومنها المعهد العلمي في بريدة فذهب الشيخ عبدالرحمن العجلان وترك المدرسة وبما أن الشيخ كان مكلفاً في الإدارة أرسل طلباً للإعفاء من الإدارة والتدريس ليلتحق بالمعهد العلمي فلم يتيسر له إلا السنة الثانية فإذا بزملائه قد انتقلوا من مرحلة إلى أخرى فاختبر الشيخ وقفز وكان يسمح بالقفز في ذلك الوقت لمن يجتاز الامتحان فلحق بزملائه ثم استمر في الدراسة في المعهد وكذلك واصل الدراسة على المشايخ ومنهم الشيخ عبدالله بن حميد والشيخ

صالح الخريصي وغيرهم.

زملاؤه في المعهد وعند المشايخ في المساجد:

زامله في تلك الفترة مجموعة من طلاب العلم في المعهد وفي المساجد منهم:

معالي الشيخ صالح بن فوزان الفوزان عضو اللجنة الدائمة والإفتاء وعضو هيئة كبار العلماء، والشيخ عبدالرحمن العجلان رئيس محاكم القصيم سابقا والواعظ في المسجد الحرام، والشيخ علي الضالع (١٣٢٨-١٣٩٧هـ) وكان مدرسا في معهد بريدة حيث تخرج منها مجموعة من المشايخ منهم الدكتور سلمان العودة، والشيخ صالح السكيتي (١٣٣١-١٤٠٤هـ) ودرس على يديه كثير من العلماء، ومن زملائه الشيخ محمد بن ناصر العبودي رئيس رابطة العالم الإسلامي، وله معه زمالة قديمة، والشيخ إبراهيم القبيلي وهو شاعر معروف، والشيخ علي الحصين (١٣٥٠-١٣٨٢هـ) مدير تعليم البنين بالنيابة في القصيم، والشيخ صالح الغانم (١٣٣٧-١٣٩٨هـ) وهو من أعيان علماء بريده، والشيخ علي بن عبدالعزيز المشيقح (مساعد رئيس محاكم القصيم)، والشيخ محمد بن عبدالعزيز المشيقح (١٣٢٧هـ-٢٠٠٧م)، والشيخ العلامة عبدالله الغنيمان المدرس في المسجد النبوي، وغيرهم كثير. ومن زملائه الشيخ عبدالعزيز الرشيد (١٣٤٣-١٤١٨هـ) وكان أول رئيس لتعليم البنات وكان له معه علاقة حميمة قوية فدرسه في الكلية وكان يحضر عنده دروسا خاصة حتى أصبحت علاقته به قويه جداً وكان يجل الشيخ ويقدره وله معه مواقف كثيرة، وكذلك ممن درس عليه وزامله العلامة سماحة الشيخ عبدالعزيز بن باز رحمه الله (١٣٣٠-١٤٢٠هـ) مفتي عام المملكة ورئيس هيئة كبار العلماء، والعلامة عبدالرزاق عفيفي رحمه الله نائب رئيس الإفتاء (١٣٢٣-١٤١٥هـ) والشيخ العلامة محمد الأمين الشنقيطي (١٣٢٥-١٣٩٣هـ) رحمه الله صاحب كتاب (أضواء البيان).

عمله في الجامعة الإسلامية:

لما تخرج الشيخ من كلية الشريعة عام ١٣٨٠هـ عين قاضيا في عقلة الصقور فاعتذر الشيخ وتشفع له الشيخ ابن باز رحمه الله وطلب من الشيخ محمد بن إبراهيم أن يجعله معه في الجامعة الإسلامية مدرساً، فوافق الشيخ بعد إلحاح من الشيخ ابن باز رحمهما الله تعالى، فانتقل الشيخ إلى المدينة المنورة للتدريس في الجامعة الإسلامية، فأصبح من المؤسسين للجامعة الإسلامية، فاستقر الشيخ في المدينة منذ تعيينه في ١/ ٥/ ١٣٨١هـ حيث كان سماحة الشيخ العلامة الإمام ابن باز رحمه الله نائبا لرئيس الجامعة الإسلامية وكان رئيس الجامعة سماحة الشيخ العلامة الإمام محمد بن ابراهيم رحمه الله تعالى.

ومن باب الذكر الحسن فقد كان العلامة ابن باز رحمه الله يثني على علم الشيخ عبدالله وعلى حسن إلقائه وأسلوبه في طرح العلم حتى إنه من إعجابه فيه أمر بنشر رسالة له في الأخلاق وكانت محاضرةً ألقاها في الجامعة الإسلامية.

عمل الشيخ في الجامعة حتى عام ١٤٠٢هـ. وفي عام ١٣٨٥هـ تم طلب الشيخ عبدالله للعمل في القضاء بناءً على توجيهات الشيخ محمد بن إبراهيم وكان يعرفه جيداً، فاجتمع بالشيخ محمد بن إبراهيم أربعة من المشايخ منهم الشيخ ابن باز والشيخ عبدالعزيز الرشيد رئيس تعليم البنات وتكلموا مع الشيخ عبدالله بن حميد بأن الشيخ عبدالله قد نجح في التدريس، والقضاء يمكن أن يُسد بالخريجين، وبعد جهد وافق الشيخ محمد على إعفائه واستمراره في التدريس في الجامعة الإسلامية، وفي عام ١٣٩٣هـ انتدب الشيخ للتدريس في الجامعة السلفية بالهند فأقام الشيخ سنتين في مدينة بنارس ودرس عليه جمع من طلبة العلم هناك ثم عاد إلى المدينة فاستمر في التدريس في الجامعة وكان الشيخ ابن باز رحمه الله قد طلب من الشيخ قبل سفره للهند أن يضع منهاجا للتدريس في القسم الثانوي أثناء غيابه

في الهند ليسهل على المعلمين من بعده التدريس فوضع الشيخ بعض المذكرات في الفقه والحديث فانتفع بها المعلمون في التدريس وانتفع بها طلاب العلم في الجامعة.

زملاؤه في الجامعة الإسلامية:

زامله في التدريس في الجامعة الإسلامية كثير من طلبة العلم والعلماء، أمثال الشيخ عبدالعزيز بن باز والشيخ محمد الأمين الشنقيطي والشيخ المحدث العلامة محمد ناصر الدين الألباني والشيخ عبدالله يعتبر الشيخ الألباني شيخاً له لأنه استفاد منه فائدة عظيمة أثناء التدريس في الجامعة الإسلامية عام (١٣٨١-١٣٨٢هـ) فتأثر به كثيراً، ومن زملائه الشيخ عمر محمد فلاته رحمه الله أمين الجامعة الإسلامية والمدرس بالمسجد النبوي الشريف وهو زميل خاص للشيخ، والشيخ حماد محمد الأنصاري رحمه الله، والشيخ محمد تقي الدين الهلالي والشيخ أبو بكر الجزائري الواعظ بالمسجد النبوي، والشيخ محمد المختار الشنقيطي رحمه الله، والشيخ محمد عطية سالم المدرس بالمسجد الحرام، والشيخ محمد أمان الجامي، والشيخ ربيع المدخلي، والشيخ عبدالقادر شيبة الحمد المدرس بالمسجد الحرام، والشيخ محمد المرشد، والشيخ عبدالله الفوزان.

تلاميذه:

تتلمذ على الشيخ طلاب كثر منهم الشيخ الدكتور إحسان إلهي ظهير وكان يحب الشيخ كثيراً ويستشيره في أمر الرافضة وكان آخر لقاء له قبل شهرين من قتله وأخبر الشيخ أن الرافضة يهددونه فكان الشيخ يطمئنه ويثبته.

والشيخ محمد بن محمد المختار الشنقيطي الواعظ بالمسجد الحرام، وعضو هيئة كبار العلماء، والشيخ محمد بن حمود الوائلي عميد كلية الشريعة في الجامعة الإسلامية سابقاً، والمدرس في المسجد النبوي حالياً. والشيخ عبدالعزيز بن

عبدالفتاح رئيس لجنة مراجعة مصحف المدينة النبوية، وغيرهم كثير.

مصنفات الشيخ:

للشيخ كتب كثيرة، منها كتاب «تفسير جزء عم»، وهو مطبوع، وكتاب «شرح الأربعين النووية» طبع مرتين، وكتاب «أحاديث مختارة» شرح في الآداب والأخلاق بشرح مبسط مناسب للطلبة، وهو مطبوع أيضاً.

وأما ما لم يطبع من كتبه وهو في طريقه للطباعة بإذن الله تعالى، منها: «شرح عمدة الفقه» في (ثلاث مجلدات تقريبا)، و«شرح عمدة الأحكام» في (مجلدين تقريبا)، و«شرح كتاب التوحيد» (مجلد واحد)، و«تفسير جزء تبارك وشيء من جزء قد سمع»، و«شرح لأحاديث في العبادات والمعاملات والأخلاق» (مجلدان)، وكتب أخرى منها قصص وأخبار ومنها فقه وآثار، نسأل الله أن ييسر طباعتها قريبا.

نهاية تدريسه في الجامعة:

استمر الشيخ في التدريس حتى أحيل على التقاعد عام ١٤٠٢هـ بعد أن مدد له بعد ذلك واختير ليكون مدرساً في المسجد النبوي إلا أنه أصيب بحادث مما جعله لا يستطيع التحرك إلا بمغزلين لمدة سنة ثم بعد سنة أصبح يتكئ على مغزل واحد لمدة سنة واعتذر الشيخ بعد ذلك عن التدريس بسبب الإصابة وتفرغ الشيخ للقراءة والمطالعة وأصبح يزوره بعض طلاب العلم للمدارسة والمناقشة والقراءة عليه حتى هذا اليوم.

وكتبها سبطه

د. ناصر بن عبدالرحمن بن ناصر الحمد

إمام وخطيب جامع الإمام بن ماجه رحمه الله

مُقَدِّمَة

الحمد لله ربِّ العالمين إله الأولين والآخرين حمداً على نعمه التي لا تعدها الأنام ولا تحصيها الأقلام وصلى الله على نبيه الكريم ﷺ وعلى آله وأصحابه أجمعين والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد:

فإن كتاب «الدين الخالص» تأليف محمد صديق حسن خان رحمه الله؛ كتاب عظيم في موضوعه وهو الدين الحنيف وما يرمي إليه من المحاسن واجتناب المساوئ ولما كان بهذه المثابة وكان فيه طول لبيان عظم شأن هذا الدين وتحقيقه؛ رأيت أن أُلخِّص منه ما يكون سهلاً على الطالب وقريب المتناول للمطالع مع الاستفادة منه. ودفعني لهذا أسباب ثلاثة:

الأول: أني كنت مبعوثاً من الجامعة الإسلامية بالمدينة النبوية بأمر من جلالة الملك فيصل بن عبدالعزيز آل سعود -أيده الله- للتدريس في الجامعة المركزية السلفية (ببنارس) بالهند، ولما حان وقت العطلة المعهودة بالجامعة في شهر يوليو أثناء الدراسة بدأت أفكر ماذا أعمل في مدة هذه العطلة وأنا غريب وحدي ولا أحسن لغتهم وأن الأَولى لي العكوف في البيت الذي أنا ساكنه. فهداني الله إلى تلخيص من هذا الكتاب.

الثاني: أنه لما كان هذا الكتاب كما قلت فيه طول لنصرة الحق وتدعيمه بالأدلة من الكتاب والسنة وفيه تكرار لبعض المواضيع عند أي مناسبة مع أنه قد جمع فيه المؤلف -رحمه الله- بين التوحيد والحث على الاعتصام بالدين والابتعاد عن التقليد لذا فقد اقتصرت بالاختصار منه على الأساس الذي تدور عليه رحى

الإسلام وهو التوحيد وما يهدف إليه من تحقيق.

الثالث: وهو أهمها، الرجاء من الله أن يكون عملي هذا مثمراً نافعاً لي في حياتي وبعد مماتي. الطريقة التي سلكتها في هذا المختصر أني حررت ما ناسب لي من كلام المؤلف بحروفه ولم أتصرف فيه إلا نادراً من دون تغيير معنى وقد أشار المؤلف في مقدمته أنه لم يرتبه ترتيباً متقناً لذا فقد تصرفت في بعض المواضيع بتقديم أو تأخير ولم أستقص في ذلك لضيق الوقت مع أنه قد يكون للشيء مناسبة في محله. وأما العناوين فقد اتبعت فيها ما في طبعة آل ثاني، حيث أنها رتبت وزيد عليها غير ما ذكره المؤلف وقد تصرفت في بعضها حسب المناسبة. وما وضعته من قولي جعلته بين قوسين ليعلم أنه ليس من كتاب المؤلف وهو قليل.

فائدة وتنبيه: قال المؤلف ولفظة (لا ينبغي) في كلام الله وكلام رسوله: إنما تستعمل للذي هو في غاية الامتناع، كقوله تعالى: ﴿وَمَا يَنۢبَغِي لِلرَّحۡمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾﴾ [سورة مريم: ٩٢] وقوله: ﴿وَمَا عَلَّمۡنَٰهُ ٱلشِّعۡرَ وَمَا يَنۢبَغِي لَهُۥٓۚ﴾ [سورة يس: ٦٩] وقوله: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتۡ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢١٠﴾ وَمَا يَنۢبَغِي لَهُمۡ﴾ [سورة الشعراء: ٢١٠-٢١١] وقوله: ﴿مَا كَانَ يَنۢبَغِي لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنۡ أَوۡلِيَآءَ﴾ [سورة الفرقان: ١٨] وقد درج المؤلف في تعبيره بهذه الكلمة (فينبغي) في كتابه على ما فهم من القرآن. انتهى.

اللهم اجعل عملي هذا مبروراً واجعل من يسعى في طبعه ونشره مأجوراً مع من يطالع فيه وينتفع منه هذا وصلى الله على محمد وآله وصحبه.

والمحرر لذلك بقلمه

عبدالله بن صالح بن محسن المحسن

في عام ١٣٩٣هـ. في يوليو من تلك السنة

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه نستعين

توحيد الله عزوجل لا يحتاج إلى أدلة بل هو ما قامت عليه السموات والأرض، وأُرسِلت لأجله الرسل، وأُنزِلت لاجله الكتب.

فإن قال قائل: أريد دليلا يهديني للحق والتوحيد.

قلنا له: هذا كلام الله تعالى يشفي ما في نفسك، ويدلك للحق، والقرآن مليء بدلالة التوحيد لله رب العالمين، فهذه **سورة الفاتحة المتضمنة لعظيم التوحيد لله عز وجل**، فانظر فاتحة الكتاب التي تُكرَّر في كل صلاة مرات من كل فرد من المسلمين، ويفتتح بها التالي لكتاب الله، والمتعلم له. ففيها الإرشاد إلى إخلاص التوحيد لله في عدة مواضع من آياتها، فمن ذلك:

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ۝١﴾ [سورة الفاتحة: ١]، فإن علماء المعاني والبيان ذكروا أنه يقدر المتعلق متأخراً ليفيد اختصاص البداية باسمه تعالى لا باسم غيره، وفي هذا ما لا يخفى من إخلاص التوحيد.

ومنها في قوله: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝٢﴾ [سورة الفاتحة: ٢] فإن التعريف يفيد الحصر بأن (الحمد) مقصور على الله واللام في (الله) يفيد اختصاص الحمد له. ومقتضى هذا أنه لا حمد لغيره أصلاً، وما وقع منه لغيره في حكم العدم [لأنه حمد مقيد بسبب]، وقد تقرر أن الحمد هو الثناء باللسان على الجميل الاختياري لقصد التعظيم، فلا ثناء إلا عليه، ولا جميل إلا منه، ولا تعظيم إلا له، وفي هذا من إخلاص التوحيد ما ليس عليه مزيد.

ومن ذلك قوله: ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ۝٤﴾ [سورة الفاتحة: ٤] أو ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ على القراءتين، فإن كونه المالك ليوم الدين يفيد أنه لا مُلْك لغيره، فلا ينفذ إلا تصرفه، لا تصرف أحد سواه من خلقه، من غير فرق بين نبي مرسل ومَلَك مقرب وعبد صالح، وهذا معنى كونه مالك يوم الدين. فإنه يفيد أن الأمر أمره والحكم حكمه ليس لغيره معه أمر ولا حكم [كائناً ما كان].

ومن ذلك ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾ [سورة الفاتحة: ٥] فإن تقدم الضمير قد صرح أئمة المعاني والبيان وأئمة التفسير أنه يفيد اختصاص العبادة به سبحانه وتعالى، لا يشاركه فيها غيره ولا يستحقها.

ومن ذلك قوله: ﴿وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ۝٥﴾ [سورة الفاتحة: ٥] فإن تقدم الضمير هاهنا يفيد الاختصاص كما تقدم. وهو يقتضي أنه لا يشاركه غيره في الاستعانة به في الأمور التي لا يقدر عليها غيره.

فهذه خمسة مواضع في فاتحة الكتاب يفيد كل منها إخلاص التوحيد مع أن في الكتاب العزيز من ذلك ما يطول تعداده وتتعسر الإحاطة به.

أنواع التوحيد

التوحيد نوعان: توحيد في المعرفة والإثبات، وهو توحيد الربوبية والأسماء والصفات. وتوحيد في الطلب والقصد، وهو توحيد الإلهية والعبادة. وسمي دين الإسلام توحيداً لأن مبناه على أن الله واحد في ملكه وأفعاله لا شريك له، وواحد في ذاته [وأسمائه وصفاته] لا نِدَّ له. وواحد في إلهيته وعبادته. وإلى هذه الأنواع ينقسم توحيد الأنبياء والرسل الذين جاءوا به من عند الله وهي متلازمة فكل نوع منه لا ينفك عن الآخر.

معنى توحيد الربوبية

ومعناه أن الله وحده هو الخالق للعالم وهو الرب لهم والرازق لهم. وهذا لا ينكره المشركون ولا يجعلون فيه شريكاً لله بل هم مقرون به. قال الله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [سورة الزُّخرُف: ٨٧] وقال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٩﴾﴾ [سورة الزُّخرُف: ٩] إلى غير ذلك من الآيات الدالة على إقرارهم بتوحيد الربوبية، وقد اعترف بذلك إبليس اللعين ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾﴾ [سورة الحشر: ١٦] ﴿رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ﴾ [سورة الحِجر: ٣٦] وكل مشرك مُقِرٌّ بأن الله خالقه وخالق السماوات والأرض وربُّ ما فيها ورازقهم، ولهذا احتج عليهم الرسل بقولهم: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ﴾ [سورة النحل: ١٧] وبقولهم: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ﴾ [سورة الحج: ٧٣].

معنى توحيد العبادة

معناه إفراد الله وحده بجميع أنواع العبادة. فهذا هو الذي جعلوا لله فيه شريكاً. فالرسل عليهم السلام بعثوا لتقرير هذا التوحيد. ولذا قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ [سورة النحل: ٣٦] أي قائلين لأممهم هذا القول. فأفاد قوله في كل أمة: أن جميع الأمم لم ترسل إليهم الرسل ولم تبعث إليهم الأنبياء إلا لطلب توحيد العبادة لا للتعريف بأنه الخالق للعالم وأنه رب السماوات والأرض وما بينهما فإنهم مُقِرُّون بهذا وجميع الأمم من أولهم إلى آخرهم لم يختلف فيه أمة من الأمم بل ولا واحد منهم إلا من يكون معتوهاً أو مجنوناً. ومن هنا تعلم أنه قد تقرر أن رأس العبادات وأساس الطاعات توحيد الله سبحانه وتعالى التي أفادته كلمته التي إليها كانت الدعوة من الرسل الكرام جميعهم وهو قوله: لا إله إلا الله. أي لا معبود بحق إلا هو. ومن ثم لم يقل لا خالق أو لا رازق أو لا رب إلا الله. فإن هذا التركيب لا يفيد ما يفيده اسم الجلالة الذي هو معنى المألوه: أي المعبود، والمراد اعتقاد معناها من صميم الجنان، لا مجرد قولها باللسان. ومعناها إفراد الله بالعبادة أيِّ عبادة كانت مما ورد به الشرع، والبراءة من كل معبود دونه، إنساناً كان أو حيواناً آخر، أو جماداً أو نباتاً أو شيئاً من الأشياء.

وقد علم الكفار هذا لأنهم أهل اللسان العربي فقالوا: ﴿أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَاحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ﴿٥﴾﴾ [سورة ص: ٥].

حقيقة التوحيد

فإن التوحيد حقيقته أن ترى الأمور كلها من الله تعالى رؤية تقطع الالتفات عن الأسباب والوسائط فلا ترى الخير والشر إلا منه. وهذا المقام المثمر للمتوكل،

وترك الخلق وترك لومهم والرضاء عن الله تعالى والتسليم لحكمه. وإذا عرفت ذلك علمت أن الربوبية منه تعالى للعباد والتألّه من عباده له سبحانه كما أن الرحمة هي الوصلة بينه عز وجل وبينهم وأن أنفس الأعمال وأجلها قدراً توحيد الله تعالى.

لباب التوحيد

ولباب التوحيد أن يرى العبد الأمور كلها لله تعالى ومنه سبحانه، ثم يقطع الالتفات عن الوسائط وأن يعبد الله سبحانه عبادة يفرده بها ولا يعبد غيره. ويخرج عن هذا التوحيد اتباع الهوى فكل من اتبع هواه فقد اتخذ هواه معبوده. قال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ [سورة الجاثية: ٢٣] وإذا تأولت عرفت أن عابد الوثن لم يعبد الوثن إنما عبد هواه وهو ميل نفسه إلى دين آبائه فيتبع ذلك الميل.

توحيد الألوهية هو المطلوب من العباد

فتوحيد الألوهية هو المطلوب من العباد، ولهذا كان أصله الإله، كما هو قول سيبويه، وهو قول جمهور أصحابه إلا من شذ منهم، وبهذا الاعتبار الذي قررنا به الإله وأنه المحبوب لاجتماع صفات الكمال فيه، كان (الله) هو الاسم الجامع لجميع معاني الأسماء الحسنى والصفات العليا وهو الذي يُنكِره المشركون. والله سبحانه يحتج عليهم بتوحيدهم ربوبيته على توحيد ألوهيته كما قال تعالى: ﴿ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ۝٥٩ أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ۝٦٠﴾ [سورة النمل: ٥٩-٦٠] أي يسوون غير الله تعالى بالله تعالى. وبالجملة فهو تعالى يحتج على منكري الإلهية بإثباتهم الربوبية.

أنواع الشرك

شرك الأمم نوعان:

شرك في الإلهية، وشرك في الربوبية.

فالشرك في الإلهية والعبادة هو الغالب على أهل الشرك وهو شرك عباد الأصنام وعباد الملائكة وعباد الجن وعباد المشايخ والصالحين من الأحياء منهم والأموات الذين قالوا: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [سورة الزُّمَر: ٣]، وهم يشفعون لنا عنده بسبب قربهم من الله وكرامته لهم -قرب كرامة-، كما هو المعهود في الدنيا من حصول الكرامة، والزلفى لمن يحترم أعوان الملك وأقاربه وخاصته. والكتب الإلهية كلها من أولها إلى آخرها تبطل هذا المذهب وترده وتقبح أهله وتنص على أنهم أعداء الله. وجميع الرسل صلوات الله عليهم متفقون على ذلك من أولهم إلى آخرهم وما أهلك الله من الأمم إلا بسبب هذا الشرك ومن أجله، وأصله الشرك في محبته لله تعالى. قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ﴾ [سورة البقرة: ١٦٥] فأخبر أن من أحب مع الله شيئاً غيره يحبه كما يحبه فقد اتخذه نداً من دونه. وهذا هو العدل المذكور في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ۝١﴾ [سورة الأنعام: ١] والمعنى أنهم يعدلون به غيره في العبادة فيسوون بينه وبين غيره في المحبة والعبادة.

والنوع الثاني: شرك به تعالى في الربوبية كشرك من جعل معه خالقاً آخر كالمجوس وغيرهم الذين يقولون بأن للعالم رَبَّيْن أحدهما خالق الخير والآخر خالق الشر. وكالفلاسفة ومن تبعهم الذين يقولون: بأنه لم يصدر عنه إلا واحد بسيط، وأن مصدر هذا العالم عن العقل الفعال، فهو رب كل ما تحته ومدبره. وهذا أشد من عباد الأصنام والمجوس والنصارى، وهو أخبث شرك في العالم. إذ أنه يتضمن

التعطيل وجحد الألوهية والربوبية واستناد الخلق إلى غيره سبحانه ما لم يتضمنه شرك أمة من الأمم. وشرك القدرية مختصر من هذا المطول وباب يدخل منه إليه. ولهذا شبَّههم الصحابة رضي الله عنهم بالمجوس كما ثبت عن ابن عمر وابن عباس. وقد روى أهل السنن فيهم ذلك مرفوعاً: «**أَنَّهُمْ مَجُوسُ هَذِهِ الأُمَّةِ**»(١)، وكثيراً ما يجتمع الشركان في العبد [يعني الشرك في الألوهية والشرك في الربوبية] وقد ينفرد أحدهما عن الآخر. والقرآن الكريم بل والكتب المنزلة من عند الله كلها مصرحة بالرد على أهل هذا الإشراك، كقوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ [سورة الفاتحة: ٥] فإنه ينفي شرك المحبة الإلهية، وقوله: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ [سورة الفاتحة: ٥] فإنه ينفي شرك الخلق والربوبية. فتضمنت هذه الآية تجريد التوحيد لرب العالمين في العبادة والاستعانة وأنه لا يجوز إشراك غيره معه لا في الأفعال ولا في الألفاظ ولا في الإرادات انتهى من كلام المقريزي في كتابه: «تجريد التوحيد المفيد»، وإنما أتيت به في هذا الباب ليقف الناظر فيه والمطَّلِع عليه على حقيقة توحيد الربوبية وتوحيد الألوهية ليدرك ما فيهما من طرائق الإشراك بالله تعالى فإن الأشياء تعرف بأضدادها.

تعريف الشرك

الشرك أن يثبت لغير الله سبحانه شيئاً من صفاته المختصة به. كالتصرف في العالم بالإرادة الذي يعبر عنه بقوله: ﴿كُن فَيَكُونُ ۝١١٧﴾ [سورة البقرة: ١١٧] أو العلم الذاتي من غير اكتساب بالحواس ودليل العقل والمنام والإلهام ونحو ذلك أو الإيجاد لشفاء المريض أو اللعن لشخص والسخط عليه حتى يقدر عليه الرزق أو

---

(١) رواه أبو داود (٤٦٩١) وأحمد (٥٥٨٤) والحاكم (٢٨٦)، وحسنه الشيخ الألباني في «صحيح سنن أبي داود»، من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

يمرض أو يشقى لذلك السخط أو الرحمة لشخص حتى يبسط له الرزق ويصح بدنه ويسعد.

اعتقاد المشركين في الخلق والتدبير

لم يكن المشركون يشركون أحداً في خلق الجواهر، وتدبير الأمور العظام، ولا يثبتون لأحد قدرة على الممانعة إذا أبرم الله سبحانه أمراً، وإنما كان إشراكهم في الأمور الخاصة ببعض العباد. وكانوا يظنون أن الملك على الإطلاق -جَلَّ مَجْدُه- شرَّف بعض العباد بخلعه الألوهية ويؤثر رضاهم وسخطهم في سائر العباد. كما أن الملك من الملوك عظيم القدر يرسل عبيده المخصوصين إلى نواحي الملك ويجعلهم متصرفين في الأمور الجزئية إلى أن يصدر عن الملك حكم صريح. فلا يتوجه إلى تدبير الأمور الجزئية، ويُفوِّض إليهم أمور سائر العباد، ويقبل شفاعتهم في باب من يخدمهم ويتوسل بهم. فكذلك المُقرَّبين من الله تُقبل شفاعتهم للمُتقرِّبين بهم في مجاري الأمور.

تشبيه الله بخلقه

التشبيه عبارة عن إثبات الصفات البشرية لله تبارك وتعالى. فكان المشركون يقولون: الملائكة بنات الله وأنه يقبل شفاعة عباده وإن لم يرضى بها كما أن الملوك يفعلون مثل ذلك بالنسبة إلى الأمراء الكبار وكانوا يقيسون علمه تعالى وسمعه وبصره الذي يليق بجناب الألوهية على علمهم وسمعهم وأبصارهم لقصور أذهانهم فيقعون في القول بالتجسيم والتحيُّز. [فما أقبح هذا القياس].

تحريف المشركين

بيان التحريف أن أولاد إسماعيل عليه السلام كانوا على شريعة جدهم الكريم

حتى جاء عمر بن لحي: فوضع لهم أصناماً وشرع لهم عبادتهم واخترع لهم من بحيرة وسائبة دخان واستقسام بأزلام وما أشبه ذلك. وكان الجهلة يتمسكون في هذا الباب بآثار آبائهم وكانوا يعدون ذلك من الحجج القاطعة. وإن كنت متوقفاً في تصوير حال المشركين وعقائدهم وأعمالهم فانظر إلى حيال العوام والجهلة من أهل الزمان خصوصاً من سكن منهم بأطراف دار الإسلام كيف يظنون الولاية وماذا يخيل إليهم منها. ومع أنهم يعترفون بولاية الأولياء المتقدمين يعدون وجود الأولياء في هذا الزمان من قبيل المحال [هذا عند بعضهم] ويذهبون إلى القبور والآثار ويرتكبون أنواعاً من الشرك. [فانظر] كيف تطرق إليهم التشبيه والتحريف بحكم الحديث الصحيح: «**لَتَتَّبِعُنَّ سَنَنَ مَنْ قَبْلَكُمْ حَذْوَ النَّعْلِ بِالنَّعْلِ**»(١) وما من آفة من هذه الآفات إلا وقوم من أهل هذا الزمان واقعون في ارتكابها معتقدون مثلها، عافانا الله من ذلك.

فضل كلمة التوحيد

كلمة التوحيد [لا إله إلا الله] لها فضائل عظيمة، وفواضل كريمة، وهي كلمة الإخلاص، وشهادة الحق، ودعوة الصدق، وهي براءة من الشرك، ونجاة من النار، ولأجلها خُلقت الخلائق، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦﴾ [سورة الذاريات: ٥٦] أي يوحدوني ويعرفوني. فمن قالها عصم ماله ودمه، ومن أباها فماله ودمه هدر، وهي مفتاح دعوة الرسل، وبها كلم اللهُ موسى، فمن قالها صادقاً أدخله الله الجنة، ومن قالها كاذباً أحرزت ماله وحقنت دمه، وحسابه على الله، ومن الأدلة على فضلها ما رواه أحمد وغيره عن النبي ﷺ: «**إِنَّ مُوسَى قَالَ: يَا رَبِّ عَلِّمْنِي شَيْئاً أَذْكُرُكَ وَأَدْعُوكَ بِهِ، قَالَ: يَا مُوسَى قُلْ لا إِلَهَ إِلاَّ**

---

(١) رواه البخاري (٣٤٥٦) ومسلم (٢٦٦٩) وأحمد (١١٨٠٠).

اللهُ، قَالَ مُوسَى: يَا رَبِّ كلُّ عِبَادِكَ يَقُولُونَ هَذا، قَالَ: قُل: لا إلَـهَ إلَّا اللهُ. قَالَ: لا إلَـهَ إلَّا أَنْتَ، إنَّمَا أُرِيدُ شَيئاً تَـخُصُّنِي بِـهِ، قَالَ: يَا مُوسَى لَو أَنَّ السَّمَواتِ السَّبْع وَعَامِرَهُنَّ غَيرِي والأَرْضِينَ السَّبْعَ في كِفَّةٍ وَلا إِلَهَ إلاَّ اللهُ في كِفَّةٍ مَالَتْ بِهِنَّ لا إِلَهَ إلاَّ اللهُ»[1]، وفي «الصحيحين»: «إِنَّ اللهَ قَدْ حَرَّمَ عَلَى النَّارِ مَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ يَبْتَغِي بِذَلِكَ وَجْهَ اللهِ»[2]، ولهما عن عبادة بن الصامت عن النبي ﷺ قال: «مَنْ شَهِدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ وَأَنَّ عِيسَى عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ وَكَلِمَتُهُ أَلقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ وَالجَنَّةُ حَقٌّ وَالنَّارُ حَقٌّ وَأَنَّ اللهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي القُبُورِ فُتِحَتْ لَهُ أَبْوَابِ الجَنَّةِ الثَّمَانِيَةِ يَدْخُلُ مِنْ أَيِّهَا شَاءَ»[3] إلى غير ذلك من الأدلة.

وبالجملة هذه الكلمة هي الفارقة بين الكفر والإسلام وهي كلمة التقوى وهي العروة الوثقى وهي التي جعلها إبراهيم عليه السلام كلمة باقية في عقبه لعلهم يرجعون. وليس المراد قولها باللسان مع الجهل بمعناها فإن المنافقين يقولونها وهم تحت الكفار في النار مع كونهم يُصَلون ويصومون ويتصدقون ولكن المراد معرفتها بالقلب ومحبتها ومحبة أهلها وبغض من خالفها ومعاداته. وتعرف أن الكفار الذين قاتلهم رسول الله ﷺ وقتلهم ونهب أموالهم وسبى ذراريهم واستحل

---

(١) أخرجه ابن حبان في «صحيحه» (٦٢١٨) والحاكم في «المستدرك» (١/ ٥٢٨) وصححه، ووافقه الذهبي! وأخرجه النسائي في «السنن الكبرى» (١٠٥٨٨) وفي «عمل اليوم والليلة» له (٨٣٤ و ١١٤١) وأبو يعلى في «مسنده» (١٣٩٣) من طريق درّاج عن أبي الهيثم عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه به.

قلت: وهذا إسناد ضعيف، درّاج بن سمعان أبو السمح صدوق، لكن في حديثه عن أبي الهيثم ضعف كما بينه أهل العلم. إلّا أنّ الأحاديث الصحيحة في فضل كلمة التوحيد كثيرة، يأتي ذكر بعض منها، وهي تغني عن هذا الحديث الضعيف.

(٢) رواه البخاري (٤٢٥) ومسلم (٣٣).

(٣) رواه البخاري (٣٤٣٥) ومسلم (٢٨) والترمذي (٢٦٣٨) وأحمد (٢٢٦٧٥).

دماءهم كانوا مقرِّين بتوحيد الربوبية وأنه لا يخلق ولا يرزق ولا يدبر إلا هو ومع هذا لم يدخلهم ذلك في الإسلام وأيضاً كانوا يتعبدون ويحُجّون ويعتَمِرون ويتصدَّقون ويكفُّون عن أشياء من المحرمات خوفاً من الله تعالى، فما أغنى عنهم ذلك شيئاً ولكن الأمر الثاني الذي كفرهم وأحل دماءهم وأموالهم أنهم لم يشهدوا بتوحيد الألوهية، ومعنى أنه لا يُدعى ولا يُعبد ولا يُخاف ولا يُرجى ولا يُستعان ولا يُستغاث إلا الله وحده لا شريك له [وهذا هو معنى لا إله إلا الله].

شرك المتأخرين أعظم شركاً من شرك الجاهلية

وإذا أحطت بما ذكرنا أدركت أن كفر المشركين من المؤمنين من أمة رسولنا ﷺ في العرب والعجم أعظم من كفر الذين قاتلهم النبي ﷺ وقد سمعت أن الله ذكر عن الكفار أنهم إذا مسهم الضر تركوا غير الله من السادة والقادة والطواغيت فلم يدعوا أحداً منهم ولم يستغيثوا بهم بل يخلصون لله وحده لا شريك له وأنت ترى المشركين المدّعين للإيمان من المسلمين وفيهم من يدعي أنه من أهل العلم والفضل وفيه الصلاح والزهد والاجتهاد وفي العبادة إذا مسه الضر وأهمه أمر من أمور الدنيا قام يستغيث بغير الله من الأولياء كأن يستغيث بـ(معروف الكرخي)، و(الشيخ عبدالقادر الجيلاني)، و(سالا رومدار)، ونحوهم وأجل من هؤلاء مثل الخلفاء الراشدين والصحابة المكرمين أجمعين وأجل منهم رسول الله ﷺ. وأشنع وأفظع وأقبح وأعظم جرحاً وأطم ضلالة أنهم يستغيثون بالطواغيت والأجداث وأهل القبور والمردة من الجن والشياطين ويذبحون لهم وينذرون ويسافرون إلى أنصابهم ويفزعون إلى أحبارهم ورهبانهم تقليداً في الفروع والأصول المبنية على شفا جرف هار فإنا لله وإنا إليه راجعون، فبين شركهم وشرك زمان الجاهلية فروق أربعة:

الأول: أنهم كانوا لا يشركون في توحيد الربوبية.

الثاني: أنهم لا يشركون بالله عند الشدائد.

الثالث: أرادوا بذلك الشفاعة والقربة.

الرابع: أنهم كانوا يطلبون ذلك بواسطتهم من الله ومشركوا زماننا يفارقونهم في هذه الأربعة.

أهل الشرك وأهل التوحيد

رأس أعمال الجنة هو توحيد الله تعالى؛ فمن أتى به يوم القيامة فهو من أهل الجنة قطعاً لا ريب فيه ولو كان عليه من الذنوب مثل جبل رضوى، بل بلغ به إلى عنان السماء.

ورأس أعمال أهل النار الشرك بالله تعالى [في ذاته] وفي أسمائه وصفاته كائناً ما كان؛ فمن مات عليه جلياً كان أو خفياً علانية أو سراً فهو من أهل النار قطعاً لا شك ولا شبهة في ذلك، ولو أتى بالعبادة ليلاً ونهاراً وبالصدقة سراً وجهاراً كطوائف أهل الكتاب والمجوس والهنود ومن مثلهم في شيء من ذلك لأنه لما خلط هذا بالشرك بالله تعالى لم ينفعه شيء من هذا بل صارت عبادته لغير الله وبالاً عليه وموجبة له النار. قال تعالى: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَـٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾﴾ [سورة الفرقان: ٢٣] فرحم الله من انتدب لهذا الأمر العظيم قبل أن يَعضّ الظالم على يديه ﴿يَـٰقُولُ يَـٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَـٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾﴾ [سورة الفرقان: ٢٧-٢٨].

جهل العلماء والمشايخ

وأما جهال العلماء والمشايخ الذين يسكتون على هذه الأعمال والعقائد فهم من

جهلة الخلق وعامة الناس الذين قال الله فيهم: ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾﴾ [سورة الفرقان: ٤٤]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [سورة الأنفال: ٢٢] فهم ليسوا في الحقيقة بعلماء ولا مشايخ بل هم من أجهل خلق الله بالله. وما مرادهم بذلك إلا الأكل بالباطل وهم شياطين في جثمان الإنس. فاتفق القرآن والسنة الصحيحة على بيان هؤلاء اللصوص في الدين والمفسدين في الأرض بإفساد ما في الشرع المبين من توحيد رب العالمين.

التقليد الأعمى

تأمل في مقلدة المذاهب كيف أقروا على أنفسهم بتقليد الأموات من العلماء والأولياء واعترفوا بأن الكتاب والسنة خاصاً بهم واستدلوا لإشراكهم في الصلحاء بعبارات القوم ومكاشفات الشيوخ في النوم ورجحوا كلام الأمة والأئمة على كلام الله ورسوله على بصيرة منهم وعلى علم فما ندري ما عذرهم عن ذلك غداً يوم الحساب والكتاب وما ينجيهم من ذلك العذاب والعقاب. ومن صار أسيراً للتقليد وعبداً للعبيد وقنع من الإسلام بالاسم ومن الدين بالرسم واعتقد أن الإيمان هو الذي في كتب المقلدة والمتكلمة وملفوظات الصوفية وصحائف الفروع الفقهية المختلفة التي لا سند لها من أدلة الحديث والكتاب فعلى نفسها براقش تجني، نعم؛ لا مهدي إلا من هداه الله. ومن مَنَّ الله عليه بالعقل المستقيم والقلب السليم، فليحمد الله على هدايته إلى الإسلام. وإن أشكل عليه شيء في الدين فليسأل أهل الذكر العارفين بمعاني كتاب الله والشارحين لحديث رسوله كما قال تعالى: ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [سورة النحل: ٤٣].

أصل العبادة تصحيح الإيمان

وأصل العبادة تصحيح الإيمان، وتقوية الإيقان، وتحقيق الإذعان، لأن من دخل إلى إيمانه خلل أو وقع في زلل فلا تقبل منه عبادة أصلاً، ومن أتى بالإيمان الصحيح فقليل العبادة منه تقبل. فعلى كل إنسان أن يصحح إيمانه وينقح إيقانه ويجهد في ذلك إمكانه. وقد صار الناس في هذا الزمان في أمر الدين على طرائق شتى، ومذاهب لا تحصرها (إلى) و(حتى): فمنهم من اتخذ رسوم أسلافه شرعاً، ومنهم من اعتقد قصص أكابره واتخذها مشرباً، ومنهم من استند في طريقه بالسبيل الذي استنبطه العلماء وأحدثه الأحبار من تلقاء نفوسهم بذكاوة طبائعهم، ومنهم من يستبد بعقله ويفتخر بفضله.

ولا ريب أن الأفضل والأحق من جميع هذه أن يجعل كلام الله تعالى وكلام رسوله أصلاً وبه يستند وعليه يعتمد ولا يعطي لعقله دخلاً فيه، وكل ما وافق من قصص الأكابر وأقوال العلماء بهما يقبله وما خالفهما فلا يستند به بل يرده كائناً ما كان وأينما كان وكذلك كل سمت ودَلٍّ لهم لا يوافق الأصليين يتركه.

الإيمان له جزآن

أحدهما: أن يعتقدوا أن الإله إلهٌ.

والآخر: أن الرسول رسولٌ. ولا يكون الاعتقاد بكون الإله إلهاً إلا بأن لا يشرك به شيئاً. ولا يتحقق الاعتقاد بكون الرسول رسولاً إلا بأن لا يسلك إلا سبيله.

فالأمر الأول: يقال له التوحيد وخلافه يسمى شركاً.

والأمر الثاني: يقال له اتباع السنة ويسمى خلاف البدعة. فعلى كل أحد أن يعض على التوحيد واتباع السنة بنواجذه ويجتنب الشرك والبدعة بمجامع قلبه.

فإن هذين الشيئين يوقعان الخلل في الإيمان وينقصان التصديق والإذعان بخلاف سائر المعاصي والآثام فإن الإخلال فيها إنما هو في فروع الأعمال دون أصل الإيمان. وقد عم الشرك في الناس وعز التوحيد ولا يفهم كثير من الناس معنى الشرك والتوحيد وهم يدَّعون الإيمان ويقولون: نحن مؤمنون. مع أنهم واقعون في شبكة الإشراك ومصيدته. فلا بد من أن يعلم معنى الشرك والتوحيد ويحقق معناهما على وجه التنقيح دون التقليد.

الإشراك في العلم

الشيء الأول: أن يكون حاضراً ناظراً في كل مكان ويكون عالماً بكل شيء في كل شأن سواء كان ظاهراً أو خفياً محسوساً أو باطناً في ظلمة أو نور في السماوات أو في الأرض على تلل الجبال أو في قعر البحار. وهذا شأن الله تعالى ليس لأحد هذا الشأن. فمن يذكر اسم أحد عند القيام أو القعود ويدعوه من قُرْبٍ أو بُعْدٍ ويهتف به عند الشدائد وحلول البلايا وخوف الرزايا، ويستعين باسمه بالحرب على الأعداء، ويجعل اسمه وظيفة له وشغلاً، يشتغل به، ويتصور صورته في حاسة خياله، ويعتقد أنه كلما ذكر اسمه بلسانه أو بقلبه أو تصور صورته أو صورة قبره يطلع على ذلك ويعلم، ولا يخفى عليه شيء من أموره، وكل ما يطرأ عليه من الأحوال كالمرض والعافية والعسر واليسر والحياة والمات والأفراح والأتراح فهو يعلمه، ويسمع كلما يصدر من الكلام من لسانه أو يخطر بالبال ويمر بالخيال فهو واقف على ذلك كله. فهذا الاعتقاد كله شرك ويصير به صاحبه مشركاً. ويقال لهذا: الإشراك في العلم؛ لأن في ذلك إثبات العلم لغير الله كثبوته له؛ فمن اعتقد هذا الاعتقاد لأحد صار مشركاً، سواء كانت هذه العقيدة في الأنبياء والأولياء، أو المشايخ والشهداء، أو في الأئمة وفي أخلافهم، أو في الجن والشياطين، وسواء

يعتقد أن هذا الأمر حاصل لهم من ذواتهم أو من إعطاء الله لهم، فالشرك ثابت بهذه العقيدة على كل حال.

شرك التصرف

الشيء الثاني: أن التصرف في العالم بمحض الإرادة أي من دون أسباب عادية كتصرفه تعالى بلفظ (كن) والقضاء بكل شيء والإحياء والإماتة وتوسعة الرزق وتقتيره والصحة والمرض والفتح والهزيمة والإقبال والإدبار وإنجاح والمرام وقضاء الحوائج ودفع البليات عند حلول الآفات. كل ذلك شأن الله تعالى ليس هذا الشأن لأحد من الأولياء والأنبياء والمشايخ والشهداء ولا لأحد من الجن والشياطين والملائكة. فمن أثبت مثل هذا التصرف لأحد غير الله، ويطلب منه المرادات، وينذر له على هذا التوقع، ويوجب على نفسه النذور لهم، ويدعوهم عند المصائب، فهو مشرك بالله الذي لا إله إلا هو، ولا حكم إلا له وحده لا شريك له. سواء اعتقد أن قدرة هذا التصرف حصلت له بنفسه أو أعطاه الله إياها فالشرك ثابت على كل حال.

شرك العبادة

الشيء الثالث: إن الله تعالى خص بعض الأمور التعظيمية لذاته المقدسة، ويقال لها: العبادات، كالسجدة والركوع وإنفاق المال على اسمه والصيام والإتيان إلى بيته الحرام من كل فج عميق والسفر إليه على هيئة يعلم منها كل من رآهم أن هؤلاء زائرون له يلبون باسمه في طريق السفر، مع الاجتناب فيها عن الرفث والفسوق والجدال والصيد ونحوها، فإذا وصلوا مع هذه القيود إلى بيته العتيق طافوا به، وسجدوا إليه، وبعثوا الهدي، ودَعُوا الله والتجأوا إليه وطلبوا منه سبحانه حوائج الدارين [وغير ذلك من الأعمال المشروعة]، فإن هذه الأمور

[وغيرها] كلها جعلها تعالى عبادة مختصة به لعباده في الأرض وكلفهم بها. فمن فعل شيئاً من هذه لأحد غير الله شيوخاً كانوا أو أنبياء أو شياطين أو خبثاً وخبائث، أو بقبر صادق لأحد من أكابر الدين أو ضريح كاذب، أو يتبرك بآثاره أو بعلم له، أو يسجد لمدفع أو يركع، أو يصوم لأحد، أو يذهب إلى أمكنة لم يأذن الشرع بالسفر إليها، أو يُلْبِس قبراً ثوباً، أو يقبل مرقد الميت صالح أو طالح، أو يسيِّب له السوائب، أو يذبح له حيواناً، أو يوقد هناك سرجاً، أو يلتمس حاجته قائماً ضاماً يديه عنده، أو يجاروه بالعكوف في مقبرته، أو يتأدب لحوالي صحرائه وبيدائه وقاعه ونحو ذلك من الأمور، فالشرك يثبت عليه بهذا، ويقال له: الإشراك في العبادة؛ لأن فيه تعظيم غير الله تعالى كتعظيمه سبحانه، سواء اعتقد أنهم لائقون بهذه العظمة بأنفسهم، أو أن الله تعالى يفرج بهذا التعظيم لهم ويكشف الضر ويدفع البلاء ويسهل عليهم أمورهم ببركة هذا الفعل بهم، فالشرك ثابت على كل حال.

شرك العادات والأفعال

الشيء الرابع: أن الله تعالى أمر عباده وكلّفهم بأن يذكروه سبحانه في جميع أمورهم الدنيوية ولا ينسوه أبداً ويعظموه دائماً ليصح إيمانهم ولا يدخله الشرك وتحصل البركة وينحل بذلك مشكلهم وتسهل مصاعبهم في الأوقات المعضلة والحالات الصعبة كالنذر لله سبحانه ودعائه عند البلية، والبداية باسمه الشريف عند فعل كل فعل والأخذ في كل أمر ذي بال. وإذا ولد لأحد ذكر أو أنثى يذبح حيواناً على اسمه تعالى ويسميه عبدالله أو عبدالرحمن أو أمة الله. ويجعل من الحرث والبستان ومن قطيع الغنم والأنعام له سبحانه ويبعث الهدي إلى بيته الحرام والائتمار بأمره والانتهاء بنهيه في المآكل والمشارب والمناكح والمساكن والمراكب وفي كل شيء مما أمر به يأتي به وما نهى عنه ينتهي عنه ما استطاع. وكل ما يحدث من

الخصب والجدب والصحة والسقم والفتح والهزيمة والإقبال والإدبار والراحة والغم والفرح والترح والعسر واليسر والثروة والجاه ونقص الأنفس والثمرات وحياة الأولاد ومماتهم. فهذا كله من الله وبإرادته ومشيئته وقضائه ليس شيء من هذه (وغيرها) بيد أحد غيره كائناً من كان وفي أي مكان كان وفي أي رتبة من مراتب الصلاح والتقوى أو الفسوق والفجور ظهر. فإن هذه الأمور جعلها الله عبادة مختصة به لعباده في الأرض وكلفهم بها وإن حلف فليحلف به سبحانه لا بغيره لأن من حلف بغير الله فقد أشرك.

وإذا أراد أن يفعل شيئاً فليقل: إن شاء الله فيقدم ذكر إرادته تعالى على إرادة نفسه كيف وقد قال تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [سورة الإنسان: ٣٠] فيقول إذا أراد أن يفعل شيئاً من الأشياء إن شاء الله أفعل كذا وأعمل كذا وأصنع كذا ويسميه على وجه يظهر منه تعظيم اسمه وذكره تعالى شأنه وإذا حلف فليحلف بالله لا بغيره؛ لأن من حلف بغير الله فقد أشرك. فمثل هذه الأمور جعلها الله لتعظيمه وإجلاله وتكريمه خاصة له. فمن صنع هذا [ونحوه] بأحد من الأنبياء أو الأولياء أو الأئمة والشهداء أو الجن والطواغيت والشياطين والخبث والخبائث كما ينذر لهم مثلاً عند شدائد الأمور، أو يغوث بهم أو يوجب على نفسه النذر لهم عند ولادة الأولاد، أو يسمي أولاده بعبد النبي أو عبد الرسول وعبد الحسن أو الحسين، أو يحلف عند الحاجة باسم نبي أو ولي أو ملك أو سلطان أو إمام أو شيخ أو أستاذ، أو باسم الوالد والجد، أو برأس أحد أو بقبره، ونحو ذلك، فهذا كله شرك، ويقال له: شرك العادات.

الشرك الجاري في اللفظ

كالحلف بغيره تعالى، كما رواه أحمد وأبو داود أن رسول الله ﷺ قال: «مَنْ

حَلَفَ بِغَيرِ الله فَقَد أَشْرَكَ» صححه الحاكم وابن حبان[١]، ومن الإشراك قول القائل لأحد من الناس: ما شاء الله وشئت. كما ثبت عن النبي ﷺ أنه قال له رجل: مَا شَاءَ اللهُ وَشِئْتَ فَقَالَ: «أَجَعَلتَنِي للهِ نِدًّا، قُل مَا شَاءَ اللهُ وَحْدَهُ»[٢]، وهذا مع أن الله قد أثبت للعبد مشيئة كقوله تعالى: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾﴾ [سورة التكوير: ٢٨] فكيف بمن يقول: أنا متوكل على الله وعليك، أو أنا في حسب الله وحسبك أو مالي إلا الله وأنت أو هذا من الله ومنك أو هذا من بركات الله وبركاتك أو الله لي في السماء وأنت لي في الأرض. زِنْ بين هذه الألفاظ الصادرة من غالب الناس اليوم وبين ما نهى عنه رسول الله ﷺ من قول: (ما شاء الله وشئت)، ثم انظر إيهما فحش، بيتين لك أن قائلها أولى بالعبد من ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ [سورة الفاتحة: ٥]، وبالجواب من النبي ﷺ لقائل تلك الكلمة، وأنه إذا كان قد جعل رسول الله ﷺ نداً، فهذا قد جعل من لا يداني الله أبداً نداً.

شرك الإرادات والنيات

وأما الشرك في الإرادات والنيات فذلك البحر الذي لا ساحل له وقلَّ من ينجو منه. فمن نوى بعمله غير وجه الله تعالى فلم يقم بحقيقة قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ [سورة الفاتحة: ٥] فإن إياك نعبد هي الحنيفية ملة إبراهيم عليه السلام التي أمر الله بها عباده كلهم ولا يقبل من أحد غيرها وهي حقيقة الإسلام ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي ٱلْآخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [سورة آل عمران:

---

(١) رواه أحمد (٦٠٧٢) أبو داود (٣٢٥١) والترمذي (١٥٣٥) وقال: حديث حسن. وصححه ابن حبان (٤٣٥٨) والحاكم (٤٤).

(٢) رواه أحمد (١٨٣٩)، والبخاري في «الأدب المفرد» (٧٨٣)، والنسائي في «الكبرى» (١٠٧٥٩)، وابن ماجه (٢١١٧)، وصححه الألباني في «صحيح سنن ابن ماجه».

٨٥]، فاستمسك بهذا الأصل ورد ما أخرجه المبتدعة والمشركون إليه يتحقق لك معنى الكلمة الإلهية. وإن قيل إن المشرك لم يقصد الاستهانة بجانب الربوبية بل إنما قصد تعظيمه وقال: إنما أعبد هؤلاء الوسائط ليقربوني إلى الله ويدخلوني عليه فهو الغاية وهذه هي الوسائل فلماذا كان هذا القدر موجباً لسخط الله وغضبه ومخلداً في النار وموجباً لسفك دماء أصحابه واستباحة حريمهم وأموالهم؟ وهل يجوز في العقل أن يشرع الله لعباده التقرب إليه بالشفعاء والوسائط فيكون تحريم هذا إنما استفيد بالشرع فقط! أم ذلك قبيح في الشرع والعقل معاً؛ إذاً العقل يمتنع أن يأتي بشريعة من الشرائع. وما ليس في كونه لا يغفر من بين سائر الذنوب كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [سورة النساء: ٤٨]، قلنا الشرك شركان:

شرك يتعلق بذات المعبود وأسمائه وصفاته وأفعاله. وشرك في عبادته ومعاملته وإن كان صاحبه يعتقد أنه سبحانه لا شريك له في ذاته ولا في صفاته.

وأما الشرك الثاني: فهو الذي فرغنا من الكلام عليه الآن.

وأما الشرك الأول فهو نوعان:

أحدهما: شرك التعطيل: وهو أقبح أنواع الشرك كشرك فرعون في قوله: ﴿وَمَا رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [سورة الشعراء: ٢٣]، والشرك والتعطيل متلازمان فكل مشرك معطل وكل معطل مشرك ولكن الشرك لا يستلزم أصل التعطيل بل قد يكون المشرك مقراً بالخالق سبحانه وصفاته ولكنه معطل حق التوحيد.

مرجع الشرك التعطيل

فأصل الشرك وقاعدته التي يرجع إليها هو التعطيل وهو ثلاثة أقسام:

أحدها: تعطيل المصنوع من صانعه.

الثاني: تعطيل الصانع عن كماله الثابت له.

والثالث: تعطيل معاملته عما يجب على العبد من حقيقة التوحيد.

ومن أهل هذا الشرك أهل وحدة الوجود: ومنه شرك الملاحدة القائلين بقدم العالم وأبديته وأن الحوادث بأسرها مستندة إلى أسباب ووسائط اقتضت إيجادها ويسمونها العقول والنفوس. ومنه شرك معطلة الأسماء والصفات كالجهمية والقرامطة وغلاة المعتزلة.

والنوع الثاني: **شرك التمثيل**: وهو شرك من جعل معه تعالى إلهاً آخر كالنصارى في المسيح واليهود في عزير والمجوس القائلين بإسناد حوادث الخير إلى النور وحوادث الشر إلى الظلمة، وشرك القدرية المجوسية مختصر منه، وهؤلاء أكبر مشركي العالم وهم طوائف جمة: منهم من يعبد أجزاء سماوية، ومنهم من يعبد أجزاءً أرضية، ومن هؤلاء من يزعم أن معبودهم أكبر الآلهة، ومنهم من يزعم أنه إله من جملة الآلهة، ومنهم من يزعم أنه إذا خصه بعبادته والتبتل إليه أقبل عليه واعتنى به، ومنهم من يزعم أن معبوده الأدنى يقرب إلى الأعلى الفوقاني، وهذا الفوقاني يقربه إلى من فوقه حتى تقربه تلك الآلهة إلى الله سبحانه. فإذا عرفت هذه الطوائف وعرفت اشتداد نكير الرسول صلى الله عليه وسلم على من أشرك بالله تعالى في الأفعال والأقوال والإرادات كما تقدم ذكره انفتح لك باب الجواب على السؤال فنقول: اعلم أن حقيقة الشرك تشبيه المخلوق بالخالق والخالق بالمخلوق أما الخالق فإن المشرك شبه المخلوق بالخالق في خصائص ألوهيته وهو التفرد بملك الضر والنفع والعطاء والمنع. فمن علق ذلك بمخلوق فقد شبهه بالخالق تعالى وسوى بين التراب ورب الأرباب فأي فجور أكبر من هذا وأي ذنب أعظم من هذا.

بعض خصائص الألوهية

ومن خصائص الألوهية الكمال المطلق من جميع الوجوه الذي لا نقص فيه بوجه من الوجوه، وذلك يوجب أن تكون العبادة له وحده عقلاً وشرعاً وفطرة، فمن جعل ذلك لغيره فقد شبه الغير بمن لا شبيه له، ولشدة قبحه وتضمنه غاية الظلم أخبر من كتب على نفسه الرحمة أنه لا يغفره أبداً. ومن خصائص الإلهية التي لا تقوم إلا على ساقي الحب والذل، فمن أعطاهما لغيره فقد شبهه بالله في خالص حقه، وقبح هذا مستقر في العقول والفطر، ومن خصائص الإلهية السجود، فمن سجد لغير الله فقد شبهه به، ومنها التوكل فمن توكل على غيره فقد شبهه به ومنها التوبة فمن تاب لغيره فقد شبهه به ومنها الحلف باسمه فمن حلف بغيره فقد شبهه به ومنها الذبح له سبحانه فمن ذبح لغيره فقد شبهه به إلى غير ذلك. هذا في جانب التشبيه وأما في جانب التشبه: فمن تعاظم وتكبر ودعا الناس إلى إطرائه ورجائه ومخافته فقد تشبه بالله ونازعه في ربوبيته وهو حقيق بأن يهينه الله غاية الهوان ويجعله كالذر تحت أقدام خلقه. وفي الصحيح عنه ﷺ أنه قال: «**يَقُولُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: العَظَمَةُ إِزَارِي وَالكِبْرِيَاءُ رِدَائِي فَمَنْ نَازَعَنِي وَاحِدًا مِنْهُمَا عَذَّبْتُهُ**»[١] وكذلك من تشبه به تعالى في الاسم الذي لا ينبغي إلا له سبحانه كملك الملوك وحاكم الحكام وقاضي القضاة ونحوها وقد ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «**إِنَّ أَخْنَعَ اسْمٍ عِنْدَ اللهِ رَجُلٌ تَسَمَّى شَاهَانْ شَاهْ مَلِكَ الأَمْلَاكِ، لَا مَالِكَ إِلَّا اللهُ عَزَّ وَجَلَّ**»[٢]، وفي لفظ: «**أَغْيَظُ رَجُلٌ عِنْدَ اللهِ رَجُلٌ تَسَمَّى بِمَلِكِ الأَمْلَاكِ**»[٣].

وبالجملة فالتشبه والتشبيه كلاهما حقيقة الشرك.

---

(١) رواه أبو داود (٤٠٩٠) وابن ماجه (٤١٧٤) وأحمد (٧٣٨٢)، وصححه الشيخ الألباني.

(٢) رواه البخاري (٦٢٠٥، ٦٢٠٦) ومسلم (٢١٤٣).

(٣) رواه البخاري (٤٠٧٣) ومسلم (٢١٤٣).

واعلم أن الذي ظن أن الرب سبحانه لا يسمع له ولا يجيب له إلا بواسطة تطلعه على ذلك أو تسأل ذلك منه فقد ظن بالله ظن السوء. فإنه إن ظن أنه لا يعلم ولا يسمع إلا بإعلام من غيره وإسماعه له؛ فقد نفى علم الله وسمعه وكمال إدراكه وكفى بذلك ذنباً. وإن ظن أنه يسمع ويرى ولكن يحتاج إلى من يلينه ويعطفه عليهم فقد أساء الظن بأفضال ربه وبره وإحسانه وسعة جوده.

وهذا بخلاف الملوك فإنهم محتاجون إلى الوسائط ضرورة لحاجتهم وعجزهم وضعفهم وقصور علمهم عن إدراك حوائج المضطرين فأما من لا يشغله سمع عن سمع ولا بصر عن بصر وسبقت رحمته غضبه وكتب على نفسه الرحمة فماذا تصنع الوسائط، فمن اتخذ واسطة بينه وبين الله تعالى فقد ظن به أقبح الظن، ومستحيل أن يشرعه لعباده، بل ذلك ممتنع في العقول والفطر.

المشرك لم يقدر الله حق قدره

قال تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [سورة الزُّمَر: ٦٧]، فما قدَّر اللهَ القويَّ العزيزَ الجليلَ حق قدره من أشرك معه الضعيف الذليل. واعلم أنك إذا تأملت جميع طوائف الضلال والبدع وجدت أصل ضلالهم راجعاً إلى شيئين:

أحدهما: ظنهم بالله ظن السوء.

والثاني: أنهم ما قدروا الرب حق قدره. فلم يقدره حق قدره من ظن أنه لم يرسل رسولاً ولا أنزل كتاباً، بل ترك الخلق سدى وخلقهم عبثاً، ولا قدره حق قدره من نفى عموم قدرته وتعلقها بأفعال العباد من طاعتهم ومعصيتهم وأخرجها عن خلقه وقدرته ولا قدر الله حق قدره أضداد هؤلاء الذين قالوا إنه

يعاقب عبده على ما لم يفعله بل يعاقبه على فعله هو سبحانه، وإذا استحال في العقول أن يجبر السيد عبده على فعل ثم يعاقبه عليه فكيف يصدر هذا من أعدل العادلين؟ وقول هؤلاء شر من أشباه المجوس القدرية الأذلين، ولا قدره حق قدره من نفى رحمته ومحبته ورضاه وغضبه وحكمته مطلقاً وحقيقة فعله ولم يجعل له فعلاً اختيارياً بل جعل أفعاله مفعولات منفصلة عنه. ولا قدره حق قدره من جعل له صاحبة وولداً أو جعله يحل في مخلوقاته أو جعله عين هذا الوجوه. ولا قدره حق قدره من قال: إنه رفع أعداء رسوله وأهل بيته وجعل فيهم الملك ووضع أولياء رسوله وأهل بيته. وهذا يتضمن غاية القدح في الرب تعالى عن قول الرافضة. وهذا مشتق من قول اليهود والنصارى في رب العالمين: أنه أرسل ملكاً ظالماً فادعى النبوة وكذب على الله ومكث زمناً طويلاً يقول أمرني بكذا أو نهاني عن كذا ويستبيح دماء أولياء الله وأحبابه، والرب تعالى يظهره ويؤيده ويقيم الأدلة والمعجزات على صدقه ويقبل بقلوب الخلق وأجسادهم إليه ويقيم دولته على الظهور والزيادة ويذل أعداءه أكثر من ثمانمائة عام. فوازن بين قول هؤلاء وقول الرافضة تجد القولين سواء. ولا قدره حق قدره من زعم أنه لا يحيي الموتى ولا يبعث من في القبور ليبين لعباده الذين كانوا فيه يختلفون ويعلم الذين كفروا أنهم كانوا كاذبين. وبالجملة فهذا باب واسع جداً. والمقصود أن كل من عبد مع الله غيره فإنما عبد شيطاناً قال تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَـٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُواْ ٱلشَّيْطَـٰنَ﴾ [سورة يس: ٦٠] فما عبد أحد أحداً من بني آدم كائناً ما كان إلا وقعت عبادته للشيطان.

أقسام الناس في العبادة والاستعانة

واعلم أن الناس في عبادة الله تعالى والاستعانة به على أربعة أقسام:

الأول: وهو أجلها وأفضلها: أهل العبادة والاستعانة بالله. فعبادة الله غاية أمرهم ومرادهم وطلبهم منه أن يعينهم عليها ويوفقهم للقيام بها نهاية قصدهم، ولهذا كان أفضل ما يسأل الرب تعالى الإعانة على مرضاته وهو الذي علمه النبي ﷺ معاذ بن جبل فقال: «**يَا مُعَاذُ! وَاللهِ إِنِّي لَأُحِبُّكَ فَلَا تَدَعْ أَنْ تَقُولَ فِي دُبُرِ كُلِّ صَلَاةٍ: اللهُمَّ أَعِنِّي عَلَى ذِكْرِكَ وَشُكْرِكَ وَحُسْنِ عِبَادَتِكَ**»[١] ويقابل هؤلاء.

القسم الثاني: المعرضون عن عبادة الله والاستعانة به فلا عبادة لهم ولا استعانة بل إن سأله تعالى أحدهم واستعان به فعلى حظوظه وشهواته والله تعالى يسأله كل من في السماوات والأرض ويسأله أولياؤه وأعداؤه فيمد هؤلاء وهؤلاء. وأبغض خلقه إليه إبليس ومع هذا أجاب سؤاله وقضى حاجته ومتعه بها ولكن لما كانت حاجته لم تكن عوناً على مرضاة الله كانت زيادة في شقوته وبعده وطرده.

وهكذا كل من سأل الله واستعان به على ما لم يكن عوناً له على طاعته وكان سؤاله مبعداً له عن الله تعالى فليتدبر العاقل هذا وليعلم أن إجابة الله لسؤال بعض السائلين ليست لكرامته عليه بل قد يسأله عبده الحاجة فيقضيها له وفيها هلاكه ويكون منعه منها حماية له وصيانة، والمعصوم من عصمه الله والإنسان على نفسه بصيرة. فإنه سبحانه يوسع على الكافر لا لكرامته ويقتر على المؤمن لا لهوانه عليه وإنما يكرم سبحانه من يكرم من عباده بأن يوفقه لمعرفته ومحبته وعبادته واستعانته. فغاية سعادة العبد في عبادة الله والاستعانة بها عليها.

القسم الثالث: من له نوع عبادة بلا استعانة وهؤلاء نوعان:

أحدهما: أهل القدر القائلون بأنه سبحانه قد فعل بالعبد جميع مقدوره من الألطاف وأنه لم يبق في مقدوره إعانة له على الفعل فإنه قد أعانه بخلق الآلات

---

(١) رواه النسائي (١٣٠٣) وأبو داود (١٥٢٢) وأحمد (٢٢١٢٦)، وصححه ابن خزيمة (٧٥١) وابن حبان (٢٠٢٠) والحاكم (١٠١٠) وقال: صحيح على شرط الشيخين. ووافقه الذهبي.

وسلامتها وتعريف الطريق وإرسال الرسول وتمكينه من الفعل فلم يبق بعدها إعانة مقدورة يسأله إياها وهؤلاء مخذولون موكلون إلى أنفسهم مسدودة عليهم طريقة الاستعانة والتوحيد. قال ابن عباس رضي الله عنه: «**الإيمان بالقدر نظام التوحيد فمن آمن بالله وكذب بقدره نقص توحيده**». [قَالَ ابْنُ عُمَرَ: «**وَالَّذِي نَفْسُ ابْنُ عُمَرَ بِيَدِهِ لَوْ كَانَ لِأَحَدِهِمْ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا ثُمَّ أَنْفَقَهُ فِي سَبِيلِ الله تَعَالَى مَا قَبِلَهُ اللهُ مِنْهُ حَتَّى يُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ**» ثم استدل بقول النبي ﷺ: «**الإِيمَانُ أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ**» رواه مسلم(١)].

النوع الثاني: من لهم عبادة وإرادة لكن حظهم ناقص من التوكل والاستعانة، لم تتسع قلوبهم لارتباط الأسباب بالقدر. وأنها بدون المقدور كالموات الذي لا تأثير له وكالعدم الذي لا وجود له، وأن القدر كالروح المحرك لها، والمعول على المحرك الأول فلم تنفذ بصائرهم من السبب إلى المسبب، ومن الآلة للفاعل، فقلَّ نصيبهم من الاستعانة، وهؤلاء لهم نصيب من التصرف بحسب استعانتهم وتوكلهم ونصيب من الضعف والخذلان بحسب استعانتهم وتوكلهم، ولو توكل العبد على الله حق توكله في إزالة جبل لأزاله [﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [سورة الطلاق: ٣].

القسم الرابع: من له استعانة بلا عبادة وتلك حالة من شهد تفرد الله تعالى بالضر والنفع ولم يدر ما يحبه ويرضيه فتوكل عليه في حظوظه وشهواته فأسعفه بها، وهذا لا عاقبة له سواء كانت أموالاً أو رياسات أو جاهاً عند الخلق أو نحو ذلك فذلك حظه من دنياه وآخرته. واعلم أن العبد لا يكون متحققاً بعبادة الله تعالى إلا بأصلين أحدهما متابعة الرسول ﷺ والثاني إخلاص العبودية [من جميع الوجوه].

---

(١) رواه مسلم (٨)، وأبو داود (٤٦٩٥)، والترمذي (٣٦١٠)، والنسائي (٤٩٩٠)، وابن ماجه (٦٣).

أقسام الناس في تحقيق العبادة

الناس في متابعة الرسول ﷺ وإخلاص العبادة ينقسمون إلى أربعة أقسام:

الضرب الأول: أهل الإخلاص والمتابعة فأعمالهم كلها لله وأقوالهم ومنعهم وعطاؤهم وحبهم وبغضهم كل ذلك لله تعالى لا يريدون من العباد جزاء ولا شكوراً، وعَدُّوا جملة الناس كأصحاب القبور لا يملكون ضراً ولا نفعاً ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً فإن الإنسان لا يعمل لأحد من الخلق إلا لجهله بالله وجهله بالخلق والإخلاص هو العمل الذي لا يقبل الله من عامل عملاً صواباً عادياً منه وهو الذي ألزم عباده به إلى الموت. قال تعالى: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [سورة المُلك: ٢] وأحسن العمل أخلصه وأصوبه. فالخالص أن يكون لله والصواب أن يكون على وفق سنة رسول الله ﷺ. وهذا هو العمل الصالح المذكور في قوله تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴿١١٠﴾﴾ [سورة الكهف: ١١٠] (فإن الإنسان لا يعمل لأحد) وكل عمل بلا متابعة فإنه لا يزيد عامله إلا بعداً عن الله تعالى فإن الله تعالى إنما يعبد بأمره لا بالأهواء والآراء وقد قال النبي ﷺ: «**كُلُّ عَمَلٍ لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ**»[1] أي مردود على صاحبه.

الضرب الثاني: من لا إخلاص له ولا متابعة وهؤلاء شرار الخلق وهم المتزينون بأعمال الخير يراءون الناس، وهذا الضرب يكثر فيمن انحرف عن الصراط المستقيم من المنتسبين إلى الفقه والعلم والفقر والعبادة، فإنهم يرتكبون البدع والضلال والرياء والسمعة ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا. وفي أضراب هؤلاء نزل قوله تعالى: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوا وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ

---

(١) رواه مسلم (١٧١٨) وأحمد (٢٤٤٥٠).

يَفْعَلُواْ فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨٨﴾ [سورة آل عمران: ١٨٨].

الضرب الثالث: من هو مخلص في أعماله لكنها من غير متابعة الأمر كجهال العباد المنتسبين إلى الزهد والفقر، وكل من عبد الله على غير مراده، والشأن ليس إلا في عبادة الله كما أراد الله. ومنهم من يمكث في خلوته تاركاً للجمعة والجماعات والأعياد ويرى ذلك قُربة ويرى مواصلة صوم النهار بالليل قُربة وأن صيام يوم الفطر قُربة وأمثال ذلك.

الضرب الرابع: من أعماله على متابعة الأمر لكنها لغير الله كطاعات المرائين كالرجل يقاتل رياء وسمعة وحمية وشجاعة وللمغنم، ويقرأ ويحج ليقال عنه ذلك، ويُعلِّم ويؤلف ليقال عنه ذلك، فهذه أعمال صالحة لكنها غير مقبولة. قال تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ﴾ [سورة البيِّنة: ٥] فلم يُؤمر الناس إلا بالعبادة على المتابعة والإخلاص فيها. والقائم بهما هم أهل ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾﴾ [سورة الفاتحة: ٥] ثم أهل إياك نعبد لهم في أفضل العبادة وأنفعها وأحقها بالإيثار والتخصيص أربعة طرق وهم في ذلك أربعة أصناف:

الصنف الأول: عندهم أنفع العبادات وأفضلها أشقها على النفوس وأصعبها. قالوا: لأنه أبعد الأشياء من هواها وهو حقيقة التعبد والأجر على قدر المشقة وهؤلاء هم أرباب المجاهدات والجور على النفوس. قالوا: وإنما تستقيم النفوس بذلك إذ طبعها الكسل والمهاونة والإخلاد إلى الراحة فلا تستقيم إلا بركوب الأهوال وتحمل المشاق.

الصنف الثاني: أفضل العبادات وأنفعها التجرد والزهد في الدنيا والتقلل منها غاية الإمكان وطرح الاهتمام بها وعدم الاكتراث لما هو منها، ثم هؤلاء قسمان:

فعوامّهم ظنوا أن هذا غاية فشمروا إليه وعملوا عليه وقالوا: هو أفضل من درجة العلم والعبادة ورأوا الزهد في الدنيا غاية كل عبادة ورأسها. وخواصهم رأوا هذا مقصود لغيره وأن المقصود به عكوف القلب على الله تعالى والاستغراق في محبته والإنابة إليه والتوكل عليه والاشتغال بمرضاته. فرأوا أفضل العبادات دوام ذكره بالقلب واللسان.

ثم هؤلاء الخواص قسمان:

١- فالعارفون إذا جاء الأمر والنهي بادروا إليه ولو فرقهم وأذهب جميعهم.

٢- والمنحرفون منهم يقولون: المقصود من القلب جمعيته فإذا جاء ما يعرفونه عن الله لم يلتفتوا إليه ويقولون: يطالب بالأوراد من كان غافلاً، فكيف يقلب كل أوقاته وِرْدٌ؟!

ثم المنحرفون من الزهاد قسمان:

١- منهم من يترك الواجبات والفرائض لجمعيته.

٢- ومنهم من يقوم بها ويترك السنن والنوافل ويعلم العلم النافع لجمعيته، والحق أن الجمعية حظ القلب وإجابة داعي الله حق الرب فمن آثر حق نفسه على حق ربه فليس في شيء.

الصنف الثالث: رأوا أن أفضل العبادات ما كان فيه نفع متعد، فرأوه أفضل من النفع القاصر فرأوا خدمة الفقراء والاشتغال بمصالح الناس وقضاء حوائجهم ومساعدتهم بالجاه والمال والنفع أفضل لقوله ﷺ: «**الخَلْقُ كُلُّهُمْ عِيَالُ الله، فَأَحَبُّ الخَلْقِ إِلَى الله أَنْفَعُهُمْ لِعِيَالِهِ**»[1].

---

(١) أخرجه البزار في «مسنده» (٦٩٤٧)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٧٤٤٥)، وأبو يعلى في «مسنده» (٣٣١٥، ٣٣٧٠)، والحارث بن أبي أسامة (٩١١ بغية الباحث)، وابن عدي في «الكامل في ضعفاء الرجال» (٧/ ١٥٣-١٥٤)، وابن أبي الدنيا في «قضاء الحوائج» (٢٤)، =

قالوا: وعمل العابد قاصر على نفسه، وعمل النافع متعد إلى الغير؛ فأين أحدهما من الآخر؟ ولهذا كان «**فَضْلَ العَالِمِ عَلَى العَابِدِ، كَفَضْلِ القَمَرِ لَيْلَةَ البَدْرِ عَلَى سَائِرِ الكَوَاكِبِ**»(١)، وقد قال ﷺ لعلي: «**وَاللهِ لَأَنْ يَهْدِيَ اللهُ بِكَ رَجُلًا وَاحِدًا خَيْرٌ لله مِنْ حُمْرُ النَّعَم**»(٢)، وقال: «**مَنْ دَعَا إِلَى هُدًى كَانَ لَهُ مِنَ الأَجْرِ مِثْلُ أُجُورِ مَنْ تَبِعَهُ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ ذَلِكَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْئًا**»(٣) وقال: «**إِنَّ اللهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى مُعَلِّمِي [النَّاس] الخَيْرَ**»(٤) قالوا وصاحب العبادة إذا مات انقطع عمله

= والقضاعي في «مسند الشهاب» (١٣٠٦) من حديث أنس رضي الله عنه.
وذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٨/ ١٩١)، وقال: «رواه أبو يعلى، والبزار، وفيه يوسف بن عطية الصفار، وهو متروك».
وقال النووي كما في «كشف الخفاء» (١/ ٤٥٧): «هو حديث ضعيف؛ لأن فيه يوسف بن عطية، ضعيف باتفاق الأئمة». وأورده الحافظ الذهبي في «الميزان» ضمن مناكيره.
وأخرجه الطبراني في «الكبير» (١٠٠٣٣)، وابن حبان في «المجروحين» (٢/ ٢٣٨)، وابن عدي في «الكامل» (٦/ ٣٤١)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٧٤٤٨، و٧٤٤٩)، وأبو نعيم في «حلية الأولياء» (١/ ١٠٢)، والخطيب في «تاريخ بغداد» (٦/ ٣٣٣)، ومن طريقه ابن الجوزي في «العلل المتناهية» (٢/ ٥١٩)، من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.
وفي إسناده موسى بن عمير، وهو القرشي، وهو متروك. قال أبو نعيم: «غريب من حديث الحكم، لم يروِه عنه إلا موسى بن عمير». وقال ابن الجوزي: «هذا حديث لا يصح».
وقال ابن حجر المكي في «الفتاوى الحديثية» -كما في «كشف الخفاء» (٢/ ٤٥٨)-: «ورد من طرق كلها ضعيفة».

(١) رواه أبو داود (٣٦٤١)، والترمذي (٢٦٨٢)، وابن ماجه (٢٢٣)، وأحمد (٢١٧١٥)، من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه، وصححه ابن حبان في «صحيحه» (٨٨)، وكذا صححه الألباني في «صحيح سنن أبي داود».

(٢) رواه البخاري (٣٠٠٩) ومسلم (٢٤٠٦) وأحمد (٢٢٨٢١).

(٣) رواه مسلم (٢٦٧٤) وأبو داود (٤٦٠٩) والترمذي (٢٦٧٤) وابن ماجة (٢٠٦) وأحمد (٩١٦٠) والدارمي (٥٣٠).

(٤) رواه الترمذي (٢٦٨٥)، والطبراني (٧٩١٢)، وصححه الألباني في «صحيح سنن الترمذي».

وصاحب النفع لا ينقطع عمله ما دام نفعه الذي تسبب فيه (جارياً) والأنبياء عليهم السلام إنما بعثوا بالإحسان إلى الخلق وهدايتهم ونفعهم في معاشهم ومعادهم ولم يبعثوا لأجل الخلوات والانقطاع. ولهذا أنكر النبي ﷺ على أولئك النفر الذين هموا بالانقطاع والتعبد وترك مخالطة الناس. ورأى هؤلاء أن التفرغ لنفع الخلق أفضل من الجمعية على الله بدون ذلك قالوا: ومن ذلك العلم والتعليم ونحو هذه الأمور الفاضلة.

الصنف الرابع: قالوا: أفضل العبادة العمل على مرضاة الرب سبحانه واشتغال كل وقت بما هو مقتضى ذلك الوقت ووظيفته:

١- فأفضل العبادات في وقت الجهاد الغزو في سبيل الله، وإن آل إلى ترك الأوراد من صلاة الليل وصيام النهار، بل من ترك صلاة الفرض كما في حال عدم الأمن.

٢- والأفضل في وقت حضور الضيف القيام بحقه والاشتغال به.

٣- والأفضل في أوقات السحر الاشتغال بالصلاة والذكر والدعاء.

٤- والأفضل في وقت الأذان ترك ما هو فيه من الأوراد والاشتغال بإجابة المؤذن.

٥- والأفضل في أوقات الصلوات الخمس الجد والجهد في إيقاعها على أكثر الوجوه فالمبادرة إليها في أول الوقت والخروج إلى المسجد (للصلاة جماعة).

٦- والأفضل في وقت ضرورة المحتاج المبادرة إلى مساعدته بالجاه والمال والبدن.

٧- والأفضل في السفر مساعدة المحتاج وإعانة الرفقة وإيثار ذلك على الأوراد والخلوة.

٨- والأفضل في وقت قراءة القرآن جمعية القلب والهمة على تدبره والعزم على

تنفيذ أوامره [واجتناب نواهيه] أعظم من جمعية قلب من جاءه كتاب من السلطان على ذلك.

٩- والأفضل في وقت الوقوف بعرفة الاجتهاد في التضرع والدعاء والذكر.

١٠- والأفضل في أيام عشر ذي الحجة الإكثار من التعبد لا سيما التكبير والتهليل والتحميد وهو أفضل من الجهاد غير المعين.

١١- والأفضل في العشر الأواخر من رمضان لزوم المساجد والخلوة فيها مع الاعتكاف والإعراض عن مخالطة الناس والاشتغال بهم حتى أنه أفضل من الإقبال على تعليم العلم وإقراء القرآن عند كثير من العلماء.

١٢- والأفضل في وقت مرض الأخ المسلم عيادته، وحضور جنازته وتشييعه [عند موته]، وتقديم ذلك على الخلوة والجمعية.

١٣- والأفضل في وقت نزول النوازل وأذى الناس له الصبر مع الخلطة بهم.

[ففي هذا الصنف ذكر ثلاثة عشر من المنافع التي يكون بعضها أفضل من بعض عند المناسبة والحاجة].

وقال المصنف: و«**الْمُؤْمِنُ الَّذِي يُخَالِطُ النَّاسَ، وَيَصْبِرُ عَلَى أَذَاهُمْ، أَفْضَلُ مِنَ الْمُؤْمِنِ الَّذِي لَا يُخَالِطُ النَّاسَ، وَلَا يَصْبِرُ عَلَى أَذَاهُمْ**»[1]، وخلطتهم في الخير أفضل من عزلتهم فيه وعزلتهم في الشر أفضل من خلطتهم فيه وهؤلاء هم أهل التعبد المطلق والأصناف التي قبلهم أهل التعبد المقيد. فمتى خرج أحدهم عن الفرع الذي تعلق به من العبادة وفارقه يرى نفسه كأنه قد نقص ونزل عن عادته فهو يعبد الله على وجه واحد. وصاحب التعبد المطلق ليس له غرض في تعبد بعينه يؤثره على غيره بل غرضه تتبع مرضاة الله تعالى فهذا هو الغذاء الجامع السائر إلى الله تعالى على كل طريق.

---

(١) رواه ابن ماجه (٤٠٣٢)، وأحمد (٥٠٢٢)، وصححه الألباني في «صحيح سنن ابن ماجه».

أصناف الناس في فهم العبادة وحكمتها

الصنف الأول: نفاة الحكم والعلل الذين يردون الأمر إلى نفس المشيئة وصرف الإرادة فهؤلاء عند القيام بها ليس إلا لمجرد الأمر من غير أن تكون سبباً لسعادة في معاش أو معاد أو سبباً لنجاة وإنما القيام بها لمجرد الأمر ومحض المشيئة كما قالوا في الخلق: لم يخلق لغاية ولا لعلة هي المقصودة به ولا لحكمة تعود إليه منه وليس في المخلوقات أسباب تكون مقتضياتها لمسبباتها وليس في النار سببية الإحراق ولا في الماء قوة الإغراق ولا التبريد. وهكذا الأمر عندهم سواء لا فرق بين الخلق والأمر ولا فرق في نفس الأمر بين المأمور والمحضور ولكن المشيئة اقتضت أمره بهذا أو نهيه عن هذا من غير أن يقوم بالمأمور صفة تقتضي حسنه ولا بالمنهي صفة تقتضي قبحه. ولهذا الأصل لوازم وفروع كثيرة وهؤلاء غالبهم لا يجدون حلاوة العبادة ولا لذتها ولا يتنعمون بها ولهذا يسمون الصلاة والصيام والزكاة والحج والتوحيد والإخلاص ونحو ذلك تكاليف أي كلفوا بها.

الصنف الثاني: القدرية النفاة الذين يثبتون نوعاً من الحكمة والتعليل لا يقوم بالرب ولا يرجع إليه بل يرجع لمحض مصلحة المخلوق ومنفعته فعندهم أن العبادات شرعت أثماناً لما يناله العباد من الثواب والنعيم وأنها بمنزلة استيفاء الأجير أجره قالوا: ولهذا جعلها الله عوضاً كقوله تعالى: ﴿وَنُودُوٓاْ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝٤٣﴾ [سورة الأعراف: ٤٣] وقال: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ۝١٠﴾ [سورة الزُّمَر: ١٠] وفي «الصحيح»: «**إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ، ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إِيَّاهَا**»[١] قالوا: وقد سماها جزاء وأجراً وثواباً لأنه شيء يؤوب إلى العامل من عمله أي يرجع إليه. وقالوا: وبدل عليه الموازنة فلولا تعلق

(١) أخرجه مسلم (٢٥٧٧).

الثواب بالأعمال عوضاً عليها لم يكن للموازنة معنى. وهاتان الطائفتان متقابلتان:

فالجبرية لم تجعل للأعمال ارتباطاً بالجزاء البتة، وجوزت أن يعذب الله من أفنى عمره في طاعته، وينعِّم من أفنى عمره في مخالفته، وكلاهما سواء بالنسبة إليه، والكل راجع إلى محض المشيئة.

والقدرية أوجبت عليه سبحانه رعاية المصالح وجعلت ذلك كله بمحض الأعمال، وأن وصول الثواب إلى العبد بدون عمله فيه تنقيص باحتمال منة الصدقة عليه بلا ثمن، فجعلوا تفضله سبحانه على عبده بمنزلة صدقة العبد على العبد.

والطائفتان منحرفتان عن الصراط المستقيم، وهو أن الأعمال أسباب موصلة إلى الثواب، والأعمال الصالحات من توفيق الله وفضله وليست قدراً لجزائه وثوابه، بل غايتها إذا وقعت على أكمل الوجوه أن تكون شكراً على أحد الأجزاء القليلة من نعم الله التي لا تحصى، فلو عذب أهل سماواته وأهل أرضه لعذبهم وهو غير ظالم لهم، ولو رحمهم لكانت رحمته خيراً لهم من أعمالهم، وتأمل قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٢﴾﴾ [سورة الزُّخرُف: ٧٢] مع قوله ﷺ: «لَنْ يَدْخُلَ أَحَدٌ مِنْكُمْ الجَنَّةَ بِعَمَلِهِ»[١]، تجد الآية تدل على أن الجنان بالأعمال، وتجد الحديث ينفي دخول الجنة بالأعمال، ولا تنافي بينهما؛ لأن توارد النفي والإثبات ليسا على محل واحد، فالنفي بالثمنية، واستحقاق الجنة بمجرد الأعمال رد على القدرية المجوسية التي زعمت أن للأعمال تأثيراً في جزائها البتة. والباء المثبتة التي وردت في القرآن هي باء السببية رد على القدرية الجبرية، الذين يقولون: لا ارتباط بين الأعمال وجزائها البتة، ولا هي أسباب لها، وإنما غايتها أن تكون أمارة.

(١) رواه البخاري (٥٦٧٣) ومسلم (٢٨١٦).

والسنة النبوية هي أن عموم مشيئة الله وقدرته لا تنافي ربط الأسباب بالمسببات وارتباطها بها. وكل طائفة من أهل الباطل تركت نوعاً من الحق وارتكبت من أجله نوعاً من الباطل بل أنواعاً. فهدى الله أهل السنة لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم.

الصنف الثالث: الذين زعموا أن فائدة العبادة رياضة النفوس واستعدادها لفيض العلوم والمعارف عليها وخروج قواها من قوى النفس السبعية والبهيمية.

فلو عطلت العبادة لالتحقت النفوس بنفوس السباع والبهائم. فالعبادة تخرجها عنها إلى مشابهة العقول فتصير قابلة لانتعاش صور المعارف فيها وهذا يقوله طائفتان:

أحدهما: من يقرب إلى الإسلام والشرائع من الفلاسفة القائلين بقدم العالم وعدم الفاعل المختار.

والثانية: من تفلسف من صوفية الإسلام ويقرب إلى الفلاسفة فإنهم يزعمون أن العبادات رياضيات لاستعداد النفوس للمعارف العقلية ومخالفة العوائد. ثم هؤلاء من لا يوجب العبادة إلا لهذا المعنى فإذا حصل لها ذلك بقي متحيراً في حفظ أوراده والاشتغال بالوارد عنها. ومنهم من يوجب القيام بالأوراد وعدم الإخلال بها وهم صنفان أيضاً:

أحدهما: من يقول بوجوبها حفظاً للقانون وضبط للناموس والآخرون يوجبونها حفظاً للوارد وخوفاً من تدرج النفس بمفارقتها إلى حالتها الأولى من البهيمة فهذا نهاية إقدامهم في حكمة العبادة وما شرعت لأجله. ولا تكاد تجد في كتب المتكلمين على طريق السلوك غير طريق من هذه الطرق الثلاثة أو مجموعها (وما أكثر طرقهم ولعل هذه الثلاث رؤوسها).

الصنف الرابع: القائلون بالجمع بين الخلق والأمر والقدر والسبب فعندهم أن

سر العبادة وغايتها مبني على معرفة حقيقة الإلهية ومعنى كونه سبحانه إلهاً وأن العبادة موجب الإلهية وأثرها ومقتضاها وارتباطها كارتباط متعلق الصفات بالصفات وكارتباط المعلوم بالعلم والمقدور بالقدرة والأصوات بالسمع والإحسان بالرحمة والعطاء بالجود فعندهم أن من قام بمعرفتها على النحو الذي فسرناها به لغة وشرعاً مصدراً وموردًا استقام له معرفة حكمة العبادات وغايتها وعلم أنها هي الغاية التي خلقت لها العباد ولها أرسلت الرسل وأنزلت الكتب وخلقت الجنة والنار وقد صرح القرآن بذلك قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [سورة الذاريات: ٥٦] فالعبادة هي التي ما أوجدت الخلائق كلها إلا لأجلها، كما قال تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾﴾ [سورة القيامة: ٣٦] أي هملاً [لا يؤمر بالعبادة ولا ينهى عن ضدها] وإذا تأمل اللبيب الفرق بين هذه الأقوال وبين ما دل عليه صريح الوحي من الله ذي الجلال علم أن الله تعالى إنما خلق الخلق لعبادته الجامعة لكمال محبته مع الخضوع والانقياد لأمره، وكل من قدم قول غير الله على قول الله أو حكم به أو حاكم إليه فليس ممن أحب الله [وعمل بشرعه].

قواعد العبادة

واعلم أن للعبادة أربع قواعد، وهي:

التحقق بما يحبه الله ويرضاه، وقيام ذلك بالقلب، واللسان، والجوارح، فالعبودية اسم جامع لهذه المراتب، فأصحاب العبادة حقاً هم أصحابها.

فقول القلب: هو اعتقاد ما أخبر الله به عن نفسه وأخبر رسول الله ﷺ عن ربه من أسمائه وصفاته وأفعاله وملائكته ولقائه وما أشبه ذلك.

وقول اللسان: الإخبار عنه بذلك والدعاء إليه والذب عنه وتبيين بطلان البدع

المخالفة له والقيام بذكره تعالى وتبليغ أمره [والتحذير بنهيه].

وعمل القلب: كالمحبة له والتوكل عليه والإنابة إليه والخوف منه والرجاء والإخلاص له والصبر على أوامره ونواهيه وإقراره والرضاء به وله وعنه والموالاة فيه والمعاداة فيه والإخبات إليه والطمأنينة ونحو ذلك من أعمال القلوب التي فرضها آكد من فرض أعمال الجوارح.

وأما أعمال الجوارح: فكالصلاة والجهاد ونقل الأقدام إلى الجمع والجماعات ومساعدة العاجز من الخلق ونحو ذلك. هي من قول المقريزي.

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾

في الآية مسائل:

الأولى: هذه الآية دالة على أن اليهودي يسمى مشركاً في عرف الشرع ويدل عليه وجهان:

الأول: أن الآية دالة على أن ما سوى الشرك مغفور فلو كانت اليهودية مغايرة للشرك لوجب أن تكون مغفورة بحكم هذه الآية وبالإجماع هي غير مغفورة فدل على أنها داخلة تحت اسم الشرك.

الثاني: أن اتصال هذه الآية بما قبلها إنما كان لأنها تتضمن تهديد اليهود فلولا أن اليهودية داخلة تحت اسم الشرك وإلا لم يكن الأمر كذلك. فإن قيل قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ﴾ [سورة البقرة: ٦٢] إلى قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ﴾ عطف المشركين على اليهود وذلك يقتضي المغايرة. قلنا: المغايرة حاصلة بسبب المفهوم اللغوي والاتحاد حاصل بسبب المفهوم الشرعي ولابد من المصير لما ذكرناه دفعاً للتناقض.

المسألة الثانية: هذه الآية من أقوى الدلائل على العفو عن أصحاب الكبائر. لأن الله حكم على الشرك بأنه غير مغفور قطعاً وعلى ما سواه بأنه مغفور قطعاً لكن في حق من يشاء. فصار تقدير الآية أنه تعالى يغفر كل ما سوى الشرك لكن في حق من يشاء.

المسألة الثالثة: روي عن ابن عباس رضي الله عنه أنه قال: لما قتل وحشي حمزة رضي الله عنه يوم أحد وكانوا قد وعدوه بالإعتاق إن هو فعل ذلك ثم إنهم ما وفوا بذلك. فعند ذلك ندم هو وأصحابه فكتبوا إلى رسول الله ﷺ بذنبهم وأنه لا يمنعهم عن الدخول في الإسلام إلا قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدۡعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ الآية [سورة الفرقان: ٦٨]، فقالوا: قد ارتكبنا كل ما في الآية، فنزل قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ﴾ [سورة النساء: ٤٨] فقالوا: نخاف أن لا نكون من أهل المشيئة، فنزل: ﴿قُلۡ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِۚ﴾ [سورة الزُّمَر: ٥٣]، فدخلوا في الإسلام، فهذا يدل على أنه تعالى خص جانب الوعد والرحمة بمزيد التأكيد، وذلك يقتضي ترجيح الوعد على الوعيد [فيغفر لمن يشاء]. وفي هذا رد على المعتزلة والقدرية حيث قالوا لا يجوز في الحكمة أن يغفر لصاحب الكبيرة. وعند أهل السنة: الله يفعل ما يشاء لا مكره له ولا حجر عليه. وقد أطال المصنف في هذه المسألة وحققها غاية التحقيق فارجع إليها أيها المستفيد.

مراتب الشرك والمغفرة

واعلم أن للشرك مراتب وللمغفرة مراتب:

فمراتب الشرك ثلاث: الجلي والخفي والأخفى. وكذلك مراتب المغفرة.

فالشرك الجلي بالأعيان: وهو للعوام، وذلك بأن يعبد شيء من دون الله تعالى كالأصنام والكواكب وغيرها فلا يغفر إلا بالتوحيد وهو إظهار العبودية في إثبات الربوبية (والألهية) مصدقاً بالسر والعلانية.

والشرك الخفي بالأوصاف: وهو للخواص، وذلك شوب العبودية بالالتفات إلى غير الربوبية [والإلهية] في العبادة؛ كالدنيا والهدى وما سوى المولى. فلا يغفر إلا بالوحدانية وهي إفراد الواحد [سبحانه بالعبودية].

والشرك الأخفى: وهو للأخص، وذلك رؤية الأغيار والأنانية؛ فلا يغفر إلا بالوحدة، وهي فناء الناسوتية في بقاء اللاهوتية، ليبقى بالهوية دون الأنانية، فإن الله لا يغفر بمراتب المغفرة أن يشرك به بمراتب الشرك، ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء، ومن يشرك بالله بمراتب الشرك فقد افترى إثماً عظيماً، أي جعل بينه وبين الله حجاباً من إثبات وجود الأشياء وأنانيته، وهي أعظم الحجب كما قيل:

وجودك ذنب لا يقاس به ذنب

إقرار عام الذرية من بني آدم بالتوحيد

قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾ الآية [سورة الأعراف: ١٧٢]، وكذا من آدم فالأخذ منه لازم للأخذ منهم لأن الأخذ منهم بعد الأخذ منه ففي الآية الشريفة اكتفاء بالملزوم عن اللازم ﴿مِن ظُهُورِهِمْ﴾ استدل بهذا على أن المراد بالمأخوذين هنا هم ذرية بني آدم أخرجهم الله من أصلابهم نسلاً بعد نسل على نحو ما يتوالد الأبناء من الآباء فلذلك قال: ﴿مِن ظُهُورِهِمْ﴾ ولم يقل من ظهر آدم، لما علم أنهم كلهم بنو آدم. وقد ذهب إلى هذا جماعة من المفسرين، وقالوا: معنى ﴿وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾ دلهم بخلقه على أنه

خالقهم فقامت هذه الدلالة مقام الإشهاد، فتكون هذه الآية من باب التمثيل، وقيل غير ذلك.

والمعنى الراجح الأصح: أن الله لما خلق آدم مسح ظهره بيمينه، فاستخرج منه ذريته وأخذ عليهم الميثاق، وهؤلاء هم عالم الذر، وهذا هو الحق الذي لا ينبغي العدول عنه والمصير إلى غيره، لثبوته مرفوعاً إلى النبي ﷺ وموقوفاً على غير واحد من الصحابة، ولا ملجئ للمصير إلى المجاز، وإذا جاء نهر الله بطل نهر معقل.

والآية الشريفة دلت على أن المشركين والكفار اعترفوا في عالم الأرواح بتوحيد الربوبية وآمنوا به، ثم إذا انتهوا إلى الدنيا نسوا ذلك الميثاق ولم يتذكروه مع تذكير الرسل إياهم ذلك وابتلوا في الإشراك في العبادة وعبدوا غير الله واتخذوا من دونه آلهة شتى فكان هذا ردة منهم عن الإسلام فاستحقوا ما استحقوا به من القتل والأسر والنهب وسبي الذراري في الدنيا والعذاب الأليم والخلود في النار في العقبى لا يخرجون منها أبداً.

الحالات التي فيها يجتمع الإيمان مع الشرك

قال تعالى: ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾ ﴾ [سورة يوسف: ١٠٦] فإن قلت: كيف يكون اتصافهم بالإيمان في حالة تلبسهم بالشرك لأنه يستبعد عن الجمع بين النقيضين في حالة واحدة وهو باطل. قلت: إيضاح ذلك يتوقف على بيان ما ذكره أهل التفاسير المعتبرة وينحصر ذلك في وجوه اثني عشر وينضم إلى ذلك ما ذكرته أنا فتكون الوجوه ثلاثة عشر:

الأول: أن أهل الجاهلية كانوا يقرون بأن الله سبحانه خالقهم ورازقهم ويعتقدون غيره من أصنامهم وطواغيتهم، فهذا الإفراد منهم بأن الله عز وجل خالقهم ورازقهم، وهو يصدق عليه أنه إيمان بالمعنى الأعم، أي تصديق، لا بالمعنى

الأخص، أعني إيمان المؤمنين، فهذا الإيمان الصادر منهم واقع في حال الشرك، فقد آمنوا حال كونهم مشركين، وإلى هذا الوجه ذهب جمهور المفسرين وغيرهم، ولكنهم لم يذكروا ما ذكرناه هاهنا من تقرير كونه إيماناً بالمعنى الأعم، ولا بد من ذلك حتى يستقيم الكلام، ويصدق عليه مسمى الإيمان.

الوجه الثاني: أن المراد بالآية المنافقون، فإنهم يُظهرون الإيمان ويُبطنون الشرك، فما كانوا يؤمنون ظاهراً إلَّا وهم مشركون باطناً. روي هذا عن الحسن البصري.

الوجه الثالث: أنهم أهل الكتاب، يؤمنون بكتابهم ويقلدون آباءهم في الكفر بغيره، ويقولون: المسيح ابن الله، وعزيز ابن الله، فهم يؤمنون بما أنزل على أنبيائهم حال كونهم مشركين.

الوجه الرابع: أن المقصود بذلك ما كان يقع في تلبية العرب من قوله: «**لبيك لا شريك لك إلا شريكاً هو لك**» فقد كانوا في هذه التلبية يؤمنون بالله وهم مشركون. روي نحو ذلك عن ابن عباس[1].

الوجه الخامس: أن المراد بهذه الآية المراؤون من هذه الأمة، لأن الرياء هو الشرك المشار إليه بقوله ﷺ: «**الشِّرْكُ أَخْفَى فِي أُمَّتِي مِنْ دَبِيبِ النَّمْلِ**»[2]، فالمراد من آمنوا بالله حال كونهم مشركين بالرياء.

الوجه السادس: أن المراد بالآية من نسي ربه في الرخاء وذكره عند الشدائد، روي ذلك عن عطاء، وفيه أنه لا يصدق على ذلك أنه آمن بالله حال كونه مشركاً إلا أن يجعل مجرد نسيان الذكر والدعاء عند الرخاء شركاً مجازاً بنسيانه وتركه

(١) أخرج مسلم (١١٨٥) من حديث ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ: كَانَ الْمُشْرِكُونَ يَقُولُونَ: لَبَّيْكَ لَا شَرِيكَ لَكَ، قَالَ: فَيَقُولُ رَسُولُ الله ﷺ: «**وَيْلَكُمْ، قَدْ قَدْ**» فَيَقُولُونَ: إِلَّا شَرِيكًا هُوَ لَكَ، تَمْلِكُهُ وَمَا مَلَكَ، يَقُولُونَ هَذَا وَهُمْ يَطُوفُونَ بِالبَيْتِ.

(٢) رواه أحمد (١٩٦٠٦) وابن أبي شيبة (٢٩٥٤٧) والطبراني في «الأوسط» (٣٤٧٩).

للدعاء وقد عبد إلهاً آخر وهو بعيد. على أنه لا يمكن اجتماع الأمرين لأنه حال الذكر والدعاء غير متصف بالنسيان وترك الذكر وقد يقرّر أن الحال قيد في عاملها إلا أن يعتبر ما كان عليه الشيء فإن ذلك أحد العلامات المصححة التّجوز.

الوجه السابع: أن المراد من أسلم من المشركين فإنه كان مشركاً قبل إيمانه حكى ذلك: الحاكم في «تفسيره»، وتقريره: أنه ما يؤمن أحدهم بالله إلا وقد كان مشركاً قبل إيمانه. والكلام فيه كالكلام في الوجه الذي قبله، والجواب الجواب.

الوجه الثامن: أن المراد بالشرك هنا ما يعرض من الخواطر والأحوال حال الإيمان، قاله الواسطي كما حكاه عنه البقاعي، وفيه: أن هذه الخواطر والأحوال إن كانت مما يصدق عليه الشرك الأكبر أو الأصغر فذاك وإن كانت خارجة عن ذلك فهو فاسد.

الوجه التاسع: أنهم الذين يشبهون الله بخلقه، ذكره في «الكشاف» عن ابن عباس، وتقريره: أنهم آمنوا بالله حال تشبيههم له بما يكون شركاً أو يؤول إلى الشرك.

الوجه العاشر: هو ما يقوله القدرية من إثبات القدرة للعبد. حكاه النسفي في «المدارك»، وتقريره: أنهم آمنوا بالله حال إثباتهم ما هو مختص به لغيره، وهو شرك أو منزلة بمنزلة الشرك.

الوجه الحادي عشر: ما قاله: محيي الدين بن عربي في «تفسيره»، أن أكثر الناس إنما يؤمنون بغير الله ويكفرون بالله دائماً، ففي بعض الأحيان يشركون الله سبحانه مع ذلك الإله الذي يؤمنون به فلا يؤمن أكثرهم بالله إلا حال كونه مشركاً. وفيه: أن ظاهر النظم القرآني أن الإيمان بالله والشرك به تشريك غيره معه، لا تشريكه مع غيره، وبين المعنيين فرق واضح.

الوجه الثاني عشر: ذكره ابن كثير في «تفسيره»، وهو أن ثَمَّ شركاً خفياً لا يشعر

به غالبة الناس ممن يفعله، كما روي عن حذيفة: أنه دخل على مريض يزوره فرأى في عضده سيراً فقطعه أو انتزعه وتلا قوله تعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾﴾ [سورة يوسف: ١٠٦]. وعن ابن عمر مرفوعاً: «مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ اللهِ فَقَدْ أَشْرَكَ» رواه الترمذي وحسنه[١]. وعن ابن موسى قال: خَطَبَنَا رَسُولُ الله ﷺ ذَاتَ يَوْمٍ فَقَالَ: «أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا هَذَا الشِّرْكَ فَإِنَّهُ أَخْفَى مِنْ دَبِيبِ النَّمْلِ» رواه أحمد[٢]. فإذا عرفت ما تضمنته كتب التفسير من الوجوه التي ذكرناها، وعرفت تقريرها على الوجه الذي قررناه، فاعلم أن هذه الأقوال إنما هي اختلاف في سبب النزول، وأما نظم القرآن فهو صالح لحمله على كل ما يصدق عليه مُسمَّى الإيمان مع وجود مُسمَّى الشرك، والاعتبار بما يفيده اللفظ لا بخصوص السبب، كما هو مقرر في مواطنه، فيقال مثلاً في أهل الشرك: أنه ما يؤمن أكثرهم بأن الله هو الخالق الرازق إلا وهو مشرك بالله بما يعتقد من الأصنام. ويقال فيمن كان واقعاً في شرك من الشرك الخفي وهو من المسلمين: أنه ما يؤمن بالله إلا وهو مشرك بذلك الشرك الخفي. ويقال مثلاً في سائر الوجوه بنحو هذا على التقرير الذي قررناه سابقاً، وهذا يصلح أن يكون وجهاً مستقلاً وهو أوجهها وأرجحها فيما أحسب، وأن لم يذكره أحد المفسرين.

اتخاذ الند والمثل

قال الله تعالى: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [سورة البقرة: ٢٢] والمعنى من مات وهو يجعل لله نداً في العبادة يدعوه ويسأله ويستغيث به

(١) رواه أحمد (٦٠٧٢) أبو داود (٣٢٥١) والترمذي (١٥٣٥) وقال: حديث حسن. وصححه ابن حبان (٤٣٥٨) والحاكم (٤٤).

(٢) رواه أحمد (١٩٦٠٦) وابن أبي شيبة (٢٩٥٤٧) والطبراني في «الأوسط» (٣٤٧٩).

دخل النار. وفيه من الوعيد ما لا يقادر قدره.

واتخاذ الند على قسمين:

الأول: أن يجعل لله شريكاً في أنواع العبادة وهو شرك أكبر (مُخْرِج من الملة).

والثاني: ما كان من نوع الشرك الأصغر، كقول الرجل: ما شاء الله وشئت. ولولا الله وأنت. وكيسير الرياء. فقد ثبت أن النبي ﷺ قال له رجل: مَا شَاءَ اللهُ وَشِئْتَ. فَقَالَ: «**أَجَعَلْتَنِي للهِ نِدًّا، بَل مَا شَاءَ اللهُ وَحْدَهُ**»، رواه أحمد والبخاري في «الأدب المفرد» والنسائي وابن ماجة[1]. وفيه بيان أن دعوة غير الله في ما لا يقدر عليه إلا الله شرك جلي كطلب الشفاعة من الأموات فإنها ملك لله وبيده ليس بيد غيره منها شيء وهو الذي يأذن للشفيع أن يشفع فيمن لاقى الله بالإخلاص والتوحيد من أهل الكبائر والله أعلم.

الدعاء نوع من العبادة

الدعاء بطلب وصول الخير إليه ودفع الضر عنه هو من أنواع العبادة، ولا فرق بين أن يكون هذا المدعو من دون الله أو معه حجراً أو شجراً أو ملكاً أو شيطاناً كما كان يفعل ذلك أهل الجاهلية، وبين أن يكون إنساناً من الأحياء أو الأموات كما يفعل الآن كثير من المسلمين المشركين وكل عالم يعلم هذا ويُقِرُّ به، فإن العلة واحدة، وعبادة غير الله وتشريك غيره معه يكون للحيوان، كما يكون للجماد وللحي، كما يكون للميت، فمن زعم أن ثَمّ فرقاً بين من اعتقد في وثن من الأوثان أنه يضر وينفع، وبين من اعتقد في ميت من بني آدم أوحي منهم أنه يضر وينفع، أو يقدر على أمر لا يقدر عليه إلا الله تعالى، أو يقدر عليه معه، فقد غلط غلطاً بيناً

(١) رواه أحمد (١٨٣٩)، والبخاري في «الأدب المفرد» (٧٨٣)، والنسائي في «الكبرى» (١٠٧٥٩)، وابن ماجه (٢١١٧)، وصححه الألباني في «صحيح سنن ابن ماجه».

وأقر على نفسه بجهل كبير. فإن الشرك هو دعاء غير الله في الأشياء التي تختص به، أو اعتقاد القدرة لغيره فيما لا يقدر عليه سواه أو التقرب إلى غيره بشيء مما لا يتقرب به إلا إليه. ومجرد تسمية المشركين لما جعلوه شريكاً بالصنم والوثن والإله ليس زيادة على التسمية بالولي والقبر والمشهد كما يفعله كثير من المسلمين المشركين بل الحكم واحد إذا حصل لمن يعتقد في المولى والقبر ما كان يحصل لمن كان يعتقد في الصنم والوثن إذ ليس الشرك هو مجرد إطلاق بعض الأسماء على بعض المسميات بل الشرك هو أن يفعل لغير الله شيئاً يختص به سبحانه سواء أطلق عليه ما كان تطلقه عليه أهل الجاهلية أو أطلق عليه اسماً آخر فلا اعتبار بالاسم فقط (فإن الأسماء لا تغير الحقائق) ومن لم يعرف هذا فهو جاهل لا يستحق أن يخاطب بما يخاطب به أهل العلم.

باب في رد الإشراك في العلم

قال تعالى: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ﴾ [سورة الأنعام: ٥٩]. والمعنى: عنده خاصة مخازن الغيب، أو المفاتح التي يتوصل بها إلى المخازن، أي لا علم لأحد من خلقه بشيء من الأمور الغيبية التي استأثر الله بعلمها. ويستوي في ذلك الملائكة والأنبياء والرسل والأولياء والجن والشياطين وغيرهم كما يدل على هذا الجملة المستثناة. فإن في هذه الآية بيان لاختصاص المقدورات الغيبية به تعالى من حيث العلم إِثْرَ بيان اختصاص كلها من حيث القدرة.

وفي هذه الآية ما يدفع أباطيل الكهان والمنجمين والرمالين وغيرهم من مُدعي الكشف والإلهام ما ليس من شأنهم، ولا يدخل تحت قدرتهم، ولا يحيط به علمهم. وقد قال ابن مسعود رضي الله عنه: «**أُوتِيَ نَبِيُّكُمْ كُلَّ شَيْءٍ إِلَّا مَفَاتِيحَ الغَيْبِ**»[(١)]، وقال الصادق والمصدوق: «**مَنْ أَتَى كَاهِنًا أَوْ مُنَجِّمًا فَقَدْ كَفَرَ بِمَا أُنْزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ**»[(٢)]، فهذه الآية دلت على أن من ادعى أن عنده علماً يعلم به أمراً غيبياً متى شاء وفي قدرته أن يعلم بالأمور المستقبلة الآتية فهو أكذب الكاذبين فكيف يدعى له الإلهية التي استأثر بها رب العالمين. فمن اعتقد في نبيٍّ أو وليٍّ أو مَلَكٍ أو جنٍّ أو إمامٍ أو ولد لإمامٍ أو شهيدٍ أو منجمٍ أو رمالٍ أو راهبٍ أن له مثل هذا العلم وهو يعلم الغيب بعلمه ذلك، فهو مشرك بالله، وعقيدته هذه من أبطل الباطلات، وأكذب المكذوبات، وهو منكر لهذه الآية وجاحد بها.

(١) رواه أحمد (٤٢٥٣) والطيالسي (٣٨٥) وأبو يعلى (٥١٥٣)، وإسنده حسن.

(٢) رواه أحمد (٩٥٣٦) وأبو داود (٣٩٠٤) والترمذي (١٣٥) وابن ماجه (٦٣٩)، وصححه الحاكم (١٥)، وقال: صحيح على شرطهما، ووافقه الذهبي، وصححه الشيخ الألباني.

الرد على من يقول أن الرسول صلى الله عليه وسلم يعلم الغيب

قال تعالى: ﴿قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي نَفۡعٗا وَلَا ضَرًّا﴾ [سورة الأعراف: ١٨٨] وهذه الجملة متضمنة عدم علمه ﷺ بالساعة أيّان تكون؛ لأنه إذا كان لا يقدر على جلب نفع له أو دفع ضر عنه ﴿إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ﴾ [سورة الأعراف: ١٨٨] سبحانه من النفع له والدفع عنه، فبالأولى أن لا يقدر على علم ما استأثر الله بعلمه.

وفي هذا من إظهار العبودية والإقرار بالعجز عن الأمور التي ليست من شأن العبيد والاعتراف بالضعف عن انتحال ما ليس له ﷺ ما فيه أعظم زاجر وأبلغ واعظ لمن يدعي لنفسه ما ليس من شأنه وينتحل علم الغيب بالنجامة أو الرمل أو الطرق بالحصى أو الزجر. والاستثناء منقطع. وبه قال ابن عطية وغيره، وهو أبلغ في إظهار العجز.

ثم أكد هذا وقرره بقوله: ﴿وَلَوۡ كُنتُ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ﴾ [سورة الأعراف: ١٨٨] أي لو كنت أعلم جنس الغيب لتعرضت لما فيه الخير فجلبته إلى نفسي وتوقيت ما فيه السوء حتى لا يمسني ولكني عبد لا أدري ما عند ربي ولا ما قضاه فيّ وقدره لي فكيف أدري غير ذلك وأتكلف علمه. وقيل المعنى: لو كنت أعلم ما يريد الله عز وجل مني من قبل أن يعرفنيه لفعلته. وقيل: لو كنت أعلم الغيب لأجبت عن كل ما أسأل عنه. وقيل: لو كنت أعلم وقت الموت لاستكثرت من العمل الصالح. وقيل: لأعددت من الخصب للجدب وقيل غير ذلك.

والأولى حمل الآية على العموم فتندرج هذه الأمور وغيرها تحتها [اختياره هذا أشمل لمعنى الآية].

﴿وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُۚ﴾ [سورة الأعراف: ١٨٨] أي لو علمت الغيب ما مسني

السوء ولحذرت عنه [فاجتنبته] ﴿إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ﴾ [سورة الأعراف: ١٨٨] أي ما أنا إلا مبلغ عن الله أحكامه ﴿لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٨﴾﴾ [سورة الأعراف: ١٨٨] أي الذين كتب في الأزل أنهم يؤمنون فإنهم المنتفعون به فلا ينافي كونه بشيراً ونذيراً للناس كافة.

قال في «فتح البيان»: والذي أخبر به ﷺ عن المغيبات وقد جاءت بها الأحاديث الصحيحة فهو من قبيل المعجزات. ومن قال أن رسول الله ﷺ قال ذلك على سبيل التواضع والأدب [مع الله] فقد أبعد النجعة بل الحق أن النبي ﷺ قاله معتقداً بذلك وأن الله هو المستأثر بعلم الغيب، والمعجزات مخصصة من هذا العموم كما قال تعالى: ﴿إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾ [سورة الجن: ٢٧]. انتهى.

فالآية نص في عدم علمه ﷺ بالأمور الغيبية، قال بعض العلماء: إن الأنبياء والأولياء أفضلهم خاتم الرسل، والناس قد رأوا معجزاته العظمى ومنه تعلموا [وعلموا] أسرار [بعض] الأمور وباقتدائه حصلت الكرامة لكل أحد. فلما كان ﷺ كذلك خاطبه الله في هذه الآية وأمره أن يقول للناس ما تقدم ليعلموا حاله في عدم إدراك الغيب فامتثل الأمر وبلغ الناس عدم قدرته على إدراك المغيبات وبين أنه غير قادر على نفع نفسه ولا يملك شيئاً منه ومن ضره فكيف يملكها للآخرين؟ ولو كان علم الغيب في قدرته وتحت طاقته وكان يعلم عاقبة الأمور لنفع نفسه وصانها عن الضر ومس السوء ولم يأت إلا بما ينفعه لا بما يضره.

وقال تعالى: ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [سورة الأحقاف: ٩] أي ما أنا بأول رسول ﴿وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا﴾ [سورة الأحقاف: ٩] فيما يستقبل من الزمان، ﴿وَلَا﴾ أدري ما يفعل ﴿بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ﴾ [سورة الأحقاف: ٩]. ففي الآية نفي العلم عنه ﷺ بالأمور المستقبلة به وبغيره من الناس.

وتدل الآية بفحو الخطاب على اختصاص ذلك العلم به سبحانه وتعالى وهو المراد هنا.

وقال تعالى: ﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ فَلَا يُظۡهِرُ عَلَىٰ غَيۡبِهِۦٓ أَحَدًا ٢٦﴾ [سورة الجن: ٢٦] الفاء لترتيب عدم الإظهار على تفرده سبحانه بعلم الغيب، أي لا يطلع على الغيب الذي يعلمه ﴿إِلَّا مَنِ ٱرۡتَضَىٰ مِن رَّسُولٖ﴾ [سورة الجن: ٢٧] أي من اصطفاه من الرسل أو من ارتضاه منهم لإظهاره على بعض غيبه، ليكون ذلك دالاً على نبوته.

ومن الأدلة على رد الإشراك في العلم ما رواه البخاري عن الربيع بنت معوذ بن عفراء قالت: جَاءَ النَّبِيُّ ﷺ فَدَخَلَ حِينَ بُنِيَ عَلَيَّ فَجَلَسَ عَلَى فِرَاشِي كَمَجْلِسِكَ مِنِّي فَجَعَلَتْ جُوَيْرِيَاتٌ لَنَا يَضْرِبْنَ بِالدُّفِّ وَيَنْدُبْنَ مَنْ قُتِلَ مِنْ آبَائِي يَوْمَ (بَدْرٍ) إِذْ قَالَتْ إِحْدَاهُنَّ: وَفِينَا نَبِيٌّ يَعْلَمُ مَا فِي غَدٍ؟ فَقَالَ: «**دَعِي هَذِهِ وَقُولِي بِالَّذِي كُنْتِ تَقُولِينَ**»[١]، فدل هذا على أن لا ينبغي أن يعتقد في أحد من الأنبياء والأولياء والأئمة والشهداء وغيرهم أنهم يعلمون الغيب.

ولا يحسن من أحد هذه العقيدة في حقه ﷺ الذي هو سيد المرسلين وخاتم النبيين فضلاً عن غيره ولا يحسن مدحه بمثل ذلك. وأما الشعراء الذين يبالغون في مدائح الأنبياء والرسل وأهل الكرامة والشيوخ والملوك ويأتون بإطراء فيهم ويتجاوزون الحدود فيصفونهم بأوصاف لا تليق إلا بالله ويرون أن المبالغة والإغراق يجوز في الشعر فهذا من أبطل الباطلات وأسوأ المقالات لأن النبي ﷺ لم يُجز مثل هذا المدح في شعر الجويريات (ولا غير ذلك من الغلو في مدحه) وقال الرسول ﷺ: «**وَاللهِ لَا أَدْرِي وَاللهِ لَا أَدْرِي وَأَنَا رَسُولُ اللهِ مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ**»

---

(١) رواه البخاري (٥١٤٧).

رواه البخاري[(١)].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**قَالَ اللهُ تَعَالَى: أَعْدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ فَاقْرَءُوا إِنْ شِئْتُمْ** ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ **[سورة السجدة: ١٧]**» متفق عليه[(٢)].

هذا الحديث فيه دليل على نفي العلم بالغيب عن البشر والرسول أيضاً بشر فلا علم له أيضاً بهذا كسائر البشر، وإخباره بما في الجنة من النعيم وأنواعه وما في النار من النقم وأقسامها فأمر آخر أخبره الله تعالى به إنذاراً وتبشيراً لعباده فكان ذلك معجزة له لا علماً بالغيب، وإثبات العلم بما كان وما يكون لأحد من الكرام مذهب الرافضة؛ فإنهم يثبتون هذا لأئمتهم افتراء منهم عليهم، ولو كانوا عالمين بذلك لاستكثروا من الخير، ولم يمسهم السوء الذي أصابهم من أيدي بني أمية وبني العباس، ولكن الأمر الصواب أنهم كانوا كسائر العباد في عدم العلم بالمغيبات. وقد دلت الأدلة القرآنية والنصوص الحديثية على أن الله سبحانه مستأثر بعلم الغيب لا شريك له في ذلك أحد من خلقه ومن ادعى هذا فكأنه ادعى الألوهية ونعوذ بالله منها والآيات في هذا الباب كثيرة طيبة جداً لا يحصرها المقام ولا تخفى على من له بالتلاوة أدنى إلمام. [ومع ذلك فقد حقق المؤلف هذا الموضوع في كتابه هذا في آخر الجزء الأول مطولاً فليراجعه من أراد زيادة الاستفادة].

---

(١) رواه البخاري (٧٠١٨) وأحمد (٢٧٤٥٧).

(٢) رواه البخاري (٣٢٤٤) ومسلم (٢٨٢٤) والترمذي (٣١٩٧) وابن ماجة (٤٣٢٨) وأحمد (٨١٤٣) والدارمي (٢٨٧٠).

أنواع الشفاعة في الدنيا
والمقارنة بينها وبين الشفاعة عند الله

أولها: شفاعة الوجاهة:

اعلم أن الشفاعة عبارة عن السعي في حق أحد بالخير وهو في الدنيا على أنحاء. منها ثبوت السرقة -مثلاً- على ذمة أحد عند السلطان فيشفع له أمير أو وزير أو كبير فيعفوا عنه ولا يحده ويبقى سليماً من العذاب. وهذه الصورة فيها أن السلطان يريد بقلبه الأخذ عليه، وأن من سرق مستحق للجزاء الذي هو معين في قانونه وديوانه، ولكن قَبِلَ السلطان شفاعة ذلك الأمير نظراً إلى شوكته وشأنه، وعفا عن تقصير السارق، لكون الشافع فيه ركناً من أركان سلطنته، وناصحاً لمملكته، فيظن السلطان أن كظم الغيظ في موضع واحد والعفو عن سارق خير من أن يسخط عليه أمير أو كبير تخرب المملكة وتفسد السلطنة بسخطه، ويذهب رونق الدولة باغتصابه.

فمثل هذه الشفاعة يقال لها: شفاعة الوجاهة، ولولا هذه الوجاهة لم تقبل الشفاعة. فمثلها من الشفاعة لا تتمشي في حضرة الواحد القهار، ولا تقبل ولا يقدر أحد أن يشفع مثل هذه الشفاعة عنده سبحانه أبد الآباد. ومن اعتقد أن أحداً من الأنبياء والأولياء والأئمة والشهداء والملائكة والكبراء والكرماء يشفع عند الله مثل هذه الشفاعة فهو مشرك على الحقيقة وجاهل لم يفهم معنى الإلهية وما قدر مالك الملك حق قدره، بل الله هو ملك الملوك وشأنه رفيع. كيف وهو إذا أراد شيئاً أن يقول له: كن فيكون، لا يحتاج في صفة تكوينه إلى أسباب وآلات ومواد، ولو فرض أن الأولين والآخرين من الجن والإنس أجمعين يصيرون كجبريل ومحمد

عليهما السلام لا يزيد رونق في سلطنة هذا المالك، مالك الملك وملك الملوك. وإن صار كلهم أجمعون كالشيطان والدجال، لا ينقص في ملكه ومملكته شيء ولا يذهب رونقه أصلاً؛ فإنه تعالى شأنه أكبر الكبراء وأعظم العظماء وسلطان السلاطين وأحكم الحاكمين، ليس لأحد أن يفسد شيئاً منه أو يصلح أمراً له.

الثانية: شفاعة المحبة:

الصورة الثانية: أن يشفع في السارق محبوب لسلطان ومعشوق له ويمنعه عن عقابه فيقبل السلطان شفاعته حباً للشفيع وكرامة له ويعفو عن ذنب السرقة بهذا العجز وهذه الشفاعة يقال لها شفاعة المحبة. يعني أن السلطان قبل هذه الشفاعة بناء على حب الحبيب وظن أن كظم الغيظ مرة واحدة والعفو عن السارق حفظاً لحبه خير من هم وغم يلحقه من ذهاب المحبوب من عنده فمثل هذه الشفاعة لا تمكن في حضرته تعالى المقدسة. ومن زعم أن مثل هذه الشفاعة تقبل في جناب الله ويقدر أحد على مثلها فيه فهو مشرك بالله وجاهل به سبحانه كما تقدم سواء بسواء.

الثالثة: الشفاعة بالإذن:

الصورة الثالثة: أن السرقة ثبتت على السارق لكن ليست السرقة من شنشنته القديمة [يعني ليست من طبيعته القديمة] وأنه لم يجعل السرقة حرفة لنفسه ولكن وقع هذا الذنب منه بشؤم النفس الأمارة بالسوء فهو عليه نادم ويخاف منه ليلاً ونهاراً ويقبل قانون السلطان في حقه بالرأس والعين ويرى أنه مستحق للعقاب والجزاء. ولا يلتجئ ويلوذ بأحد من الأمراء والوزراء فراراً من جناب السلطان ولا يعول على حماية أحد منهم في مقابلته بل يرى وجه الملك ماذا يحكم بحقه وبماذا يقضي عليه فيرحم عليه السلطان ويلين له فؤاده ولكن لا يتجاوز عنه لقانون سلطنته بلا سبب صحيح ووجه سائغ لئلا يخف قدر هذا القانون في أعين الناس

ويستخفونه. فيدرك أمير أو وزير مرضاته في العفو عن ذلك السارق فيشفع له ويسعى فيه والسلطان يعفو عن ذنبه زيادة في عزة ذاك الأمير في الظاهر باسم الشفاعة وذاك الأمير لم يشفع فيه لكونه من ذوي قرباه أو صديقاً له أو حماية عنده تتعالى. بل إنما شفع بعدما وجد مرضاة الملك الكبير فيه كيف وهو أمير السلطان ليس بحام للسارق؟! فلو شفع فيه حماية لصار سارقاً بنفسه لا شفيعاً في غيره وهذه الشفاعة يقال لها الشفاعة بالإذن: يعني تكون بإذن من مالكها. فحضرة الله سبحانه يكون فيها مثل هذه الشفاعة ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡمَثَلُ ٱلۡأَعۡلَىٰۚ﴾ [سورة النحل: ٦٠] وكل نبي وولي وصالح جاء ذكر شفاعته في القرآن والحديث فالمراد بها هي التي قررناها لا غير. فعلى كل عبد أن يدعو الله وحده في كل آن، ولا يعتمد على حماية أحد غيره ويدعوه لعونه ونصره، وينسى الله القادر العزيز ويستخف بأحكامه المحكمة وشرعه الشريف.

أنواع طبقات البشر

هاهنا فائدة نفيسة لا يجوز أن تهمل وهي أن نوع البشر على أربع طبقات:

الأول: صالح الدارين وفائز الكونين وله يدل قوله تعالى في إبراهيم عليه السلام: ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُ فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗۖ وَإِنَّهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ١٢٢﴾ [سورة النحل: ١٢٢] وهذا أفضل المراتب وأكملها ولا يتصور درجة فوقه في الخير.

الثاني: خاسر الدارين ومردود النشأتين وهو الذي ذكر الله سبحانه في هذه الآية ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖۖ فَإِنۡ أَصَابَهُۥ خَيۡرٌ ٱطۡمَأَنَّ بِهِۦۖ وَإِنۡ أَصَابَتۡهُ فِتۡنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةَۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ ١١﴾ [سورة الحج: ١١].

الثالث: من سعد في الآخرة وخسر في الدنيا، أي بانعدام أسبابها وآلاتها الفانية وإيثار المحن والمشاق في سبيل الله تعالى على اللذات الحسية المتلاشية عن قريب

وهذه المرتبة ليست دون المرتبة الأولى، وإلية الإشارة في قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ ﴿٤٦﴾﴾ [سورة ص: ٤٦] ومن هؤلاء من ترك الدنيا طالباً للآخرة وقدم العلم على الجهل والعمل على العجز والفقر على الغنى والترح على الفرح والإخلاص على الرياء والتسليم والرضاء بقضاء الله وقدره ونحو ذلك.

الرابع: فائز الدنيا وخاسر الآخرة والعاقبة، نعوذ بالله منه، وهم الأكثرون الخارجون عن الحصر والعدد وإليهم الإشارة في قوله تعالى: ﴿فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ﴿٢٠٠﴾﴾ [سورة البقرة: ٢٠٠].

باب في رد الإشراك في العبادات

والمراد بالعبادة هنا أمور علَّمها اللهُ تعالى عبادَه لتعظيمه وإجلاله وتكريمه وجعلها علامة العبودية لهم فمن أشرك غيره فيها فقد خالف التوحيد وجاء بنقيضه. قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَن لَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٢٦﴾﴾ [سورة هود: ٢٥] المعنى نهيتكم عن عبادة غير الله لأني أخاف عليكم من عذاب الله وعقابه الأليم في الآخرة. والذي ذكره بعض أهل العلم في هذا المقام هو أن التنازع بين المسلمين والكافرين إنما شرع من زمن نوح عليه السلام الذي كان آدماً ثانياً للأنام. فمن ذلك الزمان جاء هذا النزاع بين بني الإنسان ومن ذاك العصر يقول العباد والمقبولون عند الله أنه لا يجوز تعظيم أحد من دون الله كتعظيم الله وأن كل ما يعمل له سبحانه تعظيماً وإجلالاً وتكريماً لا يجوز أن يعمل لغيره كائناً من كان لأن الإتيان بمثله لغير الله تعالى هو الذي يقال له الإشراك في العبادة وقد تقرر أن العبادة لا تجوز إلا لله وأنه هو المستحق لها. فكل ما يسمى في الشرع عبادة ويصدق عليه مسماها فإن الله يستحقه ولا استحقاق لغيره فيها وإن كان مثقال ذرة في السماوات والأرض ومن أشرك فيها أحداً من دون الله فقد جاء بالشرك وكتب اسمه في ديوان الكفر. ومَنْ هذا الذي يستحق العبادة غير الله وهو مخلوق له سبحانه؟ وأنّى للمخلوق أن يعبد من دون الخالق. هذا شأن الصانع القدير الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد ﴿قُلِ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩١﴾﴾ [سورة الأنعام: ٩١] و﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٢﴾﴾ [سورة الحِجر: ٧٢].

بيان أصل الدين

وأصل الدين أن يمتثل أمر الله ولا يمتثل أمر أحد في مقابلة حكمه ولكن أكثر الناس لا يسلكون هذا المسلك إنما يسلكون رسوم كبرائهم ويقدمونها على حكم الله سبحانه. فمن عامل مع مخلوق هذه المعاملة فالشرك يثبت عليه وطريق وصول حكم الرب إلى العباد هو بعثة الرسول ﷺ إليهم وإخباره إياهم فمن فعل هذا بإمام أو مجتهد أو فقيه أو بمن يسمى غوث أو قطب أو أبدال أو أوتاد أو موالي أو شيخ أو فقير أو كامل أو حاج أو زائر أو أب أو جد أو سلطان أو وزير أو أستاذ أو قسيس أو برهمن أو كاهن أو نجومي أو ساحر وقدم رسوم هؤلاء ومراسيمهم وبدعهم ومحدثاتهم على إرشادات الرسول ﷺ وملفوظاته المدونة في دواوين السنة المطهرة أو على آية من الكتاب العزيز واستند في مقابلتها بمرشد له أو شيخ أو أستاذ أو حكيم فلسفي أو متكلم نظّار أو قياس فاسد أو رأي كاسد أو تقليد لمجتهد أو ظن أن الشرف نفسه هو حكم الرسول والنبي فقط وليس من جهة الله تعالى بل هو يشرع من تلقاء نفسه ما يريد ويقول ما يشاء فيلزم ذلك أمته. فهذه الأمور والاعتقاد بها مثبتة للشرك على قائلها وصاحبها. بل الحكم على الحقيقة والشارع في نفس الأمر هو الله سبحانه وحده لا شريك له. كما قال تعالى: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ [سورة الأنعام: ٥٧] وما شأن الرسول أي رسول كان وفي أي عصر كان إلى خاتم الرسل إلا إبلاغ حكم الله سبحانه إلى عباده فقط ودعوتهم إليه باللسان والسنان واستعمال الأركان. فمن كان قوله من هؤلاء المشار إليهم موافقاً لخبر الرسول ووحيه سبحانه فهو الحقيق بالقبول ومن خالف قوله تعالى وحديث رسوله رأس شعرة فهو مردود عليه ومضروب به وجهه وإن علا في الرتبة والمكانة إلى غاية، فإن الحق أكبر من كل كبير.

معنى الإخلاص والحنيفية

قال تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ...﴾ [سورة البيِّنة: ٥] قال الشهاب: الإخلاص عدم الشرك وأنه ليس بمعنى الإخلاص المتعارف. ﴿حُنَفَآءَ﴾ أي مائلين عن الأديان كلها إلى دين التوحيد وهو ملة الإسلام.

وقال ابن القيم: الحنيف المقبل على الله المعرض عن كل ما سواه.

قال في «فتح البيان»: الحنيف المطلق هو الذي يكون متبرئاً عن أصول الملل الخمسة اليهود والنصارى والصابئين والمجوس والمشركين وعن فروعها من جميع النحل إلى الاعتقادات الحقة وعن توابعها من الخطأ والنسيان إلى العمل الصالح وهو مقام التقى وعن المكروهات إلى المستحبات وهو المقام الأول من الورع وعن الفضول شفقة على خلق الله وهو ما لا يعني إلى ما يعني وهو المقام الثاني من الورع عما يجري إلى الفضول وهو مقام الزهد فالآية جامعة لمقامي الإخلاص الناظر أحدهما إلى الحق والثاني إلى الخلق انتهى.

﴿وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ ٥﴾ [سورة البيِّنة: ٥] أي دين الملة المستقيمة والشريعة المتبوعة.

الشرك على نوعين

عن ثوبان رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يَلحَقَ قَبَائِلُ مِنْ أُمَّتِي بِالْمُشْرِكِينَ وَحَتَّى تَعْبُدَ قَبَائِلُ مِنْ أُمَّتِي الأَوْثَانَ**»[1].

قال بعض أهل العلم: يعني أن الشرك على نوعين:

أحدهما: أن ينحت صورة فيعبدها، أو تنحت له، وهذا يقال له في اللسان

(١) رواه أحمد (٢٢٣٩٥) وأبو داود (٤٢٥٢) والترمذي (٢٢١٩) وابن ماجه (٣٩٥٢)، وأصل الحديث رواه مسلم (٢٨٨٩) من غير أن يذكر هذا اللفظ.

العربي: الصنم.

والثاني: أن يعبد مكاناً أو شجراً أو حجراً أو خشبة أو قرطاساً ينسب إلى اسم أحد من الكبراء والعظماء وهذا يقال له في لغة العرب: الوثن، ويدخل فيه القبر واللحد ومكان الأربعين والقضبان والتعزية والإعلام، وما يقال له بالهندية: شده ومهدى الإمام قاسم والشيخ الجبيلي ومنصة الإمام ومجلس الأستاذ والشيخ.

قال في «فتح المجيد»: الصنم: ما كان منحوتاً على صورة، والوثن: ما كان موضوعاً على غير ذلك، ذكره الطبري عن مجاهد. قلت: وقد يسمى الصنم وثناً كما قال الخليل عليه السلام: ﴿إِنَّمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡثَٰنٗا وَتَخۡلُقُونَ إِفۡكًاۚ﴾ الآية [سورة العنكبوت: ١٧] ويقال: إن الوثن أعم، وهو قوي، فالأصنام أوثان كما أن القبور أوثان. لذا قيل: إن الوثن أعم من الصنم فكل صنم وثن وليس كل وثن صنم.

وأهل الشرك يعظمون هذه الأشياء وينذرون هناك نذوراً ويطلبون المرادات بالسفر إليها، وكذلك الطاق المنسوب إلى اسم الشهيد أو السيد والراية والمدفع الذي ينذرون عليه التيس ويحلفون به، ومثلها الأمكنة التي عرفت باسم الأمراض والأسقام كمكان الجدري ومكان آلهة الهنود التي يقال لها بالهندية: (مساني أو بهواني أو كالي أو براهي)، فهذه كلها يصدق عليها مسمى الوثن. فإنهم يعتقدون بها ويؤمنون بها ويعظمونها بخلاف المشركين الآخرين كمشركي العرب والهنود فإن أكثرهم عابدوا الصنم يعني يعظمون الصور، وكل طائفة من هاتين الطائفتين مشركة بالله العلي العظيم، عَدُوٌّ لرسوله الكريم.

ملعون من ذبح لغير الله

وعن ابن الطفيل قال: «**سُئِلَ عَلِيٌّ رَضِيَ الله عَنْهُ: هَل خَصَّكُمْ رَسُولُ الله**

بِشَيْءٍ؟» أي أمر من الأمور ظاهر أو باطن فَقَالَ: «**مَا خَصَّنَا بِشَيْءٍ لَمْ يَعُمَّ بِهِ النَّاسَ إِلَّا مَا فِي قِرَابِ سَيْفِي هَذَا**» القراب بالكسر وعاء يكون فيه السيف «**فَأَخْرَجَ صَحِيفَةً مَكْتُوبٌ فِيهَا لَعَنَ اللهُ مَنْ ذَبَحَ لِغَيْرِ اللهِ**» الحديث رواه مسلم[1]. قال بعض أهل العلم: هذا يدل على أن من ذبح حيواناً منسوباً إلى أحد من دون الله فهو ملعون ومطرود من رحمة الله الواسعة التي شملت كل شيء وعمت كل حي وميت. وكان علي [رضي الله عنه] كتب أحاديث عديدة جعلها في قراب سيفه فمنها هذا الحديث، [وهي محصورة العدد]، وإنما فعل هذا اهتماماً بشأن هذه المسألة وغيرها كأنها مما لا ينبغي أن ينسى في وقت من الأوقات. فهذا الحديث دليل على أن ذبح الحيوان وإزهاق روحه على اسم أحد من الأمور التي خصها الله سبحانه وتعالى لتعظيمه، فلا يجوز أن يذبح حيوان على اسم أحد كائناً من كان [وفي أي مكان كان]، وفي أي مكانة ومنزلة من الصلاح والفلاح كان، إلا على اسم الله الذي خلق ذلك الحيوان وهذا الإنسان. ومن خالف هذا أو ذبحه على اسم غير الله أو لغيره، فقد أشرك بالله، وصار ملعوناً على لسان رسول الله ﷺ.

---

(١) رواه مسلم (١٩٧٨)، وأحمد (٨٥٥).

باب في رد الإشراك في العادات من السنة المطهرة

وهذا الباب واسع جداً وفيه فصول:

فصل في بيان الإشراك في الكواكب والنجوم

عن زيد بن خالد الجهني رضي الله عنه قال: «صَلَّى بِنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ صَلَاةَ الصُّبْحِ بِالْحُدَيْبِيَةِ عَلَى إِثْرِ سَمَاءٍ مِنَ اللَّيْلِ» -أي عقب مطر- فَلَمَّا انْصَرَفَ أَقْبَلَ عَلَى النَّاسِ فَقَالَ: «هَل تَدْرُونَ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ؟» قَالُوا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: «أَصْبَحَ مِنْ عِبَادِي مُؤْمِنٌ بِي وَكَافِرٌ فَأَمَّا مَنْ قَالَ: مُطِرْنَا بِفَضْلِ اللهِ وَرَحْمَتِهِ فَذَلِكَ مُؤْمِنٌ بِي وَكَافِرٌ بِالكَوْكَبِ وَأَمَّا مَنْ قَالَ: مُطِرْنَا بِنَوْءِ كَذَا وَكَذَا فَذَلِكَ كَافِرٌ بِي» متفق عليه[1].

النوء: واحد الأنواء وهي منازل القمر. قال أبو السعادات: هي ثمان وعشرون منزلة ينزل كل ليلة منها منزلة، ومنه قوله تعالى: ﴿وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ﴾ [سورة يس: ٣٩] وكانت العرب تزعم أن سقوط المنزلة وطلوع رقبتها يكون مطر، وينسبونه إليها، ويقولون: مطرنا بنوء كذا وكذا.

وروى أحمد والترمذي وحسنه وغيرهما[2] عن علي رضي الله عنه في قوله تعالى: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [سورة الواقعة: ٨٢] قال: قال رسول الله ﷺ: «﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ﴾ شُكْرُكُمْ ﴿أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴿٧٨﴾﴾ تَقُولُونَ مُطِرْنَا بِنَوْءِ كَذَا وَكَذَا، وَبِنَجْمِ كَذَا وَكَذَا». وهذا أولى ما فسرت به الآية، وروي ذلك عن ابن

---

(١) رواه البخاري (٨٤٦) ومسلم (٧١) وأبو داود (٣٩٠٦) والنسائي (١٥٢٥) وأحمد (١٧٠٦١).

(٢) رواه أحمد (٨٤٩) والترمذي (٣٢٩٥) والبزار (٥٩٣).

عباس وقتادة والضحاك وعطاء والخراساني وغيرهم، وهو قول جمهور المفسرين.

وفي حديث أبي مالك الأشعري أن رسول الله ﷺ قال: «**أَرْبَعٌ مِنْ أُمَّتِي مِنْ أَمْرِ الجَاهِلِيَّةِ -وذكر منها- الاسْتِسْقَاءُ بِالنُّجُومِ**» رواه مسلم[1].

والمراد بالاستسقاء هنا نسبة المطر إلى النوء وهو سقوط النجم. قال بعض أهل العلم: فإذا قال قائلهم: مطرنا بنجم كذا وكذا أو بنوء كذا وكذا فلا يخلو، إما أن يعتقد أن له تأثيراً في نزول المطر فهذا شرك كفر وهو الذي يعتقده أهل الجاهلية كاعتقادهم أن دعاء الميت والغائب يجلب لهم نفعاً ويدفع عنهم ضراً، فهذا هو الشرك الذي بعث الله رسوله ﷺ بالنهي عنه وقتال من فعله.

وإما أن يقول: مطرنا بنوء كذا مثلاً مع اعتقاد أن المؤثر هو الله وحده لكنه أجرى العادة بوجود المطر عند سقوط ذلك النجم. فالصحيح أنه يحرم نسبة ذلك إلى النجم ولو على طريق المجاز. وذلك أن القائل بذلك نسب إلى ما هو فعل الله الذي لا يقدر عليه غيره إلى خلق مسخر لا ينفع ولا يضر ولا قدرة له على شيء فيكون ذلك شركاً أصغر وأصغر الشرك أكبر من جملة الكبائر فضلاً عن أكبره. فمن قال بتأثير كوكب وأضاف إليه شيئاً من الأحوال الجارية في العالم فقد أشرك بالله وآمن بالكواكب وصار من المشركين وخرج عن جماعة الموحدين.

قال في «فتح المجيد» في شرح هذا الحديث: إذا اعتقد أن للنوء تأثيراً في إنزال المطر فهذا كافر لأنه أشرك في الربوبية والمشرك كافر. وإن لم يعتقد ذلك فهو من الشرك الأصغر لكونه نسب نعمة الله إلى غيره سبحانه ولأن الله لم يجعل النوء سبباً لإنزال المطر فيه وإنما هو فضل من الله ورحمته يحبسه إذا شاء وينزله إذا شاء، قال: ودل الحديث على أنه لا يجوز لأحد أن يضيف أفعال الله إلى غيره ولو على سبيل المجاز، وهذه حال أهل التوحيد.

---

(١) رواه مسلم (٩٣٤) وأحمد (٢٢٩٠٣).

حكم اقتباس علم النجوم

عن ابن عباس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَنِ اقْتَبَسَ عِلْمًا مِنْ عُلُومِ النُّجُومِ اقْتَبَسَ شُعْبَةً مِنَ السِّحْرِ زَادَ مَا زَادَ**» رواه أحمد وأبو داود وابن ماجة[1]. وذكر بعض العلماء أن الله ذكر النجوم في كتابه وبين أنها للزينة والرجم والاهتداء. ولم يذكر أنها متصرفة في العالم وأن أمور العالم تجري على حساب تأثيراتها ولم يبين أن الخير والشر منها. فمن تعلم علم النجوم وجعل يلقي إلى الناس ما علمه في زعمه من الغيوب، فقد صار كالكاهن وساواه في وحدة الطريق، والكاهن يحب الجن كالساحر، ولا يحصل المحبة بهم إلا بالاعتقاد فيهم، ودعائهم عند الشدة، ونذر الطعام لهم، وهذا كله شرك بالله وكفر به.

فصل في الإشراك في العرافة والكهانة

عن حفصة قالت: قال رسول الله ﷺ: «**مَنْ أَتَى عَرَّافاً**» وهو الذي يتعاطى معرفة مكان المسروق ومكان الضالة ونحوهما «**فَسَأَلَهُ عَنْ شَيْءٍ لَمْ تُقْبَل لَهُ صَلَاةٌ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً**» رواه مسلم[2].

والمراد السؤال على وجه التصديق بخلاف من سأله على وجه الاستهزاء والتكذيب. قال بعض العلماء في معنى هذا الحديث: إن من يذهب إلى من يدعي إظهار الأمور الغيبية وتعريفها للناس ويسأله عن شيء منها فقد بطلت صلاته إلى أربعين ليلة لأنه فعل فعل الشرك. والشرك محبط الأعمال الصالحة ويضيع أجره وثوابه ويدخل في مفهوم هذا الحديث كل من يصدق عليه مسمى هذا التعريف من أصحاب النجوم والرمل والجفر والفال ومخرج الأسماء من الكتب المعدة

---

(١) رواه أحمد (٢٠٠٠)، وأبو داود (٣٩٠٥)، وابن ماجة (٣٧٢٦)، وحسنه الشيخ الألباني.

(٢) رواه مسلم (٢٢٣٠)، وأحمد (١٦٦٣٨).

لذلك الضلال، وأهل الكشف المخبرين بالأمور الغيبية.

قال في «فتح المجيد»: ظاهر الحديث أن الوعيد مرتب على مجرد مجيئه إليه وسؤاله عنه سواء صدقة أو شك في خبره. وإذا كانت هذه حالة السائل فليتق المسؤول.

قال النووي وغيره: معناه لا ثواب له فيها وإن كانت مجزأة بسقوط الفرض عنه ولا بد من هذا التأويل في هذا الحديث فإن العلماء متفقون على أنه لا يلزم من أتى العراف إعادة صلاة أربعين ليلة. أ.هـ.

وعن عائشة قالت: «**سَأَلَ أُنَاسٌ رَسُولَ اللهِ ﷺ عَنِ الكُهَّانِ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ: بِأَنَّهُمْ لَيْسُوا بِشَيْءٍ. قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ فَإِنَّهُمْ يُحَدِّثُونَ أَحْيَانًا بِالشَّيْءِ يَكُونُ حَقًّا فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: تِلْكَ الكَلِمَةُ مِنَ الحَقِّ يَخْطَفُهَا الجِنِّيُّ فَيَقُرُّهَا فِي أُذُنِ وَلِيِّهِ قَرَّ الدَّجَاجَةِ فَيَخْلِطُونَ فِيهَا أَكْثَرَ مِنْ مِائَةِ كِذْبَةٍ**» متفق عليه[١].

قال أهل اللغة: القر ترديد الكلام في أذن المخاطب حتى يفهمه وقر الدجاجة صوتها إذا قطعته.

وفي الحديث أن الكهنة من أولياء الشيطان وأنهم يزيدون على ما يسمعون منه.

وعن قطن بن قبيصة عن أبيه أن النبي ﷺ قال: «**العِيَافَةُ**» هو زجر الطير والتفاؤل بأسمائها وأصواتها وممارها «**وَالطَّرْقُ**» هو الضرب بالحصى الذي يفعله النساء وقيل: هو الخط في الرمل «**وَالطِّيَرَةُ مِنَ الجِبْتِ**» وهو السحر والكهانة وقيل: كل ما عبد من دون الله والمعنى أنها ناشئة من الشرك. رواه أبو داود[٢].

وفي «فتح المجيد»: الطيرة بكسر الطاء وفتح الياء اسم مصدر من تطير طيرة كما يقال: تخير خيرة ولم يجيء في المصادر على هذه الزنة غيرهما. وأصله التطير

---

(١) رواه البخاري (٥٧٦٢) ومسلم (٢٢٢٨) وأحمد (٢٤٥٧٠).

(٢) رواه أبو داود (٣٩٠٧) وأحمد (١٥٩١٥)، وصححه ابن حبان (٦١٣١)، وضعفه الألباني.

بالسوانح والبوارح من الطير والظباء وغيرها، وكان ذلك يصدهم عن مقاصدهم فنفاه الشرع وأبطله، وأخبر أنه لا تأثير له في جلب نفع أو دفع ضر.

ولما كانت الطيرة من الشرك المنافي لكمال التوحيد الواجب لكونها من إلقاء الشيطان وتخويفه ووسوسته يتعلق القلب بها خوفاً وطمعاً ومنافاة للتوكل على الله الذي لا ينفع ولا يضر غيره واعتقاد النفع والضر في طائر ونحوه مما لا علم عنده ولا قصد وإن كان من الشرك الأصغر فهو من أقبح الشرك. انتهى بزيادات من المصنف.

حكم الطيرة والعدوى والفال

عن عبدالله بن مسعود عن رسول الله ﷺ قال: «**الطِّيَرَةُ شِرْكٌ قَالَهُ ثَلَاثًا، وَمَا مِنَّا إِلَّا؛ وَلَكِنَّ اللهَ يُذْهِبُهُ بِالتَّوَكُّلِ**» رواه أبو داود والترمذي[1] وصححه، وقال: سمعت محمد بن إسماعيل يعني البخاري يقول: كان سليمان بن حرب يقول في هذا الحديث: (وما منا ... إلخ) هذا من قول ابن مسعود.

وهذا صريح في تحريم الطيرة وأنها من الشرك لما فيها من تعلق القلب على غير الله. ومن قال إنها تكره فالكراهة في اصطلاح السلف: بمعنى الحرام قال في شرح السنن: إنما جعل الطيرة من الشرك لأنهم كانوا يعتقدون أن الطيرة تجلب لهم نفعاً أو تدفع عنهم ضراً إذا عملوا بموجبها، فكأنهم أشركوا مع الله تعالى.

قال ابن القيم: الصواب أن الطيرة نوع من الشرك.

قلت: إطلاق الشرك عليها من النبي ﷺ يُغني عن قول غيره بشركه، ويرد على من لا يقول بذلك.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «**لَا عَدْوَى وَلَا طِيَرَةَ وَلَا**

(١) رواه أبو داود (٣٩١٠) والترمذي (١٦١٤) وابن ماجة (٣٥٢٨) وأحمد (٣٦٧٨).

هَامَةَ وَلَا صَفَرَ» متفق عليه[١]. وعن سعد بن مالك أن رسول الله ﷺ قال: «**لَا هَامَةَ، وَلَا عَدْوَى، وَلَا طِيَرَةَ**»[٢].

قال ابن القيم: يحتمل أن يكون نفياً أو نهياً، أي لا تطيروا. ولكن قوله ﷺ في الحديث: «**لَا عَدْوَى وَلَا صَفَرَ وَلَا هَامَةَ**» يدل على أن المراد النفي وإبطال هذه الأمور التي كانت الجاهلية تتعاطاها. والنفي في هذا أبلغ من النهي لأن النفي يدل على بطلان ذلك وعدم تأثيره والنهي إنما يدل على المنع منه.

وقد روى حديث «**لَا عَدْوَى**» جماعة من الصحابة: أنس بن مالك وجابر بن عبدالله والسائب بن يزيد وابن عمر وغيرهم وفي بعض روايات هذا الحديث: «**وَفِرَّ مِنَ الْمَجْذُومِ كَمَا تَفِرُّ مِنَ الأَسَدِ**»[٣].

وقد اختلف العلماء في ذلك وأحسن ما قيل فيه قول البيهقي وتبعه ابن الصلاح وابن القيم وابن رجب وابن مفلح وغيرهم أن قوله: «**لَا عَدوى**» على الوجه الذي يعتقده أهل الجاهلية من إضافة الفعل إلى غير الله تعالى وأن هذه الأمور تعدي بطبعها. وإلا فقد يجعل الله بمشيئته مخالطة الصحيح من به شيء من الأمراض سبباً لحدوث ذلك، ولهذا قال: «**فِرَّ مِنَ الْمَجْذُومِ كَمَا تَفِرُّ مِنَ الأَسَدِ**»، وقال: «**لَا يُورِدَنَّ مُمْرِضٌ عَلَى مُصِحٍّ**»[٤]، وقال في الطاعون: «**مَنْ سَمِعَ بِهِ فِي أَرْضٍ فَلَا يُقْدِمَنَّ عَلَيْهِ**»[٥]، وكل ذلك بتقدير الله تعالى.

ولذا لما قال رسول الله ﷺ: «**لَا عَدْوَى**» فَقَالَ أَعْرَابِيٌّ: يَا رَسُولَ الله فَمَا بَالُ الإِبِلِ تَكُونُ فِي الرَّمْلِ لَكَأَنَّهَا الظِّبَاءُ فَخَالَطَهَا البَعِيرُ الجَرِبُ فَيُجْرِبُ الإِبِلَ كُلَّهَا؟

---

(١) رواه البخاري (٥٧٠٧) ومسلم (٢٢٢٠).

(٢) رواه أحمد (١٥٠٢)، وأبو داود (٣٩٢١)، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح سنن أبي داود».

(٣) جزء من حديث أبي هريرة رضي الله عنه السابق، وهذا الزيادة رواها البخاري (٥٧٠٧).

(٤) رواه البخاري (٥٧٧٤) ومسلم (٢٢٢١) وأبو داود (٣٩١١) وأحمد (٩٢٦٣).

(٥) رواه البخاري (٣٤٧٣) ومسلم (٢٢١٨).

فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «فَمَنْ أَجْرَبَ الأَوَّلَ»[١].

قال ابن القيم: أخبر ﷺ أن الفأل من الطيرة وهو خيرها. فأبطل الطيرة وأخبر أن الفأل منها ولكنه خير منها ففصل بين الفأل والطيرة لما بينهما من الامتياز والتضاد ونفع أحدهما ومضرة الآخر.

ونظير هذا منعه من الرقى بالشرك وإذنه في الرقية إن لم يكن فيها شرك ولما فيها من المنفعة الخالية من المفسدة فإذا رأى أحدكم ما يكره فليقل: «**اللهُمَّ لَا يَأْتِي بِالحَسَنَاتِ إِلَّا أَنْتَ وَلَا يَدْفَعُ السَّيِّئَاتِ إِلَّا أَنْتَ وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِكَ**»[٢] أي لا تأتي الطيرة بالحسنات ولا تدفع المكروهات بل أنت وحدك لا شريك لك الذي يأتي بها ويدفعها.

والحسنات هنا النعم والسيئات المصائب ففيه نفي تعلق القلب بغير الله في جلب نفع أو دفع ضر وهذا هو الدعاء المناسب لمن وقع في قلبه شيء من الطيرة والتصريح بأنها لا تجلب نفعاً ولا تدفع ضراً ويعد من اعتقدها سفيهاً مشركاً. وفي قوله: «**لَا حَوْلَ...** » إلخ استعانة بالله تعالى على فعل التوكل وعدم الالتفات إلى الطيرة التي تكون سبباً لوقوع مكروه عقوبة لفاعليها. وذلك الدعاء إنما يصدر عن حقيقة التوكل الذي هو أقوى الأسباب في جلب الخيرات ودفع المكروهات و«**الحَوْل**» التحول من حال إلى حال و«**القُوَّةُ**» على ذلك بالله وحده لا شريك له ففيه التبري منها ومن المشيئة بدون حول الله وقوته ومشيئته وهذا هو التوحيد في الربوبية وهو الدليل على توحيد الألوهية الذي هو إفراد الله بجميع أنواع العبادة وهو توحيد القصد والإرادة.

---

(١) رواه الترمذي (٢١٤٣)، وأحمد (٤١٩٨)، وصححه الألباني في «صحيح سنن الترمذي».

(٢) رواه أبو داود (٣٩١٩) وابن أبي شيبة (٢٦٣٩٢) والبيهقي (١٦٥٢١) والخرائطي في «مساوئ الأخلاق» (٧٥٢)، وضعفه الشيخ الألباني.

تعريف الطيرة

قول الرسول ﷺ: «**إِنَّمَا الطِّيَرَةُ مَا أَمْضَاكَ أَوْ رَدَّكَ**» رواه أحمد[(١)].

قال في «فتح المجيد»: هذا حد الطيرة المنهي عنها: أنها ما يحمل الإنسان على المضي فيما أراده ويمنعه من المضي فيه كذلك. وأما الفأل الذي كان يحبه الرسول ﷺ فيه نوع بشارة فيسر به العبد ولا يعتمد عليه بخلاف ما يمضيه أو يرده فإن للقلب عليه نوع اعتماد فافهم الفرق والله أعلم. أ.هـ.

حكم الشؤم

قال النووي: اختلف العلماء في حديث: «**الشُّؤْمُ فِي ثَلَاثٍ**»[(٢)]، فقال مالك: هو على ظاهره وأن الدار قد يجعل الله تعالى سكناها سبباً للضرر أو الهلاك، وكذا اتخاذ المرأة المعينة، والفرس، والخادم قد يحصل الهلاك عنده بقضاء الله وقدره.

وقال الخطابي: قال كثيرون: هو في معنى الاستثناء من الطيرة. أي الطيرة منهي عنها إلا أن يكون له امرأة يكره صحبتها أو فرس أو خادم فليفارق الجميع بالبيع ونحوه وبطلاق المرأة. وقال آخرون: شؤم الدار: ضيقها وسوء جيرانها وأذاهم، وشؤم المرأة: عدم ولادتها وسلاطة لسانها وتعرضها للريب، وشؤم الفرس: أن لا يغزى عليها أي في سبيل الله. وشؤم الخادم: سوء خلقه وقلة تعهده لما فوض إليه.

قال عياض: قال بعض العلماء لهذه الفصول السابقة في الأحاديث ثلاثة أقسام:

أحدها: ما لم يقع الضرر به ولا اطردت له عادة خاصة ولا عامة فهذا لا يلتفت إليه وأنكر الشرع الالتفات إليه وهو الطيرة.

---

(١) رواه أحمد (١٨٢٤)، وضعف إسناده محققه شعيب الأرنؤوط.

(٢) رواه البخاري (٢٨٥٨) ومسلم (٢٢٢٥) وأبو داود (٣٩٢٢) والترمذي (٢٨٢٤) والنسائي (٣٥٦٨) وابن ماجة (١٩٩٥) وأحمد (٤٥٤٤).

والثاني: ما يقع عنده الضرر عموماً لا يخصه ونادراً لا يتكرر كالوباء فلا يقدم عليه ولا يخرج منه.

والثالث: يخص ولا يعم كالدار والفرس والمرأة فهذا يباح الفرار منه انتهى.

وقال ابن العربي: لم يرد مالك إضافة الشؤم إلى الدار وإنما هو عبارة عن جري العادة فيها فأشار إلى أنه ينبغي للمرء الخروج عنها صيانة لاعتقاده عن التعلق بالباطل [وقول مالك هو الأولى؛ لتحذير الرسول ﷺ من تلك الثلاث، فإن الدار والمرأة والفرس: إذا كان أحدهما مشهور بالشؤم أو هو لاقى منها شؤماً فالأولى الابتعاد عن ما يكون سبباً لهلاكه أو تعلق قلبه بغير الله].

وقال ابن العربي: وصف الدار بأنها ذميمة يدل على جواز ذكر تقبيح ما وقع فيها من غير أن يعتقد أن ذلك منها ولا يمتنع ذم محل المكروه وإن كان ليس منه شرعاً.

معنى الصفر والغول والهامة

وأما صفر: فهو بفتح الفاء، وروى أبو عبيدة في «غريب الحديث» عن رواية أنه قال: هي حبة تكون في البطن تصيب الماشية والناس، وهي أعدى من الجرب عند العرب. وقال الشوكاني: هي حبة في البطن تصيب الإنسان إذا جاع فتؤذيه فكانت العرب تزعم أنها تعدي وعلى هذا فالمراد بنفيه ما كانوا يعتقدونه من العدوى. وقال بهذا سفيان بن عيينة والإمام أحمد والبخاري وابن جرير. وقال آخرون المراد به تأخير المحرم إلى شهر صفر وهو النسيء، فالنفي لما كان أهل الجاهلية يفعلونه من النسيء، فكانوا يحلون المحرم ويحرمون صفر مكانه، ويقولون: إنه شهر مشئوم. فأبطل النبي ﷺ ذلك.

وأما الغول الوارد في الحديث عن جابر قال سمعت رسول الله ﷺ: «لَا

عَدْوَى وَلَا صَفَرَ وَلَا غُولَ» رواه مسلم[1]. فهو واحد الغيلان وهي جنس من الجن والشياطين، كانت العرب تزعم أن الغول في الفلاة يتراءى للناس فيتغول تغولاً أي يتلون تلوناً في صور شتى، ويغولهم: أي يضلهم عن الطريق فيهلكهم، فنفاه رسول الله ﷺ وأبطله.

قال في «فتح المجيد»: يقال: المنفي ليس وجود الغول بل ما تزعمه العرب من تصرفه في نفسه أو يكون المعنى بقوله ولا غول أنها لا تستطيع أن تضل أحداً مع ذكر الله والتوكل عليه. ومنه الحديث: «**إِذَا تَغَوَّلَتْ الغِيلَانُ فَبَادِرُوا بِالأَذَانِ**»[2] أي ادفعوا شرها بذكر الله. وهذا يدل على أنه لم يرد بنفيها عدمها.

ومنه حديث أبي أيوب: «**كَانَ لِي تَمْرٌ فِي سَهْوَةٍ فَكَانَت الغِيلانُ تَجِيءُ فَتَأْخُذُ مِنْهُ**»[3] انتهى.

[وهذا هو الصحيح لأنها قد وجدت محققة في كثير من الأمكنة والأزمنة فلا ينكر وجودها حتى من زمن قريب].

وهامة: بتخفيف الميم: اسم طير يتشاءم به الناس، وهو طير كبير [بل صغير] يضعف بصره في النهار ويظهر بالليل، ويصوت، يقال له: بوم. وقال الفراء: الهامة: طير من طير الليل كأنها البوم. قال ابن الأعرابي: كانوا يتشاءمون بها إذا وقعت على بيت أحدهم، يقول: نعت إليَّ نفسي أو أحداً من أهل داري. انتهى.

فصل في رد الإشراك بالاستشفاع بالله على أحد من خلقه

عن جبير بن مطعم رضي الله عنه قال: أَتَى رَسُولَ اللهِ ﷺ أَعْرَابِيٌّ فَقَالَ:

---

(١) رواه مسلم (٢٢٢٢) وأحمد (١٤١١٧).

(٢) رواه أحمد (١٤٢٧٧، ١٥٠٩١) والنسائي في «الكبرى» (١٠٧٢٥) وأبو يعلى (٢٢١٩)، وصححه ابن خزيمة (٢٥٤٨).

(٣) أخرجه الترمذي (٢٨٨٠)، وأحمد (٢٣٥٩٢)، والحاكم (٥٩٣٢)، وصححه الألباني.

«جُهِدَتِ الأَنْفُسُ وَجَاعَ العِيَالُ وَنُهِكَتِ الأَمْوَالُ وَهَلَكَتِ الأَنْعَامُ فَاسْتَسْقِ اللهَ لَنَا فَإِنَّا نَسْتَشْفِعُ بِكَ عَلَى اللهِ وَنَسْتَشْفِعُ بِاللهِ عَلَيْكَ» يقال: استشفعت بفلان على فلان، فتشفع لي إليه. وشفعه أجاب شفاعته. ولما قيل: إن الشفاعة انضمام شخص إلى آخر ناصراً له وسائلاً عنه إلى ذي سلطان عظيم، منع رسول الله ﷺ أن يتشفع بالله تعالى على أحد من خلقه. وَقَالَ: «سُبْحَانَ الله» فَمَا زَالَ يُسَبِّحُ حَتَّى عُرِفَ ذَلِكَ فِي وُجُوهِ أَصْحَابِهِ ثُمَّ قَالَ: «وَيْحَكَ إِنَّهُ لَا يُسْتَشْفَعُ بِالله عَلَى أَحَدٍ مِنْ خَلقِهِ» الحديث رواه أبو داود[1] بسند حسن. فإنه تعالى رب كل شيء ومليكه والخير كله بيده لا مانع لما أعطى ولا معطي لما منع ولا راد لما قضى. والخلق وما في أيديهم كله ملكه يتصرف فيه كيف شاء. وهو الذي يشفع الشافع إليه وليس بشافع إلى أحد. وسبح الله كثيراً وعظمه لأن هذا القول من الأعرابي لا يليق بالخالق سبحانه وبحمده. هذا رسول الله ﷺ سيد الرسل وخاتمهم وأشرفهم خلقاً وأكرمهم وجاهة لما سمع من الأعرابي قولاً يخالف عظمته صار خائفاً دهشاً (ومنكراً قول الأعرابي) وأخذ في التسبيح وفي بيان جلالته من العرش إلى الفرش. فقس على هذا الناس الذين ينطقون بما يشعر كأنهم أقرباء لذلك الملك ملك الملوك أولهم معرفة به ومودة كمودة أحدهم لأحد ويعتدون في الأقوال ويتجاوزون حدود المقال، [في الله الكبير المتعال].

حكم التشفع بالمخلوق

وأما التشفع بالمخلوق فلا خلاف بين المسلمين أنه يجوز طلب الشفاعة من المخلوقين فيما يقدرون عليه من أمور الدنيا. وثبت بالسنة المتواترة واتفاق جميع الأمة أن نبينا ﷺ هو الشافع المشفع وأنه يشفع للخلائق يوم القيامة وأن الناس

---

(١) رواه أبو داود (٤٧٢٦) والطبراني (١٥٤٧) والبزار (٣٤٣٢).

يستشفعون به ويطلبون منه أن يشفع لهم إلى ربهم [يوم القيامة].

ولم يقع الخلاف إلا في كونها لمحو ذنوب المذنبين أو لزيادة ثواب المطيعين ولم يقل أحد من المسلمين بنفيها قط. لذا فقد أقر الأعرابي قوله: «**نَسْتَشْفِعُ بِكَ عَلَى الله**» [وهذا في حياته] وأنكر عليه قوله: « **نَسْتَشْفِعُ بِالله عَلَيْكَ**».

تنبيه: قال في «فتح المجيد»: وأما الاستشفاع بالرسول ﷺ في حياته فالمراد به استجلاب دعائه وليس خاصاً به ﷺ بل كل حي صالح يرجى أن يستجاب له فلا بأس أن يطلب منه أن يدعو للسائل بالمطالب الخاصة والعامة، كما قال النبي ﷺ لعمر لما أراد أن يعتمر من المدينة: «**لَا تَنْسَنَا مِنْ صَالِحِ دُعَائِكَ**»(١).

وأما الميت: فإنما يشرع في حقه الدعاء له على جنازته وعلى قبره وفي غير ذلك وهذا هو الذي يشرع في حق الميت وأما دعاؤه فلم يشرع إلى أن قال: فكل ميت أو غائب لا يسمع ولا يستجيب ولا ينفع ولا يضر. والصحابة رضي الله عنهم لا سيما أهل السوابق منهم كالخلفاء الراشدين لم ينقل عن أحد منهم ولا عن غيرهم أنهم أنزلوا حاجاتهم بالنبي ﷺ بعد وفاته حتى أوقات الجدب كما وقع لعمر رضي الله عنه لما خرج ليستسقي بالناس خرج بالعباس عم النبي ﷺ فأمره أن يستسقي لأنه حي حاضر يدعو ربه فلو جاز أن يستسقي بأحد بعد وفاته لاستسقى عمر والسابقون بالنبي ﷺ وبهذا يظهر الفرق بين الحي والميت لأن المقصود من الحي دعاؤه إذا كان حاضراً إلى أن قال ولو كان دعاء الميت خيراً لكان الصحابة إليه أسبق وعليه أحرص، وبهم أليق وبحقه أعلم وأَقْوَم، فمن تمسك بكتاب الله نجا ومن تركه واعتمد على عقله [أو تقليده لأئمة الضلال] هلك. وبالله التوفيق. انتهى.

---

(١) رواه أحمد (٥٢٢٩) والطيالسي (٥٥٠١) وأبو يعلى (٥٥٥٠).

حكم الاستغاثة ومعناها

الاستغاثة: بالغين المعجمة والثاء المثلثة هي طلب الغوث وهي إزالة الشدة كالاستنصار وهو طلب النصر ولا خلاف أنه يجوز أن يستغاث بالمخلوق فيما يقدر على الغوث فيه من الأمور. ولا يحتاج هذا إلى استدلال فهو في غاية الوضوح وما أظنه يوجد فيه خلاف. ومنه ﴿فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ﴾ [سورة القصص:]، وكما قال: ﴿وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ﴾ [سورة الأنفال: ٧٢] وكما قال: ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ﴾ [سورة المائدة: ٢] وأما ما لا يقدر عليه الإنسان فلا يستغاث فيه إلا بالله كغفران الذنوب والهداية وإنزال المطر ونحو ذلك كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [سورة آل عمران: ١٣٥] وقال: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [سورة القصص: ٥٦] وقال الرسول ﷺ: **«إنه لا يستغاث بي وإنما يستغاث بالله»**(١) فمراده ﷺ أنه لا يستغاث به فيما لا يقدر عليه إلا الله. قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: والاستغاثة بمعنى أن يطلب من الرسول ﷺ ما هو اللائق بمنصبه لا ينازع فيه مسلم، ومن نازع في هذا المعنى، فهو إما كافر وإما مخطئ ضال، وأما بالمعنى الذي نفاها رسول الله ﷺ فهو أيضاً مما يجب نفيه.

ومن أثبت لغير الله ما لا يكون إلا لله، فهو أيضاً كافر إذا قامت عليه الحجة التي يكفر تاركها.

معنى الاستعانة وحكمها

وأما الاستعانة: فهي طلب العون، ولا خلاف أنه يجوز أن يستعان بالمخلوق

(١) أخرجه الطبراني كما في «مجمع الزوائد» (١٠/ ١٥٩) وقال الهيثمي: رجاله رجال الصحيح غير ابن لهيعة، وهو حسن الحديث. قلت: وأكثر أهل العلم على تضعيف حديث ابن لهيعة.

فيما يقدر عليه من أمور الدنيا، كأن يستعين به على أن يحمل معه متاعه أو يعلف دابته أو يبلغ رسالته [أو يصلح سيارته ونحو ذلك]، وأما ما لا يقدر عليه إلا الله جل جلاله؛ فلا يستعان فيه إلا به ومنه ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝﴾ [سورة الفاتحة: ٥].

حكم الاستعاذة بغير الله

ومن الشرك الاستعاذة بغير الله. وهي الالتجاء والاعتصام ولهذا يسمى المستعاذ به معاذاً أو ملجأ. فالعائذ بالله قد هرب مما يؤذيه أو يهلكه إلى ربه ومالكه واعتصم واستجار به والتجأ إليه وهذا تمثيل وإلا فما يقوم بالقلب من الالتجاء إلى الله والاعتصام به والانطراح بين يديه والافتقار إليه والتذلل لديه أمر لا تحيط به العبارة. قاله ابن القيم رحمه الله.

وقال ابن كثير: الاستعاذة هي الالتجاء إلى الله والالتصاق بجانبه من شر كل ذي شر. والعياذ: يكون لدفع الشر، واللياذ لطلب الخير. انتهى.

قال في «فتح المجيد»: الاستعاذة من العبادات التي أمر الله تعالى عباده بها كما قال تعالى: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۝﴾ [سورة فُصِّلَت: ٣٦] وأمثال ذلك في القرآن كثير كقوله: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ۝﴾ [سورة الفَلَق: ١] و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝﴾ [سورة الناس: ١] فلما كان عبادة لله فصرفه لغير الله شرك في العبادة فمن صرف شيئاً من هذه العبادات لغير الله فقد جعله شريكاً لله في عبادته ونازع الرب في إلهيته، كما أن من صلى لله وصلى لغيره يكون عابداً لغير الله ولا فرق.

وعن خولة بنت حكيم قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**مَنْ نَزَلَ مَنْزِلًا فَقَالَ أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللهِ التَّامَّاتِ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ لَمْ يَضُرَّهُ الشَّيْطَانُ أَبَدًا**» رواه

مسلم[١]. فيه بيان: أن الله شرع لأهل الإسلام أن يستعيذوا به بدلاً عما يفعله الجاهلية من الاستعاذة بالجن في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ۝٦﴾ [سورة الجن: ٦] قال بعض العلماء: لأن الاستعاذة بالمخلوق شرك سواء كان جنياً أو غيره.

كلام الله وكلماته غير مخلوقة

واستدل العلماء بهذا الحديث على أن كلمات الله غير مخلوقة لأنها لو كانت مخلوقة لما جازت الاستعاذة بها. ولأنه ثبت عن النبي ﷺ أنه استعاذ بها وأمر بذلك ومعنى التامات -كما قال القرطبي- الكاملات التي لا يلحقها نقص ولا عيب كما يلحق كلام البشر. وقيل معناها الكافية الشافية وقيل هي هنا القرآن فإن الله أخبر عنه أنه هدى وشفاء وهذا الأمر على جهة الإرشاد إلى ما يدفع به الأذى وحيث كان هذا استعاذة بصفات الله تعالى صار هذا الأمر من باب المندوب إليه المرغب فيه وعلى هذا فحق على المستعيذ بالله وبأسمائه الحسنى وصفاته العليا أن يَصْدُق الله في الالتجاء إليه ويتوكل في ذلك عليه ويحضر ذلك في قلبه فمتى فعل ذلك وصل إلى منتهى طلبه ومغفرة ذنبه.

قال ابن تيمية شيخ الإسلام: وأما قوله: من شر ما خلق فمعناه: من كل شر من أي مخلوق قام به الشر من حيوان أو غيره إنسياً كان أو جنياً أو هامة أو دابة أو ريحاً أو صاعقة أي نوع كان من أنواع البلاء في الدنيا والآخرة. و(ما) هنا موصولة وليس المراد به العموم الإطلاقي بل المراد التقييدي الوصفي أي من شر كل مخلوق فيه شر أو ضر لا من شر كل ما خلق الله فإن الجنة والملائكة والأنبياء ليس منهم شر أصلاً أبداً.

(١) رواه مسلم (٢٧٠٨) والترمذي (٣٤٣٧) وابن ماجه (٣٥٤٧) وأحمد (٢٧١٢٠).

طلب الحوائج من الموتى شرك

قال ابن القيم: ومن أنواع الشرك طلب الحوائج من الموتى والاستغاثة بهم والاستعانة منهم والتوجه إليهم وهذا أصل شرك العالم. فإن الميت قد انقطع عمله وهو لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً فضلاً لمن استغاث به واستعان به أو سأله أن يشفع له إلى الله وهذا من جهله بالشافع والمشفوع عنده.

حكم المبالغة في مدحه صلى الله عليه وسلم

قال الحافظ محمد بن عبدالهادي في رده على السبكي في قوله: (إن المبالغة في تعظيمه ﷺ واجبة إن أريد بها المبالغة بحسب ما يراه كل أحد تعظيماً حتى الحج إلى قبره والسجود له والطواف به واعتقاد أنه يعلم الغيب وأنه يعطي ويمنع ويملك لمن استغاث به من دون الله الضر والنفع وأنه يقضي حوائج السائلين ويفرج كربات المكروبين وأنه يشفع فيمن شاء ويدخل الجنة من يشاء-): فدعوى المبالغة في هذا التعظيم مبالغة في الشرك وانسلاخ من جملة الدين.

فصل في الشفاعة ورد الشرك فيها

قال تعالى: ﴿ وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ ﴾ [سورة الأنعام: ٥١]، وقال تعالى: ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا﴾ [سورة الزُّمَر: ٤٤] أي هو مالكها، وليس لمن تطلب منه شيئاً منها، وإنما تطلب ممن يملكها دون كل ما سواه لأن ذلك عبادة وتأله لا يصلح إلا لله. وقال تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِىَ لَهُۥ قَوْلًا ﴿١٠٩﴾﴾ [سورة طه: ١٠٩] وقال تعالى: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [سورة البقرة: ٢٥٥] فيها أنها لا تنفع لأحد إلا بشرطين إذن الرب للشافع بالشفاعة ورضاه عن المشفوع له بها.

وقال تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ الآيات [سورة سبأ: ٢٢].

قال ابن القيم في الكلام على هذه الآيات الشريفة: قد قطع الله الأسباب التي يتعلق بها المشركون جميعاً، فالمشرك إنما يتخذ معبوده لما يحصل له من النفع، والنفع لا يكون إلا ممن فيه خصلة من هذه الأربع:

١- الملك.

٢- والشركة في الملك.

٣- والإعانة والظهور.

٤- والشفاعة.

فإن لم يكن مالكاً كان شريكاً للمالك فإن لم يكن شريكاً له كان معيناً له ظهيراً فإن لم يكن معيناً ولا ظهيراً كان شفيعاً عنده فنفى سبحانه المراتب الأربع نفياً مرتباً منتقلاً من الأعلى إلى الأدنى. فنفى الملك والشركة فيه والمظاهرة والشفاعة التي يطلبها المشرك. وأثبت شفاعة لا نصيب فيها للمشرك وهي الشفاعة بإذنه سبحانه فكفى بهذه الآيات نوراً وبرهاناً وتجريداً للتوحيد وقطعاً لأصول الشرك وموارده لمن عقلها. وقال له أبو هريرة رضي الله عنه: «**مَنْ أَسْعَدُ النَّاسِ بِشَفَاعَتِكَ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: مَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ خَالِصًا مِنْ قَلْبِهِ**»[1] فتلك الشفاعة لأهل الإخلاص بإذن الله ولا تكون لمن أشرك بالله. انتهى. (باختصار).

وقال رحمه الله أيضاً: إن الشفاعة ستة أنواع:

فالأول: الشفاعة الكبرى التي يتأخر عنها أولوا العزم من الرسل عليهم السلام حتى تنتهي إليه فيقول: أنا لها. وهذه الشفاعة يختص بها رسول الله ﷺ لا يشاركه فيها أحد.

(١) رواه البخاري (٩٩) وأحمد (٨٠٧٠، ٨٨٥٨).

الثاني: شفاعته لأهل الجنة في دخولها وقد ذكرها أبو هريرة في حديثه الطويل المتفق عليه.

الثالث: شفاعته لقوم من العصاة من أمته قد استوجبوا النار فيشفع لهم أن لا يدخلوها.

الرابع: شفاعته في العصاة من أهل التوحيد الذين يدخلون النار بذنوبهم، والأحاديث بها متواترة عن النبي ﷺ، وقد أجمع عليها الصحابة وأهل السنة قاطبة، وبدَّعوا من أنكرها وصاحوا به من كل جانب ونادوا عليه بالضلال.

الخامس: شفاعته لقوم من أهل الجنة في زيادة ثوابهم ورفع درجاتهم وهذا مما لا نزاع فيه.

السادس: شفاعته في بعض الكفار من أهل النار حتى يخفف عنه العذاب وهذه خاصة بعمه أبي طالب انتهى.

فإن قلت: إنما حكم سبحانه بالشرك على من عبد الشفعاء، وأما من دعاهم للشفاعة فقط فهو لم يعبدهم فلا يكون شركاً. قيل: مجرد اتخاذ الشُّفعاء ملزوم للشرك، والشرك لازم له، كما أن الشرك ملزوم لتنقص الرب سبحانه، والتنقص لازم للشرك ضرورة شاء المشرك أم أبى. وعلى هذا فالسؤال باطل من أصله لا وجود له وإنما هو شيء قدره المشركون في أذهانهم. فإن الدعاء عبادة بل هو العبادة، فإذا دعاهم للشفاعة فقد عبدهم وأشرك في عبادة الله شاء أم أبى.

حكم التوسل ومعناه

وأما التوسل إلى الله سبحانه من خلقه، في مطلب يطلبه العبد من ربه. فقد قال: الشيخ عز الدين: أنه لا يجوز التوسل إلى الله تعالى إلا بالنبي ﷺ إن صح الحديث فيه. ولعله يشير إلى الحديث الذي أخرجه النسائي في سننه والترمذي

وصححه وابن ماجه وغيرهم: أَنَّ أَعْمَى أَتَى إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ إِنِّي أُصِبْتُ فِي بَصَرِي فَادْعُ اللهَ لِي. فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: «**تَوَضَّأْ وَصَلِّ رَكْعَتَيْنِ، ثُمَّ قُلْ: اللهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ وَأَتَوَجَّهُ إِلَيْكَ بِنَبِيِّكَ مُحَمَّدٍ يَا مُحَمَّدُ إِنِّي أَسْتَشْفِعُ بِكَ فِي رَدِّ بَصَرِي اللهُمَّ شَفِّعْ النَّبِيَّ فِيَّ**» وَقَالَ: «**فَإِنْ كَانَ لَكَ حَاجَةٌ فَمِثْلَ ذَلِكَ**» فَرَدَّ اللهُ بَصَرِي[(١)].

وبناء على صحته فإن الرسول قد دعا له بناء على طلبه بقوله: «**فَادْعُ لِي**» مع قوله: «**اللهُمَّ شَفِّعْهُ فِيَّ**» وللناس في معنى هذا الحديث قولان:

أحدهما: أن التوسل هو الذي ذكره عمر بن الخطاب لما قال: «**كُنَّا إِذَا أَجْدَبْنَا نَتَوَسَّلُ بِنَبِيِّكَ إِلَيْكَ فَتَسْقِينَا، وَإِنَّا نَتَوَسَّلُ إِلَيْكَ بِعَمِّ نَبِيِّنَا**» وهو في «صحيح البخاري» وغيره[(٢)]. فقد ذكر عمر رضي الله عنه أنهم كانوا يتوسلون بالنبي ﷺ في حياته في الاستسقاء، ثم توسل بعمه العباس بعد موته، وتوسلهم هو استسقاؤهم بحيث يدعو ويدعون معه، فيكون هو [دعاؤه] وسيلتهم إلى الله تعالى. والنبي ﷺ كان في مثل هذا شافعاً وداعياً لهم.

والقول الثاني: أن التوسل به ﷺ يكون في حياته وبعد موته وفي حضرته ومغيبه. ولا يخفاك أنه قد ثبت التوسل [بدعائه] ﷺ في حياته وثبت التوسل بدعاء غيره من الأحياء بعد موته بإجماع الصحابة إجماعاً سكوتياً لعدم إنكار أحد منهم على عمر رضي الله عنه في توسله بالعباس رضي الله عنه. قال الشوكاني: وعندي لا وجه لتخصيص جواز التوسل بالنبي ﷺ كما زعم الشيخ عبدالسلام لأمرين:

الأول: ما عرفناك به من إجماع الصحابة رضي الله عنه.

والثاني: أن التوسل إلى الله بأهل الفضل والعلم هو في التحقيق توسل بأعمالهم الصالحة ومزاياهم الفاضلة إذ لا يكون الفاضل فاضلاً إلا بأعماله. وقد ورد في

---

(١) رواه الترمذي (٣٥٧٨) وقال: حسن صحيح. وابن ماجة (١٣٨٥) وأحمد (١٧٢٤٠).

(٢) رواه البخاري (١٠١٠) وابن خزيمة (١٤٢١) والطبراني (٨٤)، والبيهقي (٦٤٢٧).

بعض أدعية النبوة: «**اللهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ بِحَقِّ السَّائِلِينَ عَلَيْكَ**»[(١)] (هذا الحديث ضعفه كثير من الحفاظ وبناء على صحته تحق إجابتهم بسؤالهم) وأحوط الأقوال وأصح الأفعال في هذا الباب القصر على المورد إن صح، لأن أكثر الخلق لا يعلمون ما يدخل في هذا الشرك. كيف والشرك أخفى من دبيب النمل كما ورد في الحديث[(٢)].

فصل في رد الشرك العادي

بيان حكم التسمية الحسنة من السيئة

عن ابن عمر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إِنَّ أَحَبَّ أَسْمَائِكُمْ إِلَى اللهِ عَبْدُاللهِ وَعَبْدُالرَّحْمَنِ**» رواه مسلم[(٣)]. قال بعض أهل العلم: ويدخل في هذا الحديث التسمية بعبدالقدوس وعبدالخالق، فكل اسم فيه إضافة إلى اسم من أسماء الله الحسنى بحيث لا يطلق ذلك الاسم على غيره سبحانه فهو أحب. انتهى.

ولهذا ورد في حديث أبي هريرة عند البخاري[(٤)] يرفعه: «**أَخْنَى الأَسْمَاءِ يَوْمَ القِيَامَةِ عِنْدَ اللهِ رَجُلٌ تَسَمَّى مَلِكَ الأَمْلَاكِ**». وفي رواية لمسلم[(٥)] قال: «**أَغْيَظُ رَجُلٍ عَلَى الله يَوْمَ القِيَامَةِ، وَأَخْبَثُهُ وَأَغْيَظُهُ عَلَيْهِ، رَجُلٍ كَانَ يُسَمَّى مَلِكَ الأَمْلَاكِ، لَا مَلِكَ إِلَّا اللهُ**». ومعنى أخنى: أقبح وأفحش وأوضع. ومعنى أغيظ: أكثر من يغضب عليه. وإنما أخبر عن قبح ذلك لأن هذا اللفظ إنما يصدق على الله. فهو مالك الأملاك، لا مالك أعظم ولا أكبر منه، مالك الملك ذو الجلال والإكرام.

---

(١) رواه ابن ماجة (٧٧٨) وأحمد (١١١٥٦)، وضعفه الألباني.

(٢) رواه أحمد (١٩٦٠٦) وابن أبي شيبة (٢٩٥٤٧) والطبراني في «الأوسط» (٣٤٧٩).

(٣) رواه مسلم (٢١٣٢).

(٤) رواه البخاري (٦٠٢٥)، وورواه مسلم (٢١٤٣) بلفظ: (أخنع الأسماء).

(٥) رواه مسلم (٢١٤٣).

حكم التسمية بما فيه تزكية وإضافته إلى غير الله

فمن سمى ولده باسم فيه تزكية النفس أو الإضافة إلى غير الله تعالى فقد جاء بالسيئة وبَعُدَ عن منازل التوحيد. وقد غير رسول الله ﷺ اسم جماعة من الرجال والنساء أقل وأدْوَن من هذا كما في حديث زينب بنت أبي سلمة قالت: سميت برة، فقال رسول الله ﷺ: «**لَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمُ اللهُ أَعْلَمُ بِأَهْلِ البِرِّ مِنْكُمْ سَمُّوهَا زَيْنَبَ**» رواه مسلم[١]. وهذا يدل على كراهة التسمية بمثل محي الدين وقطب الدين وفخر الدين وعظيم الدين ونحوها لوجود التزكية في ذلك، وفي حديث ابن عباس قال: «**كَانَتْ جُوَيْرِيَةُ اسْمُهَا بَرَّةُ، فَحَوَّلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ اسْمَهَا جُوَيْرِيَةَ، وَكَانَ يَكْرَهُ أَنْ يُقَالَ: خَرَجَ مِنْ عِنْدَ بَرَّةَ**» رواه مسلم[٢]، وعن ابن عمر: «**أَنَّ بنتاً يُقَالُ لَهَا: عَاصِيَةُ فَسَمَّاهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ جَمِيلَةَ**» رواه مسلم[٣]. وعن سهل بن سعد قال: أُتِيَ بِالْمُنْذِرِ بْنِ أَبِي أُسَيْدٍ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ حِينَ وُلِدَ فَوَضَعَهُ عَلَى فَخِذِهِ فَقَالَ: «**مَا اسْمُهُ؟**» قَالَ: فُلَانٌ. قَالَ: «**لَا وَلَكِنْ أَسْمِهِ الْمُنْذِرَ**». متفق عليه[٤]. وعن عائشة قالت: «**إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يُغَيِّرُ الاسْمَ القَبِيحَ**» رواه الترمذي[٥]، وعن عبدالحميد بن جبير بن شيبة قال: جَلَسْتُ إِلَى سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيِّبِ فَحَدَّثَنِي أَنَّ جَدَّهُ قَدِمَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: «**مَا اسْمُكَ؟**» قَالَ: اسْمِي حَزْنٌ. قَالَ: «**بَل أَنْتَ سَهْلٌ**». قَالَ: مَا أَنَا بِمُغَيِّرٍ اسْمًا سَمَّانِيهِ أَبِي. قَالَ ابْنُ الْمُسَيِّبِ: فَمَا زَالَتْ فِينَا الْحُزُونَةُ. رواه البخاري[٦]. وفي الباب أحاديث دالة على أنه لا ينبغي للمسلم أن يسمي أولاده إلا بالأسماء التي هي أحب إلى الله

(١) بل رواه البخاري (٦١٩٢) ومسلم (٢١٤١).
(٢) رواه مسلم (٢١٤٠) وأبو داود (١٥٠٣) وأحمد (٢٣٣٤).
(٣) رواه مسلم (٢١٣٩) وأبو داود (٤٩٥٢) والترمذي (٢٨٣٨) وابن ماجه (٣٧٣٣).
(٤) رواه البخاري (٦١٩١) ومسلم (٢١٤٩).
(٥) رواه الترمذي (٢٨٣٩)، وصححه الشيخ الألباني.
(٦) رواه البخاري (٦١٩٠، ٦١٩٣) وأبو داود (٤٩٥٦) وأحمد (٢٣٦٧٣).

تعالى وأرشد إليها رسول الله ﷺ ولا يسميهم بما فيه التزكية أو القباحة أو الأشكال أو ما فيه رائحة الشرك، وقد غلا الناس في الأسامي إلى أن جعلوها شركاً خالصاً فسموا الأولاد عبد الحسين وبغلام فلان، ومعنى الغلام في عرفهم العبد، فصاروا بذلك مشركين وما قدروا الله حق قدره.

وكذلك ورد النهي عن الألقاب والكنى لما في حديث حذيفة عن النبي ﷺ قال: «**لَا تَقُولُوا لِلْمُنَافِقِ سَيِّدٌ فَإِنَّهُ إِنْ يَكُ سَيِّدًا فَقَدْ أَسْخَطْتُمْ رَبَّكُمْ**» رواه أبو داود(١). ومعناه: إن يكن سيداً وجب طاعته، وذلك موجب لسخط الله تعالى، ولأنكم عظمتم من لا يستحق التعظيم [لأن العظمة لله]. وعن شريح بن هانئ عن أبيه: أَنَّهُ لَمَّا وَفَدَ إِلَى رَسُولِ الله ﷺ مَعَ قَوْمِهِ سَمِعَهُمْ يَكْنُونَهُ بِأَبِي الحَكَمِ فَدَعَاهُ رَسُولُ الله ﷺ فَقَالَ: «**إِنَّ اللهَ هُوَ الحَكَمُ وَإِلَيْهِ الحُكْمُ**» فإلى الله الحكم في الدنيا والآخرة وهو الحاكم بين خلقه «**فَلِمَ تُكْنَى أَبَا الحَكَمِ؟**» قَالَ: إِنَّ قَوْمِي إِذَا اخْتَلَفُوا فِي شَيْءٍ أَتَوْنِي فَحَكَمْتُ بَيْنَهُمْ فَرَضِيَ كِلَا الفَرِيقَيْنِ بِحُكْمِي. فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**مَا أَحْسَنَ هَذَا**» [ما أحسن هذا الحكم على وجه الإصلاح] «**فَمَا لَكَ مِنَ الوَلَدِ؟**» قَالَ: لِي شُرَيْحٌ وَمُسْلِمٌ وَعَبْدُالله. قَالَ: «**فَمَنْ أَكْبَرُهُمْ؟**» قُلتُ: شُرَيْحٌ. قَالَ: «**فَأَنْتَ أَبُو شُرَيْحٍ**» رواه أبو داود والنسائي(٢). قال بعض العلماء: في معنى هذا الحديث: أن فصل المنازعة ورفع الخصومة هو شأن الله تعالى في الحقيقة فإنه يفصل بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون وليس ذلك إلى أحد من مخلوقاته ولا يقدر عليه أحد من دون الله فلا ينبغي أن يستعمل لفظاً هو يليق بشأن الله تعالى في حق من هو مخلوق له ومحكوم عليه منه انتهى.

---

(١) رواه أبو داود (٤٩٧٧) وأحمد (٢٢٩٣٩) والحاكم (٧٨٦٥) وقال: صحيح الإسناد.

(٢) رواه أبو داود (٤٩٥٥) والنسائي (٥٣٨٧) وصححه ابن حبان (٥٠٤) والحاكم (٦٢).

تحسين الأسماء وتغيير الأسماء القبيحة

وقد روى أحمد وأبو داود عن أبي الدرداء قال: قال رسول الله ﷺ: «**تُدْعَوْنَ يَوْمَ القِيَامَةِ بِأَسْمَائِكُمْ وَأَسْمَاءِ آبَائِكُمْ فَأَحْسِنُوا أَسْمَاءَكُمْ**»(١) وفي هذا إرشاد الأمة إلى تحسين الأسماء ولا حسن في اسم إذا كان فيه شيء مما كرهه الشرع أو نهى عنه أو منع منه أو سخط عليه الرب. قال: وغيَّر النبي ﷺ اسم العاص وعزيز وعتلة وشيطان والحكم وغراب وحباب وشهاب. قال: وتركت أسانيدها للاختصار. انتهى.

حكم المشيئة

وعن حذيفة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**لَا تَقُولُوا مَا شَاءَ اللهُ وَشَاءَ فُلَانٌ**» أي لما فيه من التسوية بين الله وبين عباده «**وَلَكِنْ قُولُوا مَا شَاءَ اللهُ**» كان «**ثُمَّ شَاءَ فُلَانٌ**» رواه أحمد(٢)، لأن ثم: للتراخي وإنما قدرنا كان: قبل ثم لدفع توهم الاشتراك في الحكم ولو بالتراخي أيضاً تأمل هذا فإنه مسلك دقيق وبالتحقيق حقيق. قال بعض العلماء: معنى هذا الحديث أن كل ما يختص بشأن الله ولا دخل لأحد من المخلوقين فيه فينبغي أن لا يلحق به أحداً من الخلق وإن بلغ من الرتبة العظمى ما بلغ وكان من التقرب في أعلى مكان. فلا يجوز أن يقول: إن شاء الله ورسوله يكون كذا وكذا من الأمر؛ لأن مجاري أمور العالم كلها بيد الله تعالى. وهو المتصرف فيها والمختار لها لا بيد الرسول ولا في مشيئته وإرادته فما لنا ولتشريك الرسول في مثل هذا الموضع وكذلك إن سئل أحد عن أحد وقال: متى يكون عرس فلان؟ وكم من الأوراق في الشجر؟ وكم نجماً على السماء؟ فلا يقول في

---

(١) رواه أبو داود (٤٩٤٨) وأحمد (٢١٦٩٣) والدارمي (٢٧٣٦)، وضعفه الألباني.

(٢) رواه أحمد (٢٣٢٦٥) وأبو داود (٤٩٨٠) وابن ماجه (٢١١٨)، وصححه الألباني.

جوابه: الله ورسوله أعلم بذلك أو هكذا حكم الله ورسوله في الأمر الفلاني لأن الأمر والخلق كل واحد منهما لله وحده لا شريك له ليس شيء منهما إلى الرسول ﷺ. ولا يعلم الغيب إلا الله. والعلم بهذه الأشياء ونحوها من جملة العلم بالأمور الغيبية التي استأثر الله بها من دون عباده وأن الله تعالى قد علم رسوله ﷺ أحكام الشرائع وقضى بها لعباده على لسانه وأمر الأمة بإطاعته لا بعبادته وإثبات الغيب له وإضافة الأمور إليه انتهى من اعتقد خلاف ذلك فقد صار من أهل الشرك. وكان من المشركين. وعن ابن عباس رضي الله عنهما: أن رجلاً قال للنبي ﷺ: مَا شَاءَ اللهُ وَشِئْتَ فَقَالَ: «**أَجَعَلْتَنِي للهِ نِدًّا بَلْ مَا شَاءَ اللهُ وَحْدَهُ**» رواه النسائي[١]. فيه بيان أن من سوى العبد بالله ولو في الشرك الأصغر فقد جعله لله نداً شاء أم أبى لوجود التسوية بين الخالق والمخلوق في العطف بالواو.

حكم الحلف بغير الله

وعن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «**إِنَّ اللهَ يَنْهَاكُمْ أَنْ تَحْلِفُوا بِآبَائِكُمْ وَمَنْ كَانَ حَالِفًا فَلْيَحْلِفْ باللهِ أَوْ لِيَصْمُتْ**» متفق عليه[٢]. قال النووي: الحكم في النهي عن الحلف بغير الله تعالى أن الحلف تعظيم المحلوف به وحقيقة التعظيم مختصة بالله تعالى فلا يضاهي به غيره. وعن ابن عمر رضي الله عنه قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «**مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ اللهِ فَقَدْ أَشْرَكَ**» رواه الترمذي[٣]. ومعناه: أشرك غير الله به في التعظيم البليغ فكأنه أشرك إشراكاً جلياً فيكون هذا

---

(١) رواه أحمد (١٨٣٩)، والبخاري في «الأدب المفرد» (٧٨٣)، والنسائي في «الكبرى» (١٠٧٥٩)، وابن ماجه (٢١١٧)، وصححه الألباني في «صحيح سنن ابن ماجه».

(٢) رواه البخاري (٦١٠٨) ومسلم (١٦٤٦).

(٣) رواه أحمد (٦٠٧٢) أبو داود (٣٢٥١) والترمذي (١٥٣٥) وقال: حديث حسن. وصححه ابن حبان (٤٣٥٨) والحاكم (٤٤).

زجراً بمبالغة. قاله السيد. [وقال ابن مسعود: «**لأَنْ أَحْلِفَ بِالله كَاذِبًا أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَحْلِفَ بِغَيْرِ الله صَادِقًا**»(١)] ومن المعلوم أن الحلف بالله كاذباً كبيرة من الكبائر، لكن الشرك أكبر الكبائر، وإن كان أصغر، فإذا كان هذا حال الشرك الأصغر فكيف بالشرك الأكبر الموجب للخلود في النار. أ.هـ. من «فتح المجيد».

ويكره [بل يحرم] الحلف بغير أسماء الله تعالى وصفاته سواء في ذلك النبي والكعبة والملائكة والإماتة والحياة والروح أو غيرها ومن أشدها الحلف بالإماتة وأما الله سبحانه فله أن يحلف بما شاء من مخلوقاته تنبيهاً على شرفه. وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**لَا تَحْلِفُوا بِآبَائِكُمْ وَلَا بِأُمَّهَاتِكُمْ وَلَا بِالأَنْدَادِ وَلَا تَحْلِفُوا بِاللهِ إِلَّا وَأَنْتُمْ صَادِقُونَ**» رواه أبو داود والنسائي(٢). المراد بالأنداد الشركاء أي شركاء كانوا من حيوان أو جماد أو حي أو ميت. وبالجملة حاصل هذه الأحاديث أن الحلف بغير الله شرك. والناس في هذا متسامحون [بل مخطئون] ترى كثيراً منهم يحلفون بكل من يعظمونه في الدين أو الدنيا أو يعتقدونه من الفقراء والمشايخ بكل ما عظمه الكفار والمشركون. وهذا من أبطل الباطلات وأوضح الإشراكات.

حكم ما يجري على ألسنة الشعراء من الحلف بغير الله

وأما حلف الشعراء في كلامهم المنظوم بأشياء من أنواع الأوراد والرياحين وأعضاء المحابيب وإشاراتهم وكناياتهم ونحوها، فهو من لغو اليمين الذي لا يؤاخذ عليه، لأن القصد لم يتعلق بتعظيمها وإنما جاءوا بها لمجرد تحسين الكلام وتزويق البيان وهذا هو الظاهر [بل الظاهر أن هذا حكمه حكم ما تقدم من التحريم والتعليل الذي ذُكر من أبطل الباطل، فإنهم يجدون ما يحسنون به كلامهم

---

(١) أخرجه عبدالرزاق في «المصنف» (١٥٩٢٩) والطبراني (٨٩٠٢)، وهو صحيح.

(٢) رواه أبو داود (٣٢٤٨) والنسائي (٣٧٦٩) وصححه ابن حبان (٤٣٥٧).

من غير الحلف بغير الله]. ثم قال المصنف: والأحوط أن يجتنب من مثل هذا الاستعمال أيضاً ليبقى سالماً من شوائب الشرك سليم الفؤاد من روائح الكفر. [وهذا كالتناقض منه كيف يجيز شيئاً هو يحكم به أنه مشوب بالشرك وروائح الكفر].

حكم نذر المعصية

وعن ثابت بن الضحاك قال: نَذَرَ رَجُلٌ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللهِ ﷺ أَنْ يَنْحَرَ إِبِلًا بِبُوَانَةَ فَأَتَى رَسُولَ الله ﷺ فَأَخْبَرَهُ، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**هَل كَانَ فِيهَا وَثَنٌ مِنْ أَوْثَانِ الجَاهِلِيَّةِ يُعْبَدُ؟**» قَالُوا: لَا. قَالَ: «**فَهَل كَانَ فِيهَا عِيدٌ مِنْ أَعْيَادِهِمْ؟**» قَالُوا: لَا. فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**أَوْفِ بِنَذْرِكَ فَإِنَّهُ لَا وَفَاءَ لِنَذْرٍ فِي مَعْصِيَةِ اللهِ وَلَا فِيمَا لَا يَمْلِكُ ابْنُ آدَمَ**» رواه أبو داود(1) [وإسناده على شرطهما].

قال بعض أهل العلم: دل الحديث على أنه لا ينبغي أن ينذر إلا لله وحده وإذا نذر له فليوف بنذره. وأما إذا نذر لغير الله فلا يوف به؛ لأن النذر لغير الله معصية والإصرار عليه ذنب آخر [بل شرك بالله].

وكل مكان وموضع يذبح فيه لغير الله أو يعبد هناك دونه سبحانه أو كان عبداً لأحد المشركين والكفار فلا يذهب هناك ولا يذبح فيه وإن كان هذا الذبح لله تعالى لا لغيره لأن التوقي من مواضع التشبه بأهل الكفر واجب. وسواء كانت النية في ذلك صالحة أو سيئة حسنة أو قبيحة.

والمقصود هنا من إيراد هذا الحديث أن في نذر المعاصي شبه بالشرك والتشبه بأهله فينبغي الاجتناب منه وفي الباب أحاديث كثيرة اشتملت عليها دواوين السنة المطهرة.

---

(١) رواه أبو داود (٣٣١٣).

حكم السجود لغير الله

عن عائشة رضي الله عنها: أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ كَانَ فِي نَفَرٍ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ فَجَاءَ بَعِيرٌ فَسَجَدَ لَهُ. فَقَالَ لَهُ أَصْحَابُهُ: يَا رَسُولَ الله تَسْجُدُ لَكَ الْبَهَائِمُ وَالشَّجَرُ فَنَحْنُ أَحَقُّ أَنْ نَسْجُدَ لَكَ. فَقَالَ: «**اعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَأَكْرِمُوا أَخَاكُمْ وَلَوْ كُنْتُ آمِرًا أَحَدًا أَنْ يَسْجُدَ لِأَحَدٍ لَأَمَرْتُ الْمَرْأَةَ أَنْ تَسْجُدَ لِزَوْجِهَا**» الحديث، رواه أحمد(١).

معناه اعبدوا ربكم بتخصيص السجود له [فإنه المستحق للعبادة ومنها السجود] وعظموا أخاكم تعظيماً له بالمحبة القلبية والإكرام المشتمل على الإطاعة لا العبادة [لأن العبادة لله وحده] وأما سجدة البعير فخرق للعادة واقع بتسخير الله تعالى فلا مدخل له ﷺ في فعله [فهو من أعلام نبوته] والبعير معذور حيث أنه مأمور من ربه كأمر الله وملائكته أن يسجدوا لآدم عليه السلام. وأطلق ﷺ في هذا الحديث لفظ الأخ على نفسه المقدسة، ومثله في الكتاب العزيز في حق الأنبياء كثير. وليس في هذا الإطلاق استخفاف له ﷺ كما زعم بعض الجهلة من الأمة.

قال بعض أهل العلم في معنى هذا الحديث: أن بني الإنسان كلهم إخوة فيما بينهم. [بل هذا خاص بالمسلمين، وأما الكفرة والمشركين فهم إخوان الشياطين] ففي هذا الحديث دليل على النهي عن السجدة لحي وميت كائناً من كان، وكذلك لقبر أو مكان لأحدهم، لأن كل حيوان مائت يوماً، ومن مات فقد كان حياً في وقت، مقيد بالبشرية، فكيف يستقيم أنه بعد الممات صار إلهاً مستحقاً للسجدة إليه؛ بل العبد عبد وإن مشى على الدر، والإله إله وإن لم يعرف له القدر والأمر.

إذا تقرر هذا فقد عرفت أن السجدة لغير الله شرك في العبادة وحيث اعتاد بها غالب الناس لملوكهم ورؤسائهم [ومن ذلك الانحناء] صارت شركاً في العادة

---

(١) رواه أحمد (٢٤٤٧١) والآجري في «الشريعة (١٠٧٣)، وورواه ابن ماجه (١٨٥٢) مختصراً.

أيضاً وهي لا تجوز للسلطان والأمير كائناً من كان ﴿فَٱسْجُدُواْ لِلَّهِ وَٱعْبُدُواْ ۩﴾ [سورة النجم: ٦٢].

احترام الصغير الكبير

فالكبير منهم [من المسلمين] أخٌ كبير ينبغي تعظيمه على حسب كبره، والله سبحانه أكبر من كلٍّ، فيختص بالعبادة وغاية التعظيم. عن عائشة رضي الله عنها: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كَانَ فِي نَفَرٍ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ فَجَاءَ بَعِيرٌ فَسَجَدَ لَهُ. فَقَالَ لَهُ أَصْحَابُهُ: يَا رَسُولَ اللهِ تَسْجُدُ لَكَ البَهَائِمُ وَالشَّجَرُ فَنَحْنُ أَحَقُّ أَنْ نَسْجُدَ لَكَ. فَقَالَ: «**اعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَأَكْرِمُوا أَخَاكُمْ**» الحديث رواه أحمد[1].

دل هذا الحديث على أن الأنبياء والأولياء وأخلاف الأئمة والمشايخ والشهداء وغيرهم من عباد الله المقربين بشر وعباد له سبحانه عاجزون فهم إخوة لنا مكرمون كبراء لنا وعلينا إطاعتهم وامتثال أوامرهم ونواهيهم فيما جاءوا به من عند الله وقالوا بما شرعه الله لنا. ونحن أصغر منهم وعلينا أن نعظمهم تعظيم الإنسان لإنسان آخر أعظم منه مفضل عليه، لا أن نعظمهم تعظيم العبد لله سبحانه وتعالى.

حكم قول القائل: عبدي وأمتي ونحوه

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**لَا يَقُولَنَّ أَحَدُكُمْ عَبْدِي وَأَمَتِي كُلُّكُمْ عَبِيدُ اللهِ وَكُلُّ نِسَائِكُمْ إِمَاءُ اللهِ وَلَكِنْ لِيَقُلْ: غُلَامِي وَجَارِيَتِي وَفَتَايَ وَفَتَاتِي وَلَا يَقُلِ العَبْدُ رَبِّي وَلَكِنْ لِيَقُلْ: سَيِّدِي**» وفي رواية: «**لِيَقُلِ سَيِّدِي وَمَوْلَايَ**» وفي رواية: «**وَلَا يَقُلِ العَبْدُ لِسَيِّدِهِ مَوْلَايَ فَإِنَّ مَوْلَاكُمُ اللهُ**» رواه مسلم[2].

---

(١) رواه أحمد (٢٤٤٧١) والآجري في «الشريعة (١٠٧٣)، وورواه ابن ماجه (١٨٥٢) مختصراً.

(٢) رواه مسلم (٢٢٤٩).

قال بعض أهل العلم: معناه لا يقل مملوك لسيده أنك مالكي، لأن مالك الكل هو الله تعالى وحده لا شريك له، ولا يقول السيد لمملوكه: إنك عبدي، وأنتِ أمتي، لأن هذا شأن الله وكلهم عبيده وإماؤه، ليس أحد بمالك أحد، ولا أحد عبد لأحد. والحديث دل على النهي عن مثل هذه المحاورة فيما بينهم مع وجود الملك فيما بين السيد والمملوك، فضلاً عن أن يصير عبداً لأحد كذباً ومجازاً فيسمى مثلاً بـ: عبد النبي وعبد الرسول وعبد السلطان وأمة فلان.

ومثل ذلك أن يقال لأحد: إنك مالك مالي وروحي وإني في يدك أفعل ما شئت، فهذا كله كذب محض، وشرك بحت ينبغي الفرار منه، ومن أتى به فقد ثبت عليه الشرك. والحديث فيه دلالة على النهي عن استعمال لفظ العبد والأمة والرب، ورخصة في قول: الغلام والفتى. وهذه الألفاظ المنهي عنها وإن كانت تطلق لفظة لكن النبي ﷺ نهى عنها تحقيقاً للتوحيد لما فيها من التشريك في اللفظ لأن الله تعالى هو رب العباد وسيدهم ومولاهم وحسماً لمادة الشرك بين الخالق والمخلوق وابتعاداً عما يوهم الإشراك ولو في اللفظ والعبارة. وهذا من محاسن مقاصد الشريعة الحقة والملة الصادقة لما فيه من تعظيم الرب وإبعاده عن مشابهة الخلق وتنزيهه عن التمثيل.

حكم التصوير وما ورد فيه

عن عائشة رضي الله عنها (**أَنَّهَا اشْتَرَتْ نُمْرَقَةً**): بضم النون وفتح الراء: وسادة صغيرة وقيل: هي مرفقة، فِيهَا تَصَاوِيرُ فَلَمَّا رَآهَا رَسُولُ الله ﷺ قَامَ عَلَى البَابِ فَلَمْ يَدْخُلهُ فَعَرَفْتُ فِي وَجْهِهِ الكَرَاهِيَةَ قَالَتْ: فقلتُ يَا رَسُولَ الله أَتُوبُ إِلَى الله وَإِلَى رَسُولِهِ مَاذَا أَذْنَبْتُ؟ فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**مَا بَالُ هَذِهِ النُّمْرَقَةِ؟**» قَالَتْ: اشْتَرَيْتُهَا لَكَ لِتَقْعُدَ عَلَيْهَا وَتَوَسَّدَهَا. فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**إِنَّ أَصْحَابَ هَذِهِ الصُّوَرِ يُعَذَّبُونَ يَوْمَ القِيَامَةِ. فَيُقَالُ لَهُمْ: أَحْيُوا مَا خَلَقْتُمْ وَقَالَ: إِنَّ البَيْتَ الَّذِي فِيهِ الصُّوَرُ لَا تَدْخُلُهُ**

المَلَائِكَةُ» متفق عليه[١]. قال بعض أهل العلم: يعني أن المشركين يعبدون الأصنام والأوثان فلهذا يستقذر الملائكة من الصور المنحوتة [وغير المنحوتة] وينفر عنها الرسل والأنبياء عليهم السلام أيضاً. والمصورون يعذبون في الآخرة لأنهم جعلوا أسباب عبادة الأوثان فعلم من هذا الحديث أن ما يفعله جهلة المسلمين من تعظيم تصاوير أنبيائهم وأئمتهم وأوليائهم ومشايخهم وأحبابهم وأولادهم ونسائهم وعشائرهم وقبائلهم ويحفظونها عندهم رجاء البركة أو تذكار الأحبة فذلك ضلال بحت وغرق في بحر الشرك. والأنبياء والملائكة ساخطون عليهم باغضون لهم بل لا يدخلون في بيت فيه تصاوير لأحد من هؤلاء وغيرهم استقذاراً منه واحترازاً عن دنسه ورجسه. وعن ابن مسعود قال: سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ: **«أَشَدُّ النَّاسِ عَذَابًا عِنْدَ اللهِ المُصَوِّرُونَ»** متفق عليه[٢]. وفي الحديث وعيد شديد على المصورين [عموماً من دون استثناء]، وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: **«قَالَ اللهُ تَعَالَى: وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ يَخْلُقُ كَخَلقِي فَلْيَخْلُقُوا ذَرَّةً أَوْ لِيَخْلُقُوا حَبَّةً أَوْ شَعِيرَةً»** متفق عليه[٣].

وما أفحم هذه الحجة فإنه لا يقدر أحد من المخلوقين أن يخلق شيئاً من ذلك، بل لا يمكن أحداً أن يدعيه ويصدق في هذا، بل كلهم محجوجون بهذه الحجة النيرة اللامعة لمعان الشمس في نصف النهار. قال بعض أهل العلم: في معنى هذا الحديث: أن المصورين يدعون الإلهية في هذه [الصورة] لكونهم يريدون أن يصنعوا أشياء مثل ما صنعه الخالق القدير. فهم مسيئو الأدب بالله عز وجل ودعواهم كذب صريح وحجة داحضة. كيف وهم عاجزون من أن يخلقوا ذرة أو

---

(١) رواه البخاري (٢١٠٥) ومسلم (٢١٠٧).

(٢) رواه البخاري (٥٩٥٠) ومسلم (٢١٠٩).

(٣) رواه البخاري (٥٩٥٣) ومسلم (٢١١١) وأحمد (٧١٦٦).

يقدروا عليها وليسوا إلا ناقلين لها؟ وهم بذلك واقعون في الشرك الواضح لإيذانهم بأنهم شركاء الباري في انتزاع هذه الصور وقد حشدوا لعابدي الصور أسباباً لعبادة غير الله.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «**كُلُّ مُصَوِّرٍ فِي النَّارِ يَجْعَلُ لَهُ بِكُلِّ صُورَةٍ صَوَّرَهَا نَفْسًا يُعَذِّبُ بِهَا فِي جَهَنَّمَ**» قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: فَإِنْ كُنْتَ لَا بُدَّ فَاعِلًا فَاصْنَعِ الشَّجَرَ وَمَا لَا رُوحَ فِيهِ. متفق عليه(١).

فيه جواز تصوير غير الحيوان والأولى تركه، ولكن التأسف على أهل هذا الزمان فقد راجت فيهم التصاوير في كل شيء حتى الأواني والملابس، وظروف الطعام والشراب وغيرهما، والبيوت والآلات من آلات الكتابة ونحوها مما لا يأتي عليه الحصر، وأشكل على أهل الدين الاجتناب منه لعموم البلوى به، فإنا لله وإنا إليه راجعون.

(١) رواه البخاري (٢٢٢٥) ومسلم (٢١١٠) وأحمد (٢٨١٠).

باب في رد بقية أنواع الشرك

وفيه فصول:

فصل في شرك لبس الحلقة والخيط ونحوهما لرفع البلاء ودفعه

ومعنى رفع الشيء: إزالته بعد نزوله. ومعنى دفع الشيء: منعه قبل نزوله.

عَنْ عِمْرَانَ بْنِ الْحُصَيْنِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ رَأَى رَجُلًا فِي يَدِهِ -وفي رواية الحاكم:- دَخَلْتُ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ وَفِي عَضُدِي حَلْقَةٌ صُفْرٌ. فالمبهم في هذه الرواية هو عمران راوي الحديث: فقَالَ: «مَا هَذِهِ؟» يحتمل أن يكون الاستفهام للاستفصال عن سبب لبسها أو للإنكار وهو أظهر، قَالَ: «مِنَ الوَاهِنَةِ» قال أبو السعادات: الواهنة عرق يأخذ بالمنكب وفي اليد كلها. فيرقى منها. وقيل: مرض يأخذ العضد وهي تأخذ الرجال دون النساء، قَالَ: «انْزِعْهَا» نهى عنها لأنه إنما اتخذها على أنها تعصمه من الألم وفيه اعتبار المقاصد. والنزع: الجذب بقوة. «فَإِنَّهَا لَا تَزِيدُكَ إِلَّا وَهْنًا»، أخبر أنها لا تنفعك بل تضرك وتزيدك ضعفاً وكذلك كل أمر نهى عنه فإنه لا ينفع غالباً وإن نفع بعضه في اعتقاده الكاذب فضرره أكبر من نفعه «فَإِنَّكَ لَوْ مِتَّ وَهِيَ عَلَيْكَ مَا أَفْلَحْتَ أَبَدًا» لأنه شرك استعان صاحبه بغير الله تعالى. والفلاح: هو الفوز والظفر والسعادة. وفي هذا شاهد لكلام الصحابة أن الشرك الأصغر أكبر من الكبائر وأنه لم يعذره بالجهالة. وفيه الإنكار بالتغليظ على من فعل مثل ذلك. رواه أحمد[1] بسند لا بأس به. وله[2] عن عقبة بن عامر

---

(١) رواه أحمد (٢٠٠٠٠)، وابن ماجة (٣٥٣١)، وابن حبان (٦٠٨٥)، والحاكم (٧٥٠٢)، وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه. ووافقه الذهبي.

(٢) رواه أحمد (١٧٤٠٤)، وصححه ابن حبان (٦٠٨٦) والحاكم (٧٥٠١)، وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه. ووافقه الذهبي.

مرفوعاً: «مَنْ تَعَلَّقَ تَمِيمَةً» أي علقها متعلقاً بها في قلبه في طلب خير أو دفع شر وضير. قال أبو السعادات: التمائم: جمع تميمة وهي خرزات كانت العرب تعلقها على أولادهم يتقون بها العين في زعمهم فأبطلها الإسلام «فَلَا أَتَمَّ اللهُ لَهُ» دعاء عليه «وَمَنْ تَعَلَّقَ وَدْعَةً» بفتح الواو وسكون المهملة: شيء يخرج من البحر شبه الصدف يتقون به العين «فَلَا وَدَعَ اللهُ لَهُ» بتخفيف الدال: أي لا جعله الله في دعة وسكون وهذا دعاء عليه.

وفي رواية لأحمد: «مَنْ تَعَلَّقَ تَمِيمَةً فَقَدْ أَشْرَكَ»(١)، وهذا أصرح من الأول ورواه الحاكم أيضاً بنحوه ورواته ثقات. قال ابن الأثير: إنما جعلها شركاً لأنهم أرادوا دفع المقادير المكتوبة عليهم وطلبوا دفع الأذى من غير الله الذي هو دافعه.

قال: ولابن أبي حاتم عن حذيفة أنه رأى رجلاً في يده خيط من الحمى فقطعه وتلا قوله تعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾﴾ [سورة يوسف: ١٠٦]، فيه إنكار مثل هذا وإن كان يعتقد أنه سبب فالأسباب لا يجوز منها إلا ما أباحه الله ورسوله مع عدم الاعتماد عليها. وأما التمائم والخيوط والحروز والطلاسم ونحو ذلك مما يعلقه الجهلة البطلة فهو شرك يجب إنكاره وإزالته بالقول وبالفعل وإن لم يأبه فيه صاحبه. وفي هذه الآثار عن الصحابة ما يبين بطلان هذا وكمال علمهم بالتوحيد، وبما ينافيه من أنواع الشرك، أو ينافي كماله الواجب.

فصل في رد شرك الرقى والتمائم

عَنْ أَبِي بَشِيرٍ الأَنْصَارِيِّ: أَنَّهُ كَانَ مَعَ النبي ﷺ فِي بَعْضِ أَسْفَارِهِ. قال الحافظ ابن حجر: لم أقف على تعيين سفره هذا. فَأَرْسَلَ رَسُولًا. هو زيد بن حارثة رواه الحارث بن أسامة في «مسنده» كما قاله الحافظ. «أَنْ لَا يَبْقَيَنَّ فِي رَقَبَةِ بَعِيرٍ قِلَادَةٌ مِنْ

(١) رواه أحمد (١٧٤٢٢)، وصححه الحاكم (٧٥١٣).

وَتَرٍ» بفتحتين واحد أوتار القوس.

وكان أهل الجاهلية إذا اخلولق الوتر أبدلوه بغيره وقلدوا به الدواب اعتقاداً منهم أنه يدفع العين عن الدابة «أَوْ قِلَادَةٌ إِلَّا قُطِعَتْ» متفق عليه[١]. والشك من الراوي هل قال شيخه: قلادة من وتر أو قلادة وأطلق ولم يقيد. ويؤيد الأول ما روي عن مالك: أنه سئل عن القلادة فقال: ما سمعت بكراهتها إلا في الوتر ولأبي داود قلادة بغير شك.

قال البغوي في «شرح السنة»: تأول مالك أمره عليه السلام بقطع القلائد على أنه من أجل العين وذلك أنهم كانوا يشدون تلك الأوتار والتمائم والقلائد ويعلقون عليها العوذ ويظنون أنها تعصمهم من الآفات فنهاهم النبي ﷺ عنها وأعلمهم أنها لا ترد من أمر الله شيئاً. وقال أبو عبيد بمعنى ذلك. وكذلك ابن الجوزي وغيره.

وعن ابن مسعود قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إِنَّ الرُّقَى وَالتَّمَائِمَ وَالتِّوَلَةَ شِرْكٌ» رواه أحمد وأبو داود[٢] -وفيه قصة-. ولفظ أبي داود: عَنْ زَيْنَبَ امْرَأَةِ عَبْدِاللهِ بْنِ مَسْعُودٍ أَنَّ عَبْدَاللهِ رَأَى فِي عُنُقِي خَيْطًا فَقَالَ: مَا هَذَا؟ قُلتُ: خَيطٌ أُرْقِيَ لِي فِيهِ. قَالَتْ: فَأَخَذَهُ ثُمَّ قَطَعَهُ ثُمَّ قَالَ: إِنَّ آلَ عَبْدِاللهِ لَأَغْنِيَاءُ عَنِ الشِّرْكِ. سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: ... إلخ.

والمراد بالرقى في هذا الحديث هي التي تسمى العزائم وخص منها الدليل ما خلا منه الشرك فقد رخص فيه رسوله ﷺ من العين والحمة يشير إلى أن الرقى الموصوفة بكونها شركاً هي التي يستعان فيها بغير الله وأما إذا لم يذكر فيها إلا أسماء الله وصفاته وآياته والمأثور عن النبي ﷺ فذلك جائز حسن أو مستحب وليس

---

(١) رواه البخاري (٣٠٠٥) ومسلم (٢١١٥).

(٢) رواه أبو داود (٣٨٨٣) وابن ماجة (٣٥٣٠) وأحمد (٣٦٠٤).

بشرك ويدل عليه حديث عوف بن مالك عند مسلم[1] قال: «**كُنَّا نَرْقِي فِي الجَاهِلِيَّةِ فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ كَيْفَ تَرَى فِي ذَلِكَ؟ فَقَالَ: اعْرِضُوا عَلَيَّ رُقَاكُمْ مَا لَمْ يَكُنْ فِيهِ شِرْكٌ**» وفي الباب أحاديث كثيرة. قال الخطابي: كان عليه السلام قد رَقَى ورُقِيَ وأمر بها وأجازها. وإنما جاءت الكراهة والمنع فيما كان منها بغير لسان العرب فإنه ربما كان كفراً أو قد يدخله الشرك. قلت: ومن ذلك ما كان على مذاهب الجاهلية التي يتعاطونها وأنها تدفع عنهم آفاتاً يعتقدون ذلك من قبل الجن ومعاونتهم. وقال السيوطي: قد أجمع العلماء على جواز الرقى عند اجتماع ثلاثة شروط:

الأول: أن تكون بكلام الله أو بأسمائه وصفاته [أو بالأدعية المأثورة].

الثاني: أن تكون باللسان العربي وبما يعرف معناه.

الثالث: أن يعتقد أن الرقية لا تؤثر بذاتها بل بتقدير الله تعالى. انتهى.

معنى التمائم وحقها وحكمها

التمائم: شيء يعلق على الأولاد عن العين، من خرزات وعظام لرفع العين. وهذا منهي عنه لأنه لا رافع إلا الله ولا يطلب دفع المؤذيات إلا من الله. قال بعض العلماء: لكن إذا كان المعلق من القرآن فرخص فيه بعض السلف وبعضهم لم يرخص فيه ويجعله من المنهي عنه منهم ابن مسعود رضي الله عنه. انتهى. أقول: إن العلماء من الصحابة والتابعين فمن بعدهم اختلفوا في جواز تعليق التمائم التي من القرآن وأسماء الله وصفاته فقالت طائفة: يجوز ذلك وهو قول ابن عمرو بن العاص وهو ظاهر ما روي عن عائشة، وبه قال أبو جعفر الباقر وأحمد في رواية وحملوا الحديث على التمائم التي فيها شرك. وقالت طائفة: لا يجوز ذلك وبه قال ابن مسعود وابن عباس وهو ظاهر قول حذيفة وعقبة بن عامر وبه قال جماعة من

(١) رواه مسلم (٢٢٠٠) وأبو داود (٣٨٨٦).

التابعين منهم أصحاب ابن مسعود وأحمد في رواية اختارها كثير من أصحابه وجزم به المتأخرون واحتجوا بهذا الحديث وما في معناه. قال بعض العلماء: وهذا هو الصحيح لوجوه ثلاثة. تظهر للمتأمل:

الأول: عموم النهي ولا مخصص للعموم.

الثاني: سد الذريعة فإنه يفضي إلى تعليق من ليس كذلك.

الثالث: أنه إذا علق فلا بد أن يمتهنه المعلق بحمله معه في حال قضاء الحاجة والاستنجاء ونحو ذلك.

قال: وتأمل هذه الأحاديث وما كان عليه السلف يتبين لك غربة الإسلام.

قلت: غربة الإسلام شيء وحكم المسألة شيء آخر. والوجه الثالث المتقدم لمنع التعليق ضعيف جداً لأنه لا مانع من نزع التمائم عند قضاء الحاجة ونحوها لساعة ثم يعلقها. والراجح في الباب أن ترك التعليق أفضل في كل حال بالنسبة إلى التعليق الذي جوزه بعض أهل العلم بناء على أن يكون بما ثبت لا بما لم يثبت؛ لأن التقوى لها مراتب، وكذا الإخلاص، وفوق كل رتبة في الدين رتبة أخرى، والمحصلون لها أقل. ولهذا ورد في الحديث في حق السبعين ألفاً يدخلون الجنة بغير حساب: أنهم «**هُمُ الَّذِينَ لَا يَرْقُونَ، وَلَا يَسْتَرْقُونَ**»[١]، مع أن الرقى جائزة وردت بها الأخبار والآثار والله أعلم بالصواب. والمتقي من يترك ما ليس به بأس خوفاً مما فيه بأس.

وأما التولة: فهو شيء مصنوع يزعمون أنه يحبب المرأة إلى زوجها والرجل إلى امرأته. وبهذا فسره ابن مسعود راوي الحديث كما في صحيح ابن حبان قالوا: يا أبا عبدالرحمن هذه الرقى والتمائم قد عرفناها فما التولة؟ قال: شيء يصنعه النساء يتحببن إلى أزواجهن. قال الحافظ: التولة بكسر التاء وفتح اللام مخففاً شيء كانت

---

(١) رواه البخاري (٥٧٠٥) ومسلم (٢٢٠)، وشكك بعض أهل العلم في ثبوت لفظة: (يرقون)، ووصفوها بالشذوذ، انظر: «السلسلة الصحيحة» للشيخ الألباني (١/ ٢٤٣) الحديث (٢٤٤).

المرأة تجلب به محبة زوجها وهو ضرب من السحر. والله أعلم. وإنما كان من الشرك لما يراد به من دفع المضار وجلب المنافع من غير الله تعالى. وفي حديث عبدالله بن حكيم مرفوعاً: «مَنْ تَعَلَّقَ شَيْئًا وُكِلَ إِلَيْهِ» رواه أحمد والترمذي والحاكم[1]. قال بعض العلماء: التعلق يكون بالقلب ويكون بالفعل ويكون بهما والمعنى: وكله الله إلى ذلك الشيء الذي تعلقه. فمن تعلق بالله وأنزل حوائجه به والتجأ إليه وفوض أمره كله إليه كفاه وقرب إليه كل بعيد ويسر له كل عسير. ومن تعلق بغيره أو سكن إليه وإلى رأيه وعقله ودوائه وتمائمه ونحو ذلك وكله الله إلى ذلك وخذله. وهذا معروف بالنصوص والتجارب. قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [سورة الطلاق: ٣] وروى أحمد[2] عن رويفع قال: قال رسول الله ﷺ: «يَا رُوَيْفِعُ لَعَلَّ الحَيَاةَ سَتَطُولُ بِكَ فَأَخْبِرِ النَّاسَ أَنَّهُ مَنْ عَقَدَ لِحْيَتَهُ أَوْ تَقَلَّدَ وَتَرًا أَوِ اسْتَنْجَى بِرَجِيعِ دَابَّةٍ أَوْ عَظْمٍ فَإِنَّ مُحَمَّدًا بَرِيءٌ مِنْهُ» فيه دليل على وجوب إخبار الناس وليس هذا مختصاً برويفع بل كل من عنده علم ليس عند غيره مما يحتاج إليه الناس وجب عليه إعلامهم به. فإن اشترك هو وغيره في علم ذلك فالبلاغ فرض كفاية قاله أبو زرعة في شرح سنن أبي داود. وفيه علم من أعلام النبوة فإن رويفعاً طالت به الحياة. (وهذا الحديث فيه الوعيد الشديد على من فعل هذه الأمور) واللحية بكسر اللام لا غير وجمعها لحاء بالكسر والضم قاله الجوهري. قال الخطابي: أما نهيه ﷺ عن عقد اللحية فيفسر على وجهين:

أحدهما: ما كانوا يفعلونه في الحرب كانوا يعقدون لحاهم وذلك من زي بعض الأعاجم يفتلونها ويعقدونها. قال أبو السعادات: تكبراً وعجباً.

الثاني: أن معناه معالجة الشعر ليتعقد ويتجعد وذلك من فعل الجاهلية أهل

---

(١) رواه أحمد (١٨٧٨١) والترمذي (٢٠٧٢) وصححه الحاكم (٧٥٠٣).

(٢) رواه أحمد (١٧٠٠٠) وأبو داود (٣٦) والنسائي (٥٠٦٧)، وصححه الألباني.

التأنيث. قال أبو زرعة: الأولى حمله على عقد اللحية في الصلاة كما دلت عليه رواية محمد بن الربيع وفيه أن من عقد لحيته في الصلاة قلت: هذه الرواية لا تدل على تخصيصه فيها بل تدل على أن فعله في الصلاة أشد من فعلها خارج الصلاة والنهي وقع على نفس عقدها أعم من أن يكون في الصلاة أو في موضع آخر غيرها.

وعن سعيد بن جبير قال: «**مَنْ قَطَعَ تَمِيمَةً عَنْ إِنْسَانٍ، كَانَ كَعَدْلِ رَقَبَةٍ**». رواه وكيع[١]. وله عند أهل العلم حكم الرفع؛ لأن مثل ذلك لا يقال بالرأي والخبر مرسل لأن سعيداً تابعي، وفيه فضل قطع التمائم لأنها شرك. وله عن إبراهيم النخعي: «**كَانُوا -أي: أصحاب ابن مسعود- يَكْرَهُونَ التَّمَائِمَ كُلَّهَا، مِنَ القُرآنِ وَغَيرِ القُرآنِ**»[٢].

فصل في بيان ما جاء في السحر والكهانة والنشرة ونحوها

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ﴾ [سورة البقرة: ١٠٢]، أي من نصيب. قاله ابن عباس. قال قتادة: وقد علم أهل الكتاب فيما عهد إليهم أن الساحر لا حظ له في الآخرة.

وقال الحسن: ليس له دين. فدلت الآية على تحريم السحر وكذلك هو محرم في جميع أديان الرسل عليهم السلام. كما قال تعالى: ﴿وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى ﴿٦٩﴾﴾ [سورة طه: ٦٩]، والسحر في اللغة عبارة عما خفي ولطف سببه، ولهذا جاء في الحديث: «**إِنَّ مِنَ البَيَانِ لَسِحْرًا**»[٣]، وسمي السحر سحراً لأنه يقع خفياً آخر الليل. قال أبو محمد المقدسي في «الكافي»: السحر عزائم ورقى وعقد يؤثر في

---

(١) رواه ابن أبي شيبة (٢٣٤٧٣).

(٢) رواه ابن أبي شيبة (٢٣٤٧١).

(٣) رواه البخاري (٥١٤٦) وأبو داود (٥٠٠٧) والترمذي (٢٠٢٨)، وأحمد (٤٦٥١).

القلوب والأبدان فيمرض ويقتل ويفرق بين المرء وزوجه. وقال تعالى: ﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ﴾ [سورة البقرة: ١٠٢]، وقال تعالى: ﴿وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ ﴿٤﴾﴾ [سورة الفَلَق: ٤]، يعني الساحرات اللاتي يعقدن في سحرهن وينفثن في عقدهن ولولا أن السحر له حقيقة لم يأمر الله بالاستعاذة منه. وعن عائشة رضي الله عنها: «**أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ سُحِرَ حَتَّى لَيُخَيَّلُ إِلَيْهِ أَنَّهُ يَفْعَلُ الشَّيْءَ وَمَا فَعَلَهُ**» وأنه قال لها ذات يوم: «**أَتَانِي مَلَكَان فَجَلَسَ أَحَدُهُمَا عِنْدَ رَأْسِي وَالآخَرُ عِنْدَ رِجْلَيَّ فَقَالَ: مَا وَجَعُ الرَّجُلِ؟ قَالَ: مَطْبُوبٌ. قَالَ: وَمَنْ طَبَّهُ؟ قَالَ: لَبِيدُ بْنُ الأَعْصَمِ فِي مُشْطٍ وَمُشَاطَةٍ فِي طَلعَةٍ ذَكَرٍ فِي بِئْرِ ذِي أَرْوَانَ**» رواه البخاري[1]. وفي حديث زيد بن أرقم: «**فَأَرْسَلَ عَلِيًّا فَجَاءَ بِهِ، قَالَ: فَأَمَرَهُ أَنْ يَحُلَّ العُقَدَ، وَيَقْرَأَ آيَةً، فَجَعَلَ يَقْرَأُ وَيَحُلُّ حَتَّى قَامَ النَّبِيُّ ﷺ كَأَنَّمَا أُنْشِطَ مِنْ عِقَالٍ**» رواه عبد بن حميد في «مسنده»[2]. قيل: مدّة سحره كانت أربعين يوماً وقيل ستة أشهر وقيل عاماً. قال الحافظ ابن حجر: وهو المعتمد. قال الراغب: تأثير السحر في النبي ﷺ لم يكن من حيث أنه نبي وإنما كان في بدنه من حيث أنه إنسان أو بشر كما كان يأكل ويشرب ويتغوط ويبول ويشتهي ويمرض فتأثيره فيه من حيث هو بشر لا من حيث هو نبي. وإنما يكون ذلك قادحا في النبوة لو وجد في السحر تأثير في أمر يرجع للنبوة كما أن جرحه وكسر رباعيته يوم (أحد) لم يقدح في ما ضمن الله له من عصمته في قوله: ﴿وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [سورة المائدة: ٦٧]، ومذهب أهل السنة أن السحر له حقيقة ويكون بالقول والفعل ويؤلم ويمرض ويقتل ويفرق بين الزوجين.

---

(١) رواه البخاري (٥٧٦٦)، ومسلم (٢١٨٩).

(٢) رواه عبد بن حميد (٢٧١) والنسائي (٤٠٨٠) وأحمد (١٩٢٦٧)، وصححه الألباني.

أثر المعوذتين في إزالة السحر

وللمعوذتين أثر عظيم في إزالة السحر فمن داوم على قراءتها في الأيام والليالي (مع اعتقاد نفعها بإذن الله) لا يضره السحر بإذن الله. وإذا قرأهما زال أثره إن شاء الله تعالى. وفي حديث عائشة قالت: «**أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كَانَ إِذَا اشْتَكَى يَقْرَأُ عَلَى نَفْسِهِ بِالْمُعَوِّذَاتِ وَيَنْفُثُ**» الحديث رواه مالك في الموطأ وهو في «الصحيحين» من طريقه[(١)]. وعن أبي سعيد الخدري قال: «**كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَتَعَوَّذُ مِنْ عَيْنِ الجَانِّ وَعَيْنِ الإِنْسِ فَلَمَّا نَزَلَتِ الْمُعَوِّذَتَانِ أَخَذَ بِهِمَا وَتَرَكَ مَا سِوَى ذَلِكَ**» رواه الترمذي وحسنه، وابن مردويه والبيهقي[(٢)]. وهو دليل على بطلان قول المعتزلة في إنكار تحقق السحر وظهور أثره. وأخرج النسائي[(٣)] وابن مردويه عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «**مَنْ عَقَدَ عُقْدَةً ثُمَّ نَفَثَ فِيهَا فَقَدْ سَحَرَ وَمَنْ سَحَرَ فَقَدْ أَشْرَكَ وَمَنْ تعَلَّقَ شَيْئًا وُكِلَ إِلَيْهِ**» واختلفوا في جواز النفخ في الرقى والتعاويذ الشرعية فجوزه الجمهور. ويدل على حديث عائشة: «**كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا مَرِضَ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِهِ نَفَثَ عَلَيْهِ بِالْمُعَوِّذَاتِ**» الحديث[(٤)].

وأنكر جماعة التفل والنفث في الرقى وأجازوا النفخ بلا ريق.

واختلفوا: هل يكفر الساحر أو لا؟ فذهب طائفة من السلف إلى أنه يكفر وبه قال مالك وأبو حنيفة وأحمد قال أصحابه إلا أن يكون سحره بأدوية وتدخين وسقي شيئاً لا يضره فلا يكفر. وقال الشافعي: إذا تعلم السحر قلنا له: صف لنا سحرك فإن وصفه بما يوجب الكفر مثل ما لو اعتقد ما اعتقده أهل بابل من

---

(١) رواه مالك (١٧٥٥) والبخاري (٥٠١٦) ومسلم (٢١٩٢).

(٢) رواه الترمذي (٢٠٥٨) والنسائي (٥٤٩٤) وابن ماجة (٣٥١١) والبيهقي في «الشعب» (٢٣٢٧).

(٣) رواه النسائي (٤٠٧٩) والطبراني في «الأوسط» (١٤٦٩)، وضعفه الألباني.

(٤) رواه مالك (١٧٥٥) والبخاري (٥٠١٦) ومسلم (٢١٩٢).

التقرب إلى الكواكب السبعة، وأنها تفعل ما يلتمس منها فهو كافر، وإن كان لا يوجب الكفر، فإن اعتقد إباحته كفر. انتهى.

حكم الساحر

وقد روى الترمذي والدارقطني والبيهقي والحاكم من حديث جندب قال: قال رسول الله ﷺ: «**حَدُّ السَّاحِرِ ضَرْبَةٌ بِالسَّيْفِ**»(١) قال الترمذي: والصحيح عن جندب موقوفاً. قال: والعمل عليه هذا عند أهل العلم من أصحاب رسول الله ﷺ وغيرهم، وهو قول مالك بن أنس. رواه أحمد وعبدالرزاق والبيهقي(٢): أَنَّ عُمَرَ بْنَ الخَطَّابِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ كَتَبَ قَبْلَ مَوْتِهِ بِشَهْرَيْنِ «**أَنِ اقْتُلُوا كُلَّ سَاحِرٍ وَسَاحِرَةٍ**» وقال الشافعي: الساحر إذا كان يعمل في سحره ما يبلغ به كفره يقتل فإذا عَمِل عَمَلاً دون الكفر فلم نر عليه قتلاً. وقال مالك وأحمد: يقتل الساحر. والأرجح ما قاله الشافعي لأن الساحر إنما يقتل لكفره فلا بد أن يكون ما عمله من السحر موجباً لكفره.

أنواع السحر

وأما أنواع السحر فمنها الأحوال الشيطانية التي غرت كثيراً من العوام والجهال فاغتر بها كثير من الناس وظنوا أنها تدل على ولاية من جرت على يده. ومنهم من هو من أولياء الشياطين لا من أولياء الرحمن وفي هذا الباب كتاب «الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان» لشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله [ففيه ما يشفي ويكفي من البيان عن هذا الموضوع].

---

(١) رواه الترمذي (١٤٦٠) والبيهقي (١٦٥٠٠) والدارقطني (٣٢٠٤)، وضعفه البيهقي.

(٢) رواه أحمد (١٦٥٧) وعبدالرزاق (٩٩٧٢) والبيهقي (١٧١٢٢) وأبو داود (٣٠٤٣)، وصححه الألباني

وعن ابن عمر: أن رسول الله ﷺ قال: «**إِنَّ مِنَ البَيَانِ لَسِحْرًا**» متفق عليه[١].

والمراد بالبيان البلاغة والفصاحة. قال صعصعة بن حومان: صدق نبي الله فإن الرجل يكون عليه الحق وهو ألحن بالحجج من صاحب الحق فيسحر القوم ببيانه فيذهب بالحق. وقال ابن عبدالبر: تأوله طائفة على الذم لأن السحر مذموم وذهب أكثر أهل العلم وجماعة من أهل الأدب إلى أن هذا على طريقة المدح لأن الله تعالى مدح البيان. والأول أصح والمراد بالبيان الذي فيه تمويه على السامع كما قال الشاعر:

وَفِي زُخْـرُفِ القَـولِ تَـزيينٌ لِباطِلِـه ... وَالحَـقُّ قَـدْ يَعتَرِيـهِ سُـوءُ تَعبـيرِ

وبالجملة فالبيان لا يحمد إلا إذا لم يخرج إلى حد الإسهاب والإطناب لتغطية الحق وتحسين الباطل فإذا خرج إلى هذا فهو مذموم وعلى هذا تدل الأحاديث كحديث الباب وحديث: «**إِنَّ اللهَ يُبْغِضُ البَلِيغَ مِنَ الرِّجَالِ الَّذِي يَتَخَلَّلُ بِلِسَانِهِ كَمَا تَتَخَلَّلُ البَقَرَةُ بِلِسَانِهَا**» رواه أبو داود وأحمد[٢]. والحاصل أن كل فصاحة وبلاغة تكون مقررة للحق فهو السحر الحلال النافع وكل كلام مزخرف يقرر الباطل والجزاف فهو السحر المحرم الضار.

حقيقة الكهانة

وأما الكهانة فالكاهن هو الذي يأخذ عن مسترقي السمع، وكانوا قبل البعثة كثيراً، وأما بعد البعثة فإنهم قليل، لأن الله تعالى حرس السماء بالشهب، وأكثر ما يقع في هذا ما يخبر به الجن مواليهم من الإنس عن الأشياء الغائبة، مما يقع في

---

(١) رواه البخاري (٥١٤٦) وأبو داود (٥٠٠٧) والترمذي (٢٠٢٨)، ومالك (١٨٥٠) وأحمد (٤٦٥١)، من حديث ابن عمر رضي الله عنهما، ولم يخرجه مسلم عنه رضي الله عنه، إنما أخرجه مسلم (٨٦٩) من حديث جابر رضي الله عنه.

(٢) رواه أبو داود (٥٠٠٥) وأحمد (٦٥٤٣) والترمذي (٢٨٥٣)، وصححه الألباني.

الأرض من الأخبار، فيظنه الجاهل كشفاً وكرامة، وقد اغتر بذلك كثير من الناس، يظنون ذلك المخبر لهم عن الجن ولياً لله، وهو من أولياء الشيطان. [وقد تقدم الوعيد الشديد على من صدق هؤلاء، وأما حكم من صدقهم فهو كفر عند طائفة من العلماء].

لما روى أبو هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**مَنْ أَتَى كَاهِنًا فَصَدَّقَهُ بِمَا يَقُولُ فَقَدْ كَفَرَ بِمَا أُنْزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ** ﷺ» رواه الأربعة والحاكم[١]. وقال: صحيح على شرطهما. وعنه: «**مَنْ أَتَى عَرَّافًا وَكَاهِنًا فَصَدَّقَهُ بِمَا يَقُولُ فَقَدْ كَفَرَ بِمَا أُنْزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ** ﷺ» رواه أحمد والبيهقي والحاكم[٢]. ولا تعارض بين هذا وبين الحديث المتقدم في عدم قبول الصلاة[٣] عند القائل بكفر دون كفر. وأما من يقول بظاهر الحديث فظاهر الحديث أنه يكفر من اعتقد صدقه بأي وجه كان.

قال القرطبي: المراد بما أنزل على محمد ﷺ: الكتاب والسنة. انتهى. وهل الكفر في هذا الموضع كفر دون كفر فلا ينقل عن الملّة أم يتوقف فيه فلا يقال يخرج؟ وهذا أشهر الروايتين عن أحمد رحمه الله. وفيه دليل على كفر الكاهن والساحر لأنهما يدعيان علم الغيب وذلك كفر والمصدق لهما يعتقد ذلك ويرضى به وذلك كفر أيضاً. وقد ورث هذه العلوم عنهم أقوام فادعوا علم الغيب الذي استأثر الله تعالى بعلمه وادعوا أنهم أولياء وأن ذلك كرامة. ولا ريب أن من ادعى الولاية واستدل بأخباره ببعض المغيبات فهو من أولياء الشيطان لا من أولياء الرحمن. إذ

(١) رواه أحمد (١٠١٦٧) وأبو داود (٣٩٠٤) والترمذي (١٣٥) وابن ماجه (٦٣٩) والدارمي (١١٧٦) والبيهقي (١٤١٢٤)، وصححه الحاكم (١٥)، ووافقه الذهبي، وصححه الألباني.

(٢) رواه أحمد (٩٥٣٦) والبيهقي (١٦٤٩٦) والحاكم (١٥)، وقال: صحيح على شرطهما، ووافقه الذهبي.

(٣) يشير إلى ما رواه مسلم (٢٢٣٠)، وأحمد (١٦٦٣٨)، من حديث حفصة قالت: قال رسول الله ﷺ: «**مَنْ أَتَى عَرَّافاً فَسَأَلَهُ عَنْ شَيْءٍ لَمْ تُقْبَل لَهُ صَلَاةُ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً**».

الكرامة أمر يجريه الله على يد بعض عباده المؤمنين المتقين إما بدعاء أو أعمال صالحة لا صنع للولي فيها ولا قدرة له عليها. بخلاف من يدعي أنه ولي الله ويقول للناس: اعلموا أني أعلم المغيبات أو أخبر بها فإن مثل هذه الأمور قد تحصل بما ذكرنا من الأسباب وإن كانت الأسباب محرمة كاذبة في الغالب ولهذا قال الرسول ﷺ في وصف الكهان: «إِنَّهُمْ يَكْذِبُونَ مَعَهَا مِائَةَ كِذْبَةٍ»[1]. فبين عليه الصلاة والسلام أنهم يصدقون مرة ويكذبون مائة وهكذا حال من سلك سبيل الكهان ممن يدعي الولاية والعلم بما في ضمائر الناس مع أن نفس دعواه دليل على كذبه لأن في دعوى الولاية تزكية النفس المنهي عنها بقوله تعالى: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ﴿٣٢﴾﴾ [سورة النجم: ٣٢]، ومجرد دعواهم لعلم الغيب كفر بواح فكيف يكون المدعي لذلك ولياً لله؟ بل هو ولي الشيطان خارج عن دائرة الإيمان.

معنى النشرة وحكمها

عَنْ جَابِرٍ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ سُئِلَ عَنِ النُّشْرَةِ؟ فَقَالَ: «هِيَ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ» رواه أحمد بسند جيد وأبو داود[2]. قال الحسن: النشرة من السحر. قال ابن الجوزي: النشرة حل السحر عن المسحور ولا يكاد يقدر عليه إلا من يعرف السحر. وسئل أحمد عن النشرة فقال: قال ابن مسعود: يكره هذا كله. قال ابن مفلح: إسناده جيد. وحسنه الحافظ. وفي البخاري[3]: «عَنْ قَتَادَةَ قُلْتُ لِابْنِ الْمُسَيِّبِ: رَجُلٌ بِهِ طِبٌّ أَوْ يُؤَخَّذُ عَنِ امْرَأَتِهِ أَيُحَلُّ عَنْهُ أَوْ يُنَشَّرُ؟ قَالَ: لَا بَأْسَ بِهِ إِنَّمَا يُرِيدُونَ بِهِ الإِصْلَاحَ فَأَمَّا مَا يَنْفَعُ فَلَمْ يُنْهَ عَنْهُ». الطب: السحر. ومعنى يؤخذ:

---

(١) رواه البخاري (٣٢١٠).

(٢) رواه أبو داود (٣٨٦٨) وأحمد (١٤٢٣٥) والبيهقي (١٩٦١٣).

(٣) تعليقاً، كتاب الطب، باب هل يستخرج السحر؟ قبل الحديث رقم (٥٧٦٥).

يحبس عن امرأته ولا يصل إلى جماعها. والمراد من الإصلاح إزالة السحر وهذا محمول على نشرة لا يعلم أنها سحر.

قال في «فتح المجيد»: قول العلامة ابن القيم: النشرة بالرقية والتعوذات والأدوية المباحة جائز. يشير إلى مثل هذا وعليه يحمل كلام من أجاز النشرة من العلماء. والحاصل أن ما كان من السحر فيحرم، وما كان بالقرآن والدعوات والأدوية المباحة فجائز، والله أعلم. انتهى.

ومما جاء في صفة النشرة ما رواه ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن ليث بن سليم قال: بلغني أن هؤلاء الآيات شفاء من السحر بإذن الله، تقرأ في إناء به ماء ثم يصب على رأس المسحور. الآية التي في سورة يونس: ﴿فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾ وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [سورة يونس: ٨١-٨٢]، وقوله: ﴿فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فَغُلِبُوا۟ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُوا۟ صَٰغِرِينَ ﴿١١٩﴾ وَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿١٢٠﴾ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾﴾ [سورة الأعراف: ١١٨-١٢١]، وقوله: ﴿إِنَّمَا صَنَعُوا۟ كَيْدُ سَٰحِرٍ ۖ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴿٦٩﴾﴾ [سورة طه: ٦٩]، وقال ابن بطال في كتاب وهب بن منبه: أنه يأخذ سبع ورقات من سدر أخضر فيدقها بين حجرين [أو في هاون وغيره] ثم يضرب به بالماء ويقرأ فيه آية الكرسي والقواقل [لعلها المعوذتين وسورة الإخلاص] ثم يحسو منه ثلاث حسوات ثم يغتسل به يذهب عنه كل ما به (بإذن الله) وهو جيد إذا حبس الرجل عن أهله.

وأقول: عقد مسند الوقت الشيخ أحمد ولي الله الدهلوي فصلاً في كتابه «القول الجميل» وذكر فيه أعمالاً مجربة منها إزالة السحر وغيره. قال رحمه الله: وسمعته يقول: ثلاث وثلاثون آية تنفع من السحر وتكون حرزاً من الشيطان واللصوص

والسباع: أربع آيات من أول البقرة وآية الكرسي وآيتان بعدها وثلاث من آخر البقرة وثلاث من الأعراف: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ۚ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾﴾ [سورة الأعراف: ٥٤-٥٦] وآخر الإسراء: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ﴾ [سورة الإسراء: ١١٠]، وعشر آيات من أول الصافات: ﴿وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ صَفًّا ﴿١﴾ فَٱلزَّٰجِرَٰتِ زَجْرًا ﴿٢﴾ فَٱلتَّٰلِيَٰتِ ذِكْرًا ﴿٣﴾ إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَٰحِدٌ ﴿٤﴾ رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ ٱلْمَشَٰرِقِ ﴿٥﴾ إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ ﴿٦﴾ وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ ﴿٧﴾ لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ ﴿٨﴾ دُحُورًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ﴿٩﴾ إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ﴿١٠﴾ فَٱسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَآ ۚ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍۭ ﴿١١﴾﴾ [سورة الصافات: ١-١١]، وآيتان من سورة الرحمن: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا۟ ۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ ﴿٣٣﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٤﴾ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ ﴿٣٥﴾﴾ [سورة الرحمن: ٣٣-٣٥]، وآخر الحشر: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۖ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٤﴾﴾ [سورة الحشر: ٢١-٢٤]، وآيتان من:

﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ۝١ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا ۝٢ وَأَنَّهُ تَعَالَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا ۝٣ وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا ۝٤﴾ [سورة الجن: ١-٤]، فهذه هي الآيات المسماة بثلاث وثلاثين آية وكان والدي يزيد عليها: [الفاتحة وقل يا أيها الكافرون وقل هو الله أحد والمعوذتين ويأخذ من أول قل أوحي إلى شططاً]. انتهى.

وقد ذكر صاحب «شفاء العليل» هذه الآيات بعينها فمن شاء الاطلاع عليها فليرجع إليه يجدها متعينة مفصلة. وكل عمل ودعاء ينشر المرض والداء وينفع من الأسقام والأدواء يصدق عليه أنه نشرة يجوز الانتفاع به إن كان من ألفاظ القرآن والسنة أو من المأثور عن السلف الصلحاء الخالي عن أسماء الشرك وصفاته باللسان العربي وإلا كان حراماً أو شركاً. وفي الباب كتب كثيرة تشتمل على رطب ويابس وعلى ما جاز وما لم يجز. فليتحرر المؤمنُ الموحِّد عند العمل بما فيها ما هو ثابت صحيح مبرّأ من كل شك وشبهة وليدع ما هو على غير طريقة الإسلام وإنما هو فعل أهل العزائم والآفاق الذين يكتبون التعاويذ في الهندسة والحروف والخطوط ونحوها فإن ذلك لا يصلح لشيء وكذلك النفث في الخيوط المعقودة. والله سبحانه كاف لعبده إن توكل عليه ولم يتعلق بغيره واكتفى بالأدعية المسنونة والأدوية المباحة، ومن حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه. وحيث أن الشرك أخفى من دبيب النمل يجب غاية التحري فيه والتجنب من أنواعه وأطرافه [ووسائله] وما يشبه ذلك، وبالله التوفيق وهو المستعان.

حكم حروف أبا جاد

قال ابن عباس رضي الله عنهما في قوم يكتبون أبا جاد وينظرون في النجوم: «**مَا أَرَى مَنْ فَعَلَ ذَلِكَ لَهُ عِنْدَ اللهِ مِنْ خَلَاقٍ**» رواه الطبراني مرفوعاً وإسناده

ضعيف[(١)]، [ورواه حميد بن زنجويه عنه بلفظ: «رَبَّ نَاظِرٍ فِي النُّجُومِ وَمُعَلِّمِ حُرُوفِ أَبِي جَادٍ لَيْسَ لَهُ عِنْدَ اللهِ خَلَاقٌ»[(٢)] من «فتح المجيد»] وأرى: بفتح الهمزة بمعنى أعلم وبضمها بمعنى أظن وكتابة أبا جاد وتعلمها لمن يدعي بها علم الغيب وهو ما يسمى علم الحرف وهو الذي فيه الوعيد. فأما تعلمها للتهجي وحساب الجمل فلا بأس به. والمراد بالنظر في النجوم: اعتقاد أن لها تأثيراً.

متى ابتدأ الشرك بعد موت الرسول صلى الله عليه وسلم

أقول: جاء هذا الفساد من بعد القرون الثلاثة المشهود لها بالخير ولم يكن زمن من هذه الأزمنة إلى زماننا إلا وقد زاد فيه غربة الإسلام وقوة الشرك والآثام إلى أن فني في هذا العصر أكثره ولم يبق منه إلا الاسم والرسم. وصار الملك تحت أيدي غير الإسلام، وصار علماء المسلمين اليوم يجادلون فيما بينهم، ولا يرفعون رأساً إلى من سواهم، حتى يردوا عليهم، أو يُقَوُّوا ما درس من الملة، بل همتهم النقض على أبناء جنسهم، بمجرد كونهم من أهل الاتباع، خارجين عن تقليد الإمام أبي حنيفة مثلاً.

هدم الطواغيت

وأما هدم الطواغيت فكان هذا الفعل من سلف هذه الأمة على الوجه النافذ حتى إنك ترى آثارهم باقية إلى الآن. وكم هدم ملوك الإسلام من معابد الهنود واليهود وبنوا هناك مساجد، وكم قلعوا منصة التعزية وخرقوا الضرائح القرطاسية

---

(١) رواه ابن أبي شيبة (٢٥٦٤٨)، وعبدالرزاق في «المصنف» (١٩٨٠٥)، والبيهقي (١٦٥١٤)، والخرائطي في «مساوئ الأخلاق» (٧٣٩) عن ابن عباس موقوفاً.
وأخرجه الطبراني في «الكبير» (١٠٩٨٠)، وابن الأعرابي في «معجمه» (١٦٨٤) عن ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعاً.

(٢) انظر التخريج السابق.

وجعلوا مكانها مدارس العلم بخلوص النية، وكم محوا نصباً وأحجاراً وكسروا أوثاناً وأصناماً وجعلوها مكاناً لعبادة الله ودروس العلم.

وأما الآن فكم من مسجد يُهدم أو يُهان ويُبنى مكانه بِيَع وصوامع بلا نكير من إنسان، فهذا كله من آثار حكم الأئمة المضلين، وسطوة الفرق الضالين، والله أعلم بما سيكون بعد هذا، وأين مَن يستطيع أن يقول عند ذلك: مَن ذا؟ وماذا؟

آية المحبة

قال تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [سورة آل عمران: ٣١]، وهذه تسمى آية المحبة. قال بعض السلف: ادعى قوم محبة الله فأنزل الله آية المحبة. يعني إشارة إلى دليل المحبة وثمرتها وفائدتها فدليلها وعلامتها اتباع الرسول ﷺ وفائدتها وثمرتها محبة المرسل فما لم تحصل المتابعة فلا محبتكم له حاصلة ومحبته لكم منتفية.

حقيقة المحبة والأسباب الجالبة لها

وأجمع ما قيل في ذلك ما ذكره أبو بكر الكناني عن جنيد البغدادي أنه قال: عبد ذاهب عن نفسه متصل بذكر ربه قائم بأداء حقوقه ناظر إليه بقلبه فإن تكلم فبالله وإن نطق فعن الله وإن تحرك فبأمر الله وإن سكن فمع الله فهو بالله وعن الله ومع الله. وذكر الأسباب الجالبة للمحبة عشرة:

إحداها: قراءة القرآن بالتدبر والتفهم لمعانيه وما أريد به.

الثاني: التقرب إلى الله تعالى بالنوافل بعد الفرائض.

الثالث: دوام ذكره على كل حال باللسان والقلب والعمل والحال فنصيبه من المحبة على قدر هذا.

الرابع: إيثار محابه على محابك عند غلبات الهوى.

الخامس: مطالعة القلب لأسمائه وصفاته ومشاهدتها وتقلبه في رياض المعرفة وميادينها.

السادس: مشاهدة بره وإحسانه ونعمه الظاهرة والباطنة.

السابع: وهي أعجبها: انكسار القلب بين يدي الله.

الثامن: الخلوة وقت النزول الإلهي وتلاوة كتابه ثم ختم ذلك بالاستغفار والتوبة.

التاسع: مجالسة المحبين الصادقين والتقاط أطايب كلامهم ولا يتكلم إلا إذا ترجحت مصلحة الكلام، وعلم أن فيه مزيداً لحاله، ومنفعة لغيره.

العاشر: مباعدة كل سبب يحول بين القلب وبين الله عز وجل فمن هذه الأسباب العشرة يصل المحبوب إلى منازل المحبة ويدخل على الحبيب. انتهى.
وبالجملة: فالآية الشريفة المذكورة كما ترشد إلى إيثار المحبة لله تعالى على جميع ما سواه فهكذا تدل على أن محبة ما سواه شرك لا يصح إيمان أحد حتى يبعد عنه ويحصر محبته فيه سبحانه وتعالى.

المحبة الشركية ومحبة الله وأولياؤه

وأما المحبة الشركية فقليلها وكثيرها ينافي صدق محبة الله ومحبة رسوله ﷺ. فمن علامات هذه المحبة أن يحب الله ويكره ما يكره الله، ويؤثر مرضاته على ما سواه، ويسعى فيما يرضاه ما استطاع، ويبعد عما حرمه الله ويكرهه أشد الكراهة، ويتابع رسوله في كل ما يأتي به ويذر ويمتثل أمره ويترك ما نهى عنه، كما قال تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [سورة النساء: ٨٠] فإن محبة الرسول من لوازم محبة الله، فمن أحب الله وأطاعه أحب الرسول وأطاعه، ومن لا فلا، كما في آية المحبة ونظائرها وبالله التوفيق.

ومحبة الله تعالى تستلزم محبة طاعته، ومن لازم المحبة محبة أهل طاعته كمحبة الأنبياء والرسل والصالحين من عباده، وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «أَحِبَّ لله، وَأَبْغِضْ لله، وَعَادِ فِي الله، وَوَالِ فِي الله، فَإِنَّهُ لَا تُنَالُ وِلَايَةُ الله إِلَّا بِذَلِكَ، وَلَا يَجِدُ رَجُلٌ طَعْمَ الإِيمَانِ وَإِنْ كَثُرَتْ صَلَاتُهُ وَصِيَامُهُ حَتَّى يَكُونَ كَذَلِكَ، وَقَدْ صَارَتْ مُواخَاةُ النَّاسِ اليَوْمَ فِي أَمْرِ الدُّنْيَا، وَذَلِكَ مَا لَا يُجْزِئُ عَنْ أَهْلِهِ شَيْئًا يَوْمَ القِيَامَةِ»[١]. ولأحمد والطبراني[٢] عن النبي ﷺ قال: «لَا يَحِقُّ العَبْدُ حَقَّ صَرِيحِ الإِيمَانِ حَتَّى يُحِبَّ فِي اللهِ وَيُبْغِضَ فِي اللهِ فَإِذَا أَحَبَّ للهِ وَأَبْغَضَ للهِ فَقَدِ اسْتَحَقَّ الوَلَاءَ مِنَ اللهِ»، وفي حديث آخر: «أَوْثَقُ عُرَى الإِيمَانِ أَنْ تُحِبَّ فِي اللهِ وَتُبْغِضَ فِي اللهِ عَزَّ وَجَلَّ» رواه الطبراني[٣].

المقارنة بين المحبة في الله والمحبة لأجل الدنيا

ذكر المصنف كلاماً للشوكاني حول المحبة ومنه: فالحاصل أن بكاء الأب على ولده بكاء على فوت دنياه الآجلة، وبكاء الولد على والده بكاء لدنياه العاجلة. ومن أنكر هذا وكرر النظر فيه وأحصنه فإنه يجده صحيحاً.

كذلك محبة الزوج لزوجته ليست إلا لما يناله منها من اللذات الدنيوية فلو أُصيبت بمصيبة أذهبت ما يدعوه إلى محبتها من جمال أو كمال وحسن تدبير في

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة (٣٤٧٧٠)، وابن المبارك في «الزهد» (٣٥٣)، والبيهقي في «الشعب» (٩٠٦٩)، وابن أبي الدنيا في «الإخوان» (٢٢).

(٢) رواه أحمد (١٥٥٤٩) من حديث عمرو بن الجموح، وذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٣٠٣)، وقال: فيه رشدين بن سعد، وهو منقطع ضعيف.

ورواه الطبراني في «الكبير» من حديث عمرو بن الحمق، كما في «مجمع الزوائد» (٣٠٤)، وقال: فيه رشدين، وهو ضعيف.

(٣) رواه الطبراني (١٠٥٣١) والبيهقي (٢١٠٦٩)، وصححه الحاكم (٣٧٩٠)، وتعقبه الذهبي بقوله: ليس بصحيح.

الأمور والمعايش وحرص على مال الزوج لوجدت الزوج يسمح بها للموت ويعد ذلك من الفرح فإن تطاول عليه الأمر كان صبره عليها من أعظم المروءة، وإلا فالغالب تطليقها فإن أحبها في تلك الحالة لكونها ذات أولاد فذلك يرجع إلى الدنيا.

وكذلك الزوجة مثله فيما سلف وكذلك المحبة بين الأجانب هي: عند التحقيق راجعة جميعها إلى غرض دنيوي وقد كشف هذا المعنى حكيم الشعراء أبو الطيب المتنبي حيث قال:

كُلَّ دَمعٍ يَسيلُ مِنها عَلَيها ... وَبِفَكِّ اليَدَينِ مِنها تَخَلَّى

ثم قال: فإن قلت: صور لي صورة يصدق في مثلها الحديث.

قلت: يصدق ذلك في مثل رجلين متحابين بمحض غرض أخروي كمن يتحابان لكونهما يجتمعان على الجهاد في سبيل الله أو الاجتماع على طلب العلم مع خلوص النية وحسن الطوية والتجرد عن كل غرض فاسد. فيحب كل واحد منهما الآخر لكونه يستوجب بعمله الجنة كذلك سائر الطاعات. أهـ.

وأقول: ملخص القول في هذا الباب أن محبة الأموات الصلحاء من الأنبياء والأولياء والآل والأصحاب والعلماء والحفاظ والقراء ومن له فضيلة دينية ومزية شرعية من وادي محبة الله لكونه يحبهم لوجه الله وفي الله ولله. وأظن الغرض الدنيوي في هؤلاء مفقود لأن الموت يقطع العمل والأمل. ومحبة الأحياء من الأزواج والأولاد والأقارب والأجانب مظنة للغرض الدنيوي. فمن أحب أحداً لذلك فليس له من الإخلاص شيء ومن أحب واحداً لأجل الله ولكونه عبداً مطيعاً لله فهذا من حب الله وعليه يترتب الأجر الموعود إن شاء الله تعالى. والمرء مع من أحب. والذي ينبغي لكل موحد، مسلم مؤمن صادق، أن يجعل حبه كله لله وفي الله.

فصل: من أبواب الشرك الرياء

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله: هو مشتق من الرؤية، والمراد به إظهار العبادة لقصد رؤية الناس لها، فيحمدون صاحبها، والفرق بينه وبين السمعة أن الرياء لما يرى من العمل كالصلاة والسمعة لما يسمع كالقراءة والوعظ والذكر ويدخل في ذلك التحدث بما عمله [وأشمل وأخصر من ذلك أن الرياء ما رُؤِي بالعين من عمل العبادة والسمعة ما سمع بالأذن من الأقوال في ذلك].

قال تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾﴾ [سورة الكهف: ١١٠] في الآية النهي والتحذير عن الرياء في العمل لأن العمل الصالح هو الذي ليس فيه رياء ولا سمعة والنكرة في سياق النفي تعم وهذا العموم يتناول الأنبياء والملائكة والصالحين وغيرهم.

قال في «فتح المجيد» وفي الآية دليل على أن أصل الدين الذي بعث الله به رسول الله ﷺ والمرسلين قبله هو إفراد الله تعالى بأنواع العبادة كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾ [سورة الأنبياء: ٢٥].

والمخالف لهذا الأصل الثابت من هذه الآية أقسام:

إما طاغوت ينازع الله في ربوبيته وإلهيته ويدعو الناس إلى عبادته، أو طاغوت يدعو الناس إلى عبادة الأوثان، أو مشرك يدعو غير الله ويتقرب إليه بأنواع العبادة أو بعضها، أو شاك في التوحيد أهو حق؟ أم يجوز أن يجعل لله شريكاً في عبادته أو جاهل يعتقد أن الشرك دين يقرب إلى الله.

قال: وهذا الغالب على أكثر العوام لجهلهم وتقليدهم من قبلهم لما اشتدت غربة الإسلام ونسي العلم بدين المرسلين. انتهى.

طلب الجاه من الرياء

أقول: ومن أنواع الرياء والسمعة الشركية طلب الجاه عند أولي الأمر وعلماء الزمان ومشايخ الوقت والاشتغال بالتأليف في الفروع ودعوى التجديد والاجتهاد في العلوم مع عدم البلوغ إلى ذلك المقام، بقبول الفحول الأعلام، وفقدان أسبابها والرد على أفضل منه للشهرة بين الجهلة وتحرير الجواب ليعتقد الناس فيه أنه عالم كبير. ولا يدري هذا المسكين أن المقلد لا يكون عالماً أبداً فضلاً عن أن يكون مجدداً ومجتهداً.

وأما من لم يرد الجاه ولم يحب الشهرة لكن طال ثناؤه من الناس على عمل وكان صالحاً فهذا نعمة من الله عليه. وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً: **«قَالَ تَعَالَى: أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِي غَيْرِي تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ»** رواه مسلم[1].

قال ابن القيم: ولا خلاف في أن الإخلاص شرط لصحة العمل وقبوله وكذلك المتابعة كما قال الفضيل بن عياض رحمه الله في قوله تعالى: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [سورة المُلك: ٢]: أي أخلصه وأصوبه. قيل: يا أبا علي ما أخلصه وأصوبه؟ قال: إن العمل إذا كان خالصاً ولم يكن صواباً لم يقبل وإذا كان صواباً ولم يكن خالصاً لم يقبل حتى يكون خالصاً صواباً فالخالص ما كان لله والصواب ما كان على السنة انتهى. وما أجمع هذا القول من هذا الفاضل العارف وأنفعه وأخصره وأحقه بأن تعيه أذن واعية.

من الشرك إرادة الإنسان بعمله الدنيا

وهذا يفارق الرياء بكونه عملاً صالحاً أراد به عرضاً من الدنيا كمن يجاهد

---

(١) رواه مسلم (٢٩٨٥) وابن ماجة (٤٢٠٢) وأحمد (٧٩٩٩).

ليأخذ مالاً. قال تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾﴾ [سورة هود: ١٥]، قال ابن عباس رضي الله عنهما: يعني من كان يريد ثواب الدنيا ومالها نوف لهم ثواب عملهم بالصحة والسرور في المال والأهل والولد وهم لا ينقصون. ثم نسخها قوله تعالى: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ﴾ [سورة الإسراء: ١٨]، رواه النحاس في ناسخه. ومعنى قوله: نسخها: قيدها فلم تبق الآية على إطلاقها. وقال قتادة: يقول: من كانت الدنيا همه ونيته وطلبه جازاه الله بحسناته في الدنيا ثم يقضى إلى الآخرة وليس له حسنة يعطى بها جزاءً. وأما المؤمن فيجازى بحسناته في الدنيا ويثاب عليها في الآخرة ذكره ابن جرير بسنده ثم ساق حديث أبي هريرة الطويل وفيه: حدثني رسول الله ﷺ أن الله تبارك وتعالى إذا كان يوم القيامة نزل إلى أهل القيامة ليقضي بينهم وكل أمة جاثية. فأول من يدعو به رجل جمع القرآن ورجل قتل في سبيل الله ورجل كثير المال. فيقول الله للقارئ: ألم أعلمك ما أنزلت على رسولي؟ قال: بلى يا رب. قال: فماذا عملت فيما علمت؟ قال: كنت أقوم آناء الليل وآناء النهار. فيقول الله: كذبت. وتقول الملائكة: كذبت. ويقول الله: (بل أردت أن يقال فلان قارئ وقد قيل ويؤتى بالذي قاتل في سبيل الله فيقال له: في ماذا قتلت؟ فيقول: أمرت بالجهاد في سبيلك فقاتلت حتى قتلت. فيقول الله له: كذبت. وتقول له الملائكة: كذبت. ويقول الله له: بل أردت أن يقال: فلان جريء وقد قيل ذلك) ثم ضرب رسول الله ﷺ على ركبتي فقال يا أبا هريرة أولئك الثلاثة أول خلق الله تسعر بهم يوم القيامة النار.

وَعَنْ أَنَسٍ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «مَنْ كَانَت نِيَّتُهُ طَلَبَ الآخِرَةِ جَعَلَ اللهُ غِنَاهُ فِي قَلْبِهِ وَجَمَعَ لَهُ شَمْلَهُ وَأَتَتْهُ الدُّنْيَا وَهِيَ رَاغِمَةٌ. وَمَنْ كَانَتِ نِيَّتُهُ طَلَبَ الدُّنْيَا جَعَلَ اللهُ

الفَقْرَ بَيْنَ عَيْنَيْهِ وَشَتَّتَ عَلَيْهِ أَمْرَهُ وَلَا يَأْتِهِ مِنْهَا إِلَّا مَا كُتِبَ لَهُ» رواه الترمذي[١]، ورواه أحمد والدارمي عن أبان عن زيد بن ثابت[٢]. وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يَخْرُجُ فِي آخِرِ الزَّمَانِ رِجَالٌ يَخْتِلُونَ الدُّنْيَا بِالدِّينِ يَلْبَسُونَ لِلنَّاسِ جُلُودَ الضَّأْنِ مِنَ اللِّينِ أَلْسِنَتُهُمْ أَحْلَى مِنَ السُّكَّرِ وَقُلُوبُهُمْ قُلُوبُ الذِّئَابِ يَقُولُ اللهُ: أَبِي يَغْتَرُّونَ أَمْ عَلَيَّ يَجْتَرِئُونَ؟ فَبِي حَلَفْتُ لَأَبْعَثَنَّ عَلَى أُولَئِكَ مِنْهُمْ فِتْنَةً تَدَعُ الحَلِيمَ مِنْهُمْ حَيْرَانًا» رواه الترمذي[٣] وفي الباب أحاديث. ومعنى يختلون: يخادعون ويطلبون. وهذا الحديث علم من أعلام النبوة فقد وقع كما أخبر ﷺ وقد أخبر قبل ذلك عز وجل فقال: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَـٰطِلِ﴾ الآية [سورة التوبة: ٣٤]. ففي هذه الآية الشريفة أن هؤلاء أرادوا بعملهم الدنيا وهذا هو الشرك لأن كل عمل وعلم لم يقصد به وجه الله وأريد به متاع الدنيا ورضاء أهلها فهو من الشرك بمكان لا يخفى. أعاذنا الله من ذلك. وقال بعض أهل العلم: ذكر السلف في هذا أنواعاً مما يفعله الناس ولا يعرفون معناه فمن ذلك العمل الصالح الذي يفعله كثير من الناس ابتغاء وجه الله من صدقة وصلاة وصلة وإحسان إلى الناس وترك ظلم وجور ونحو ذلك مما يعمله الإنسان ويتركه خالصاً لله في زعمه.

لكنه لا يريد ثوابه في الآخرة إنما يريد أن يجازيه الله بحفظه ماله وتنميته أو حفظ أهله وعياله أو إدامة النعم عليهم ولا همة له في رضى الله ولا في طلب الجنة ولا في الهرب من النار. فهذا يعطى ثواب عمله في الدنيا وليس له في الآخرة من

---

(١) رواه الترمذي (٢٤٦٥) والطبراني في «الأوسط» (٥٩٩٠) والبيهقي في «الشعب» (٩٨٥٨)، وصححه الألباني.

(٢) رواه أحمد (٢١٥٩٠) والدارمي (٢٣٥)، وابن ماجه (٤١٠٥)، وصححه الألباني.

(٣) رواه الترمذي (٢٤٠٤) وابن المبارك في «الزهد» (٥٠)، وقال الألباني: ضعيف جداً.

نصيب وهذا النوع ذكره ابن عباس.

الثاني: وهو أكبر من الأول وأخوف وهو الذي ذكره مجاهد في الآية أنها نزلت فيه وهو أن يعمل أعمالاً صالحة ونيته رياء الناس لا طلب ثواب الآخرة.

الثالث: أن يعمل عملاً صالحاً يقصد به مالاً مثل أن يحج لمال يأخذه أو يهاجر لدنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها أو يجاهد لأجل المغنم أو يتعلم لأجل مدرسة أهله أو مكسبهم أو رياستهم أو يتعلم القرآن ويواظب على الصلاة لأجل وظيفة المسجد كما هو واقع كثير مشاهد في الناس.

الرابع: أن يعمل بطاعة الله مخلصاً في ذلك لله وحده لا شريك له لكنه على عمل يكفر كفراً يخرجه من الملة مثل اليهود والنصارى إذا عبدوا الله أو تصدقوا أو صاموا ابتغاء وجه الله والدار الآخرة ومثل كثير من الذين فيهم كفر أو شرك أو رياء وسمعة يخرجهم من الإسلام بالكلية إذا أطاعوا الله طاعة خالصة يريدون بها ثواب الله في الدار الآخرة لكنهم على أعمال من الشركيات والبدعيات وفساد الاعتقاد تخرجهم من دائرة الإسلام والنور وتدخلهم في الظلمات والديجور وتمنع قبول أعمالهم. وكان السلف يخافون من هذا أشد الخوف فقال بعضهم: لو أعلم أن الله تقبل مني سجدة واحدة لتمنيت الموت لأن الله يقول: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾﴾ [سورة المائدة: ٢٧].

بقي أن يقال: إذا عمل الرجل الصلوات الخمس وأدى الزكاة وصام وحج ابتغاء مرضاة الله طالباً ثواب الآخرة ثم بعد ذلك عمل أعمالاً قصد بها الدنيا مثل أن يحج فرضه ثم يحج بعده للدنيا كما هو واقع فهو لما غلب عليه منهما. وقد قال بعض العلماء: القرآن كثيراً ما يذكر أهل الجنة الخلص وأهل النار الخلص ويسكت عن صاحب الشائبتين وهو هذا وأمثاله. انتهى.

من هو عبد الله الحقيقي

قال الرسول ﷺ: «تَعِسَ عَبْدُ الدِّينَارِ تَعِسَ عَبْدُ الدِّرْهَمِ... » إلخ[1] وهذا هو عبد لهذه الأمور ولو طلبها من الله فإن الله إذ أعطاه إياها رضي وإن منعه إياها سخط.

وإنما عبد الله من يرضيه ما يرضي الله ويسخطه ما يسخط الله ويحب ما يحبه الله ورسوله ويبغض ما يبغضه الله ورسوله ويوالي أولياء الله ويعادي أعداء الله فهذا الذي استكمل الإيمان. انتهى ملخصاً وقد تصدى صاحب «فتح المجيد» لشرح باقي هذا الحديث فراجعه فإنه ليس في ذكره هنا مزيد فائدة.

العلم لا يؤخذ قسراً

فمن تدبر القرآن ورزق فهمه صار على بصيرة من دينه والقرآن الشريف لا يؤخذ قسراً وإنما يؤخذ بأسباب ذكرها بعض الأعلام في قوله:

أَخِي لَن تَنالَ العِلْمَ إِلَّا بِسِتَّةٍ: ... سَأُنْبِيكَ عَنْ تَفْصِيلِها بِبَيَانِ
ذَكَاءٌ وَحِرصٌ وَاجْتِهادٌ وَبُلْغَةٌ ... وَإِرْشَادُ أُسْتاذٍ وَطُولُ زَمانِ

وأعظم من هذه الستة من رزقه الله الفهم والحفظ وأتعب نفسه في تحصيله فهو الموفق لمن شاء من عباده كما قال تعالى: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴿١١٣﴾﴾ [سورة النساء: ١١٣]، وما أحسن ما قاله العلامة ابن القيم في نونيته.

والجَهلُ دَاءٌ قَاتِلٌ وَشِفاؤُهُ ... أَمرانِ في التَّركِيبِ مُتَّفِقانِ
نَصٌّ مِنَ القُرآنِ أَو مِنْ سُنَّةٍ ... وَطَبِيبُ ذَاكَ العَالِمُ الرَّبَّاني
والعِلْمُ أَقْسامٌ ثَلاثٌ مَا لَهَا ... مِن رَابِعٍ وَالحَقُّ ذُو تِبيانِ

---

(١) رواه البخاري (٢٨٨٦) وابن ماجة (٤١٣٥).

عِلْمٌ بِأَوْصافِ الإِلَهِ وَفِعْلِهِ ... وَكَذلِكَ الأَسماءُ للرَّحمَن
وَالأَمْرُ وَالنَّهْيُ الَّذي هُوَ دِيْنُهُ ... وَجزاؤُهُ يَومَ المِعادِ الثّاني
وَالكُلَّ في القُرآنِ والسُّنَنِ الَّتي ... جَاءَتْ عَن المَبْعُوثِ بِالقُرآنِ
وَالله مَا قَالَ امْرُؤٌ مُتَحَذْلِقٌ ... بِسِواهُما إِلَّا مِنَ الهَذَيانِ

ويدل لما في هذه الأبيات حديث النبي ﷺ: «**العِلْمُ ثَلَاثَةٌ: آيَةٌ مُحْكَمَةٌ أَوْ سُنَّةٌ قَائِمَةٌ أَوْ فَرِيضَةٌ عَادِلَةٌ وَمَا سِوَى ذَلِكَ فَهُوَ فَضْلٌ**»[1]. والمراد بالفضل زيادة لا حاجة إليها، ولكنْ أكثرَ الناسُ في هذه الزيادة حتى أخذوا الزيادة والفضول وتركوا الأصول وكان أمر الله قدراً مقدوراً.

إنكار نعمة الله من الشرك

قال بعض أهل العلم في قوله تعالى: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا﴾ [سورة النحل: ٨٣]، معنى ذلك أن الكفار إذا قيل لهم من رزقكم؟ أقروا بأن الله هو الرازق، وهو الذي رزقهم، ثم ينكرون ذلك بقولهم: رُزقنا ذلك بشفاعة آلهتنا. وروي نحو هذا عن ابن قتيبة، وقيل: معنى ذلك أن يقول الرجل: لولا فلان ما كان كذا وكذا، ولولا فلان ما أصبت كذا وكذا. واختار ابن جرير هذا القول، وغيره اختار أن الآية تعم ما ذكره العلماء في معناها وغيره. وهو الصواب، ويدخل هذا فيها دخولاً أولياً.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: وهذا كثير في الكتاب والسنة يذم سبحانه من يضيف إنعامه إلى غيره ويشرك به فيه. قال بعض السلف: هو كقولهم: كانت الريح طيبة، وكان الملاح حاذقاً ونحو ذلك مما هو جار على ألسنة كثير من

---

(١) رواه أبو داود (٢٨٨٥) وابن ماجة (٥٤) والحاكم (٧٩٤٩)، وضعفه الذهبي في «تلخيص المستدرك»، والألباني في «ضعيف سنن أبي داود».

الناس. انتهى. فهذا الكلام من شيخ الإسلام يدل على أن حكم هذه الآية يعم فيمن نسب نِعم الله تعالى -أي نعمة كانت قليلة أو كثيرة- إلى غيره تعالى.

للإسلام أصلان

وحاصل الكلام هنا أن كل سبيل يخالف سبيل الله ورسوله للذين هما عبارتان عن اتباع الكتاب والسنة واقتداء بالقرآن والحديث. فإنه سبيل النار وعليه شيطان ظاهر أو خفيٌّ يدعو إليها. ومعيار ذلك عرض المجتهدات والقياسات من كل مذهب مسمى بأي اسم مما اشتهر أو لم يشتهر على هذين الأصلين اللذين لا ثالث لهما فضلاً عن الرابع فما وافق منها صرائح الكتاب والسنة وظواهر القرآن والحديث (ومفهومات القرآن والسنة وما تشمله قواعدهما) فهو الحقيق بالأخذ والاتباع والاهتداء والاقتداء. وما خالفها فهو رد على صاحبه مضروب به في وجهه كائناً من كان وفي أي محل من الأرض أقام.

قال تعالى: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ ﴾ أي يجعلوك حكماً بينهم في جميع أمورهم لا يحكمون أحداً غيرك. ﴿فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ أي اختلفوا فيه واختلط أمره عليهم ﴿ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ﴾ الحرج الضيق وقيل الشك وقيل الإثم والأول أظهر ﴿وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾ [سورة النساء: ٦٥]، والظاهر أن هذا شامل لكل فرد في كل حكم كما يؤيد ذلك قوله تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ [سورة النساء: ٦٤]، فلا يختص بالمقصودين بقوله: ﴿يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ﴾ [سورة النساء: ٦٠]، وهذا في حياته ﷺ، وأما بعد مماته فتحكيم الكتاب والسنة تحكيم الحاكم بما فيها من الأئمة والقضاة إذا كان لا يحكم بالرأي المجرد مع وجود الدليل في القرآن

والحديث أو في أحدهما وكان يعقل ما يرد عليه من حجج الكتاب والسنة.

ذم الابتداع في الدين

عَنْ عَائِشَةَ رَضِي اللهُ عَنْهَا قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ فِيهِ فَهُوَ رَدٌّ**» متفق عليه[(١)]. قال بعض أهل العلم في وصف الأمر: بهذا إشارة إلى أن الإسلام كمل واشتهر. فمن رام الزيادة عليه فقد حاول أمراً غير مرضي. انتهى. وفي رواية أخرى بلفظ: «**مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ**» متفق عليه من حديثها[(٢)]. ولأحمد[(٣)]: «**مَنْ صَنَعَ أَمْرًا عَلَى غَيْرِ أَمْرِنَا فَهُوَ مَرْدُودٌ**» وهذا الحديث من قواعد الدين لأنه يندرج تحته من الأحكام ما لا يأتي عليه الحصر. وما أصرحه وأدله على إبطال ما فعله الفقهاء من تقسيم البدع إلى أقسام وتخصيص الرّد ببعضها بلا مخصص من عقل ولا نقل. فعليك: إذا سمعت من يقول: هذه بدعة حسنة: بالقيام في مقام المنع مسنداً له بهذه الكلية وما يشابهها من نحو قوله ﷺ: «**كُلُّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ**»[(٤)].

الرد على من قسم البدعة إلى حسنة وسيئة

وأقول: في هذا الكلام[(٥)] نظر من وجوه:

---

(١) رواه البخاري (٢٦٩٧) ومسلم (١٧١٨) وأبو داود (٤٦٠٦) وابن ماجة (١٤) وأحمد (٢٦٠٣٣).

(٢) رواه البخاري (٢٦٩٧) ومسلم (١٧١٨) وأبو داود (٤٦٠٦) وابن ماجة (١٤) وأحمد (٢٥١٢٨)، من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٣) رواه أحمد (٢٤٤٥٠).

(٤) رواه مسلم (٨٦٧) والنسائي (١٥٧٨) وابن ماجة (٤٥) وأحمد (١٤٣٣٤) والدارمي (٢١٢).

(٥) أي الكلام الذي نقله المصنف عمن قسم البدعة إلى قسمين: حسنة وسيئة. أو قسمها إلى خمسة أقسام تتفق مع الأحكام الخمسة، فمنها ما هو واجب، ومستحب، ومندوب، ومكروه، ومحرم.

الأول: أن قوله ﷺ: «**كُلُّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ**»[1] كلية عامة شاملة لكل بدعة أي بدعة كانت حسنة أو سيئة، ولا يصح حمله على القسمة إلا بدليل يساوي هذا النص أو يقدم عليه ولا دليل.

الثاني: أن قسمة البدع إليها قول جمع من الفقهاء، وقد خالفهم جمع آخر من أهل الحديث والفقه والسلوك، واستدلوا بهذا الحديث وعمومه، وقالوا: لم يرد في حديث صحيح ولا ضعيف ما يصلح للتخصيص، ولا ملجئ إلى صرف ظاهر النص.

وَهَـذا الحَـقُّ لَـيسَ بِـهِ خَفَـاءُ فَـدَعنِي عَـنْ بُنَيَّـاتِ الطَّرِيـقِ

الثالث: الذي جعلوه أقساماً للبدعة منها ما هو ليس ببدعة في الحقيقة فلا معارضة بينه وبين هذا الحديث. ومنها: ما هو في حكم السنة بعموم الأدلة. ومنها: ما هو على أصل الإباحة والبراءة الأصلية كما صرح بذلك في «إيضاح الحق الصريح».

الرابع: أن هذا الحديث من أحاديث «صحيح مسلم» وهو أرجح من أحاديث غيره إلا البخاري، فلا يصح معارضته بروايات أخرى على أي حال.

الخامس: أن في حديث الباب بِشَرِّيَّة الأمور المحدثات، وليس في الشر خير ولا حسن، والمحدث يعم البدع الاعتقادية والفعلية.

السادس: أن الحكم بالضلالة على كل بدعة ينادى بأعلى صوت أنه ليس فيها هدى أصلاً والضلالة لا يكون فيها الحسن. وبالجملة الحديث على إطلاقه فلم يرح رائحة التخصيص ويزيده إيضاحاً حديث عائشة المتقدم وما ورد في معناه من الأحاديث الدالة على ذم البدع وأهلها [وردها]، وكون كل ضلالة في النار، وكل ما هو في النار لا يكون من الإسلام في صَدَرٍ ولا وِرْدٍ.

---

(١) رواه مسلم (٨٦٧) وغيره كما تقدم آنفاً.

النهي عن توقير المبتدعة

وعن إبراهيم بن ميسرة يرفعه: «مَنْ وَقَّرَ صَاحِبَ بِدْعَةٍ فَقَدْ أَعَانَ عَلَى هَدْمِ الإِسْلَامِ» رواه البيهقي في شعب الإيمان مرسلاً(١). والحديث يعم كل صاحب بدعة سواء كانت البدعة صغيرة أو كبيرة حسنة عند من يقول بها أو سيئة عند من لا يقيمها. وبالجملة فالبدعة نقيض السنة والمبتدع ضد السني وفي توقير أحدهما تنقيض بالآخر. وقد أخبرنا رسول الله ﷺ عن حال البدع وحال أصحابها وحذرنا منها وأرشدنا إلى اتباع الكتاب والسنة فكان هذا علم من أعلام النبوة. ولكن تهاون الناس في ذلك وظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس. فانعكست القضية إلى أن صارت السنة بدعة والبدعة سنة والمعروف منكراً والمنكر معروفاً وعاد الإسلام غريباً بموت العلماء بالسنن، وظهور الجهل والفتن، حتى أنهم يتعجبون ممن يعمل بالسنة ويترك التقليد، ويرونه مبتدعاً في زعمهم الباطل، ويرمونه بكل حجر ومدر، وكان أمر الله قدراً مقدوراً.

ومما يدل على مزيد الاهتمام بشأن السنة واتباعها. حديث ابن عمرقال قال رسول الله ﷺ: «بَلِّغُوا عَنِّي وَلَوْ آيَةً وَمَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّدًا فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ» رواه البخاري(٢). وحديث ابن مسعود رضي الله عنه يرفعه: «نَضَّرَ اللهُ عَبْدًا سَمِعَ مَقَالَتِي فَحَفِظَهَا وَوَعَاهَا وَأَدَّاهَا» الحديث(٣). وفي حديث آخر عنه سمعت رسول الله ﷺ يقول: «نَضَّرَ اللهُ امْرَأً سَمِعَ مِنَّا شَيْئًا فَبَلَّغَهُ كَمَا سَمِعَ، فَرُبَّ مُبَلَّغٍ أَوْعَى مِنْ سَامِعٍ»(٤) أي أحفظ للحديث وأفهم وأتقن له.

---

(١) رواه البيهقي في «شعب الإيمان» (٩١٤٤) واللالكائي في «أصول الاعتقاد» (٢٧٣).

(٢) رواه البخاري (٣٤٦١) والترمذي (٢٦٦٩) وأحمد (٦٤٨٦) والدارمي (٥٥٩).

(٣) رواه الترمذي (٢٦٥٨)، وصححه الألباني.

(٤) رواه الترمذي (٢٦٥٧) وابن ماجة (٢٣٢) وأحمد (٤١٥٧)، وصححه ابن حبان (٦٦-٦٨).

المؤمنون حقاً المقيمون الصلاة والمنفقون من أموالهم

قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أي المفروضة المكتوبة بحدودها وأركانها في أوقاتها المضروبة لها مع رواتبها من السنن الثابتة ويدخل فيها النوافل ﴿وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ۝٣﴾ [سورة الأنفال: ٣] يدخل فيه: الزكاة والحج والجهاد وغير ذلك من الإنفاق في أنواع البر ووجوه القربات وأسباب الخيرات وإنما خص الصلاة والزكاة لكونهما أصل الخير ورأس البر ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ المتصفون بهذه الأوصاف ﴿هُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ حَقّٗاۚ﴾ أي الكاملو الإيمان البالغون فيه إلى أعلى درجاته وأقصى غاياته يقيناً لا شك في إيمانهم وصدقاً لا ريب في إيقانهم وإذعانهم. قال ابن عباس: برئوا من الكفر وخلصوا.

وقد استدل بظاهر هذه الآية الإمام أبو حنيفة رحمه الله ومن قال بقوله أنه يجوز أن يقول أنا مؤمن حقاً ولا يجوز الاستثناء وأجيب عنه بأن الاستثناء ليس على طريق الشك بل للتبرك كقوله: «وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللهُ بِكُمْ لَاحِقُونَ»[1] مع العلم القطعي أنه لاحق بهم والمراد صرف الاستثناء إلى الخاتمة وإنما حكم بكونهم مؤمنين حقاً في هذه الآية إذا أتوا بتلك الأوصاف الخمسة كما يفيده لفظ إنما لأنه للحصر ﴿لَّهُمۡ دَرَجَٰتٌ﴾ يعني فضائل ورحمة، وقيل: أعمال رخيصة أو الجنة أو منازل كرامة وشرف في الجنة كائنة ﴿عِندَ رَبِّهِمۡ﴾ وفي كونها عنده زيادة تشريف لهم وتكريم ﴿وَمَغۡفِرَةٞ﴾ لذنوبهم صيغة الجمع تشير إلى غفران الذنوب جميعها الصغائر منها والكبائر مع التوبة ﴿وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ ۝٤﴾ [سورة الأنفال: ٤] دائم مستمر من واسع فضله وفائق جوده. قيل: أو المراد الجنة. وأقول: العبرة بعموم اللفظ لا

---

(١) رواه مسلم (٢٤٩) وأبو داود (٣٢٣٧) والنسائي (١٥٠) وابن ماجة (٤٣٠٦) وأحمد (٧٩٩٣) ومالك (٦٠).

بخصوص السبب فيدخل فيه كل نعمة وفضل الله أوسع من ذلك.

مراتب الطاعة والعبادة

الطاعة والعبادة لها مراتب ثلاثة:

أحدها: الإتيان على قدر ما يبرئ الذمة من أداء الواجب حتى لا يحتاج إلى قضائه.

الثاني: أن يأتي بأحكامها وأركانها وشروطها وآدابها الموجبة لحصول الرضى وترتب الثواب الجزيل عليها ويمتلئ الباطن أيضاً بذوق العبادة والعبودية.

وأفضل من هذا كله أن يستغرق في مشاهدة المعبود ويغيب في حضور الأقدس لأن الصلاة التي هي أفضل العبادات وأكمل القربات تحصل بها محاذاة معنوية بذاته المقدسة تعالى شأنها فيتنور الباطن بأنوارها. وهذه الكيفية لا يمكن حصولها إلا بالذوق الصحيح والقلب السليم.

وجوب تقديم محبة الرسول على محبة سائر الخلق

عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: **«لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَالِدِهِ وَوَلَدِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ»**[١].

قال في الترجمة: علامة الإيمان الكامل أن يكون رسول الله ﷺ أحب وأعظم من كل شيء ومن كل إنسان عند المؤمن حتى من الولد والوالد الذين هما أحب إليه بحكم الطبيعة والجبلة ومن سائر الخلق الذي له علاقة محبة ومودة بهم سواء كان ذلك التعلق جبلياً أو اختيارياً. قلت: وهذا الحديث أدل دليل على إيثار الاتباع وترك الابتداع، وفيه الإرشاد إلى تقديم رسول الله ﷺ على كل من سواه في كل

---

(١) رواه البخاري (١٥) ومسلم (٤٤) والنسائي (٥٠١٣) وابن ماجة (٦٧) وأحمد (١٢٨١٤) والدارمي (٢٧٨٣).

شيء من الأشياء، فانظر إلى حال المقلدين المدعين للأحبية، وهم عن تصديق دعواهم هذه على مراحل شاسعة لفوات الاتباع الكامل منهم، وكيف يتصور حب الرسول وحب غيره من الأحبار والرهبان في قلب واحد؟! بل كيف يصح تقديم قول الغير وفعله واجتهاده وقياسه [الباطل] على ما جاء به الرسول ﷺ؟! فمن اتبع سنته حق الاتباع فهو المصدق لهذا الحديث ومن سلك الشعاب وشذ عن جماعة الأصحاب فهو في الحقيقة باغض له ﷺ. وادعاؤه لمحبته فضلاً عن أحبيته كذب واضح. وقد وردت أحاديث كثيرة صحيحة في هذا الباب كلها تدل على هذا المقصود.

الاستقامة ومعناها

عَنْ سُفْيَانَ بْنِ عَبْدِالله الثَّقَفِيِّ قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ الله قُل لِي فِي الإِسْلَامِ قَوْلًا لَا أَسْأَلُ عَنْهُ أَحَدًا بَعْدَكَ -وَفِي رِوَايَةٍ: غَيْرَكَ-. قَالَ: «قُل آمَنْتُ بِاللهِ ثمَّ اسْتَقِمْ» رواه مسلم[1]. والاستقامة: هي ملازمة الإنسان للصراط السوي. والمراد بها هنا الدوام والثبات والاعتدال من دون زيغ وفتور، قال في «القاموس»: استقام الأمر إذا اعتدل. وفي قواعد الطريقة: أنها بعث النفس على أخلاق الكتاب والسنة وجعلها مرتبة معتادة بتحصيل الملكات الراسخة لها من الفضائل والفواضل، وهي مرتبة عظمى قلَّ مَن يصيبها من المسلمين، ولهذا قيل: الاستقامة فوق الكرامة. والحديث مقتبس من قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ﴾ [سورة الأحقاف: ١٣] على امتثال الأوامر واجتناب النواهي والزواجر ﴿فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ١٣﴾ [سورة الأحقاف: ١٣].

---

(١) رواه مسلم (٣٨) والترمذي (٢٤١٠) وابن ماجة (٣٩٧٢) وأحمد (١٥٤١٦) والدارمي (٢٧٥٢).

باب في ذكر الإيمان بالقدر

قال تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾﴾ [سورة القمر: ٤٩] أي خلقنا كل شيء من الأشياء متلبساً بقدر قدرناه وقضاء قضيناه في سابق علمنا مكتوب في اللوح المحفوظ قبل وقوعه. والقدر: التقدير. قال الخطابي: وقد يحسب كثير من الناس أن معنى القضاء والقدر إجبار الله العبد وقهره إياه على ما قدره وقضاه. وليس الأمر كما يتوهمونه وإنما معناه الإخبار عن تقدم علم الله بما كان وما يكون من اكتساب العباد وصدورها عن تقدير منه وخلق لها خيرها وشرها. والقدر: اسم لما صدر مقدراً عن فعل القادر. والقضاء معناه الخلق كقوله تعالى: ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ﴾ [سورة فُصِّلَت: ١٢] أي خلقهن. قلت: وهو بمعنى الحكم أيضاً.

قال النووي: إن مذهب أهل الحق إثبات القدر، ومعناه أن الله قدر المقادير من الأشياء في القدم، وعلم أنها ستقع في أوقات معلومة عنده سبحانه على صفات مخصوصة، فهي تقع على حسب ما قدرها الله. وأنكرت القدرية هذا وزعمت أنه سبحانه لم يقدرها ولم يتقدم علمه بها وأنها مستأنفة العلم أي إنما يعلمها سبحانه بعد وقوعها. وكذبوا على الله تبارك وتعالى عن أقوالهم الباطلة علواً كبيراً. انتهى.

قال في «فتح البيان»: قد تظاهرت الأدلة القطعية من الكتاب والسنة وإجماع الصحابة وأهل الحل والعقد من السلف والخلف على إثبات قدر الله وقد قرر ذلك أئمة الحديث وأهل السنة أحسن تقدير بدلائله القطعية السمعية والعقلية ليس هذا موضوع بسطها والله أعلم.

وقال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [سورة الصافات: ٩٦] (ما) موصولة أي خلق الذي تصنعونه على العموم ويدخل فيه الأصنام التي تنحتونها

دخولاً أولياً ويكون معنى العمل هنا التصوير والنحت ونحوها ويرجحه ما قبله: أي أتعبدون الذي تنحتون وقيل غير ذلك في معناها. واختار المصنف هذا القول.

الرد على القدرية والمعتزلة في أفعال العباد

والمقصود هنا في إيراد هذه الآية الرد على القدرية والمعتزلة القائلين بأن أعمال العباد مخلوقة لهم لا لله سبحانه ولا شيء أصرح من هذه الآية على هذا المراد وهي كقوله: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾﴾ [سورة القمر: ٤٩]. والآيات الأخرى تدل له كما قال تعالى: ﴿يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ الْأَمْرِ مِن شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ﴾ [سورة آل عمران: ١٥٤] أي: ليس لكم ولا لغيركم منه شيء وقال تعالى: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ﴾ [سورة الإنسان: ٣٠]، أي: الأمر إليه سبحانه لا إليكم والخير والشر بيده لا بيدكم لا مانع لما أعطى ولا معطي لما منع. فمشيئة العبد مجردة لا تأتي بخير ولا تدفع شراً وإن كان يثاب على المشيئة الصالحة ويؤجر على قصد الخير كما في حديث: «**إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى**»[1] والآية الشريفة حجة على المعتزلة والقدرية النفاة لمشيئة الله المثبتة لمشيئة العباد وما أجهلهم بكلام الله وكلام رسوله وأبعدهم عن مدارك الشرع وفهم الكتاب والسنة. وقال تعالى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾ [سورة الأنفال: ٢٤]، قال ابن جرير: هذا إخبار من الله عز وجل بأنه أملك لقلوب عباده منهم وأنه يحول بينهم وبين أفئدتهم إذا شاء حتى لا يدرك الإنسان شيئاً إلا بمشيئة الله عز وجل. قال ابن عباس: يحول بين المؤمن وبين الكفر ومعاصي الله وبين الكافر وبين الإيمان بالله. وقال: السدي: يحول بين الإنسان وقلبه فلا يستطيع أن يؤمن أو يكفر إلا بإذنه

---

(١) رواه البخاري (١) ومسلم (١٩٠٧) وأبو داود (٢٢٠١) والترمذي (١٦٤٧) والنسائي (٧٥) وابن ماجة (٤٢٢٧) وأحمد (١٦٨).

وإرادته.

قيل: هذا القول هو الذي دلت عليه البراهين العقلية لأن أحوال القلوب اعتقادات ودواع وإرادات وتلك الإرادات لا بد لها من فاعل مختار وهو الله تعالى فثبت بذلك أن المتصرف في القلب كيف شاء هو الله. وقال تعالى: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ من الموجودات مما تطلق عليه صفة المخلوق ﴿فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ۝٢﴾ [سورة الفرقان: ٢] أي قدر كل شيء مما خلق بحكمته على ما أراد وهيأه لما يصلح له وسوَّاه تسوية لا اعوجاج فيه ولا زيادة على ما تقتضيه حكمته ومصلحته ولا نقص على ذلك في باب الدنيا والدين. قال في «فتح البيان»: وهذا أوضح دليل [للرد] على المعتزلة في خلق أفعال العباد. انتهى.

معنى الإيمان بالقدر

المراد بالإيمان بالقدر أن يؤمن [العبد] بأن كل ما يقع في العالم من الخير والشر وأعمال العباد وغيرها جميعها بتقدير الله، وأنه تعالى قدر الكائنات في أزل الآزال إلى أبد الآباد، وكلها بخلقه وإرادته ومشيئته لا تخرج ذرة من تقديره. ومع هذا فإن للعباد في أفعالهم اختيار ما يترتب عليه الثواب والعقاب. وتصوير هذه المسألة وتقديرها والجمع بين قضية التقدير وترتب الجزاء الحسن والقبيح عليها ذو إشكال وصعوبة تامة. والذي ينبغي أن يقال في هذا المقام: هو أن في الآدمي صفة يقال لها: الاختيار، وأنه على بصيرة منه يرجح أحد جانبي الفعل أو الترك على الجانب الآخر، بباعثة الشوق أو النفرة. بخلاف حركة المرتعش، فإنه لا اختيار له فيه أصلاً.

فمذهب الجبرية القائلة بأن حركات الآدمي مثل حركات الجمادات؛ فاسد من أبطل الباطلات، وهذا معلوم بالمشاهدة، وقد علم من الكتاب والسنة أن الأشياء

كلها قدرت في الأزل، وكلها بإرادة الله ومشيئته وخلقه وإيجاده. ففسد أيضاً مذهب القدرية القائلة: أن الآدمي خالق لأفعاله مستقل في أحواله.

بيان مذهب المرجئة

المرجئة: بالهمز من الإرجاء، وهو التأخير.

قالوا: إن الأفعال كلها بتقدير الله ليس للعباد فيها اختيار وأنه لا يضر مع الإيمان معصية كما لا ينفع مع الكفر طاعة. والقدرية: بفتح الدال وتسكن: هم المنكرون للقدر، والحق ما بينهما. كذا في «المرقاة». والأكثر على أنهم فرقة قائلة بأنه لا فعل للعبد أصلاً ولا مدخل ولا اختيار له فيه، ونسبة الفعل إليه كنسبة الفعل إلى الجمادات، كما يقال: دار الرحى وجرى النهر وسال الوادي وأنبت الربيع، ويقال لهؤلاء: المجبرة.

فأما القدرية فمنسوبة إلى القدر لأنهم منكرون له. ومذهبهم أن العبد خالق لأفعاله مستقل في أعماله ولا قضاء ولا قدر سبق [في علم الله]. والقدرية بفتح الدال، والجبرية بفتح الباء للمشاكلة، والأصل فيه السكون نسبة إلى الجبر.

قال: ويسمي صاحب «الكشاف» أهل السنة -للتعصب الذي له في مذهب الاعتزال والقدر-: مرجئة وجبرية؛ لأنهم لا يدخلون العمل في حقيقة الإيمان، ولا يقولون أن العبد خالق لأفعاله. قال صاحب الترجمة: وهذا غلط لأن أهل السنة والجماعة يقولون: أن الإيمان عبارة عن التصديق والإقرار، وأن العمل سبب لكماله، لا أن الإيمان قول بلا عمل، فمذهبهم هو التوسط بين الجبر والقدر، وليكن أمر بين أمرين. انتهى. وأقول: الحكم على أهل السنة بأنهم لا يدخلون العمل في حقيقة الإيمان على الإطلاق ليس بمستقيم.

أما أولاً: فلأن أهل السنة والجماعة في الحقيقة عبارة عن أهل الحديث

وأصحاب الاتباع بالإحسان وهم كلهم أجمعون يعتبرون العمل في حد الإيمان ورسمه.

وأما ثانياً: فلأن الحنابلة والشافعية قائلون بدخوله فيه أيضاً، وبه قال بعض الحنفية واعتبره[1].

نعم المشهور من مذهب الإمام أبي حنيفة رحمه الله أن العمل لا يدخل في معنى الإيمان، وهو ضعيف. ولهذا عده الشيخ عبدالقادر الجيلاني رحمه الله من المرجئة، وتأوله الشيخ أحمد الدهلوي في «التفهيمات» بقوله: والإمام المذكور مجتهد، والمجتهد يخطئ ويصيب، وعلى الخطأ أجر كما أنه على الإصابة أجران، لكن الشكوى من مقلديه، كيف يقولون بقوله بعد ظهور ضعفه أو خطئه، فهم غير معذورين كما أنه معذور، بل مأجور والحق أحق بأن يتبع.

حكم القدرية والمرجئة

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**صِنْفَانِ مِنْ أُمَّتِي لَيْسَ لَهُمَا فِي الإِسْلَامِ نَصِيبٌ: الْمُرْجِئَةُ وَالقَدَرِيَّةُ**» رواه الترمذي[2]. قال في الترجمة: هذا الحديث وأمثاله صريح في تكفير القدرية والمرجئة، لكن الصواب ألَّا يسارع إلى تكفير أهل الأهواء المتأولين لأن هؤلاء لم يختاروا الكفر ولم يرضوا به بل فروا منه بالتأويل وتمسكوا بالكتاب والسنة وبذلوا الجهود في إصابة الحق فأخطؤوا ولم يصيبوا. والفرق بين لزوم الكفر وبين التزامه كائن، وهذا هو القول المختار من علماء الأمة، وفيه الاحتياط، وقد نهينا عن تكفير أهل القبلة، وكل ما ورد في شأن

(١) كما في كتاب «ما لا بد منه» لعارف خوقير، أحد العلماء الذين استوطنوا مكة، وقال المعلق: وكتابه هذا طبع في مصر بمطبعة مصطفى الحلبي، وهو على اختصاره مفيد جداً في علم التوحيد.

(٢) رواه الترمذي (٢١٤٩) وابن ماجة (٦٢)، وضعفه الألباني.

هؤلاء مما يدل على كفرهم فمن باب الزجر والتشديد والمبالغة في التضليل، وفي صحة هذه الأحاديث الواردة فيهم أيضاً كلام عند العلماء المحدثين. انتهى.

وأقول الكفر كفران: كفر التصريح، وكفر التأويل. والأول واضح، والثاني محتمل، فلا ينبغي لمؤمن مسلم أن يبادر إلى الحكم بالكفر للمتأولين فإن هذا الحكم يرجع إليه وهو يبوء به. وإن مست الحاجة ودعت الضرورة الشرعية والمصلحة المِلِّيَّة إلى الحكم بذلك فالطريق الأسلم أن يقول: إن الشرع ورد بكفر هذا الأمر ولا يكفر معيناً.

وهذا القدر يكفي للزجر والنهي، إلا أن يُرى من أحد منهم كفراً بواحاً، وإنكاراً صريحاً لضروري من ضرورات الشرع، وجحداً لعقيدة من العقائد الثابتة بالكتاب والسنة، فلا مضايقة في الحكم عليه به.

القدرية مجوس هذه الأمة

عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**الْقَدَرِيَّةُ مَجُوسُ هَذِهِ الأُمَّةِ**» أي هذه الفرقة المنكرة للقدر، القائلة بخلق العباد وأفعالهم، حالها واعتقادها في ملة الإسلام يشابه حال المجوس وعقيدتهم القائلين بتعدد الإله، وإثبات القادرين (يزدان، وأهرمن) وأن أولهما: خالق الخير، وهو الله، والآخر خالق الشر، وهو الشيطان. وذهب بعض أهل العلم بطريق المبالغة وقال: حال القدرية أسوأ من حال المجوس؛ لأن المجوس تثبت إلهين فقط، والقدرية يثبتون شركاء لا تعد ولا تحصى.

قال في «المرقاة»: المراد بهذه الأمة أمة الإجابة، لأن قولهم يشبه قول المجوس، فإن القدرية يقولون: الخير من الله والشر من الشيطان ومن النفس انتهى. «**وَإِنْ مَرِضُوا فَلَا تَعُودُوهُمْ**» من العيادة «**وَإِنْ مَاتُوا فَلَا تَشْهَدُوهُمْ**» أي لا تصلوا عليهم صلاة الجنازة «**وَلَا تُشَيِّعُوهُمْ**» والمعنى لا تراعوهم في حقوق الإسلام لا في حال

الحياة ولا في حال بعد الممات. رواه أحمد وأبو داود[١]. وفي حديث حذيفة بن اليمان قال: قال رسول الله ﷺ: «**لِكُلِّ أُمَّةٍ مَجُوسٌ وَمَجُوسُ هَذِهِ الأُمَّةِ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا قَدَرَ مَنْ مَاتَ مِنْهُمْ فَلَا تَشْهَدُوا جَنَازَتَهُ وَمَنْ مَرِضَ مِنْهُمْ فَلَا تَعُودُوهُمْ وَهُمْ شِيعَةُ الدَّجَّالِ وَحَقٌّ عَلَى اللهِ أَنْ يُلحِقَهُمْ بِالدَّجَّالِ**»[٢]، وعن عمر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**لَا تُجَالِسُوا أَهْلَ القَدَرِ وَلَا تُفَاتِحُوهُمْ**»[٣] أي لا تجعلوهم حاكمين فيكم. وقيل: لا تبدؤوهم بالسلام والكلام. انتهى.

وقال بعضهم: إن المراد بالمفاتحة هنا الابتداء بالمجادلة والمناظرة معهم والنزاع في الاعتقاد الباعث على إثارة الشك والشبهة. ومن هنا علم أن السلامة في سد باب المجادلة والمباحثة مع أهل البدع المتعصبة المضرة في الاعتقاد. ويمكن أن يكون النهي عن ابتداء الكلام والمباسطة معهم وهذا المعنى أنسب بقوله ﷺ: «**لَا تُجَالِسُوا**»، وأشد وأغلظ في ترك صحبتهم، واختيار المجانبة عنهم، ولا سيما في البحث والجدال والقيل والقال. انتهى. وأقول: هذا هو الأولى في هذا الزمان الأخير ذي الفساد العريض الطويل والبلاء الكثير.

[أقول: هذا هو الأولى لمن ليس عنده أهلية للمناظرة، وأما إن كان عنده أهلية للمناظرة والإقناع بالحق فليس المراد من الحديث المنع من ذلك فليتأمل].

أقسام الناس من قضاء الله وقدره

فمن نظر إلى الحقيقة وأعرض عن الأمر والنهي والوعد والوعيد كان مشابهاً للمشركين. ومن نظر إلى الأمر والنهي وكذب بالقضاء والقدر كان مشابهاً للمجوس. ومن آمن بهذا وبهذا فإذا أحسن حمد الله وإذا أساء استغفر الله وعلم أن

---

(١) رواه أبو داود (٤٦٩١) وأحمد (٥٥٨٤)، وحسنه الألباني.

(٢) رواه أبو داود (٤٦٩٢) وأحمد (٢٣٤٥٦)، وضعفه الألباني.

(٣) رواه أبو داود (٤٧١٠) وأحمد (٢٠٦)، وصححه ابن حبان (٧٩)، والحاكم (٢٨٧).

ذلك بقضاء الله وقدره فهذا من المؤمنين. فإن آدم عليه السلام لما أذنب تاب فاجتباه ربه وهداه وإبليس أصر واحتج بالقدر فلعنه الله وأقصاه. فمن تاب كان آدمياً ومن أصر واحتج بالقدر كان إبليسياً. فالسعداء يتبعون أباهم آدم والأشقياء يتبعون عدوهم إبليس.

الفرق بين (نحوه) و(مثله)

فائدة: والفرق بين نحوه ومثله أن الأول يقال في موضع يكون الحديثان متحدين في المعنى متغايرين في اللفظ. والآخر يقال في موضع يكون فيه الحديثان موافقين في اللفظ والمعنى.

أول من تكلم بالقدر وماذا قال الصحابة في ذلك

قال في «فتح المجيد»: عَنْ يَحْيَى بْنِ يَعْمَرَ: أَوَّلُ مَنْ تَكَلَّمَ بِالبَصْرَةِ فِي القَدَرِ مَعْبَدٌ الجُهَنِيُّ، فَانْطَلَقْتُ أَنَا وَحُمَيْدُ بْنُ عَبْدِالرَّحْمَنِ الحِمْيَرِيُّ حَاجَّيْنِ أَوْ مُعْتَمِرَيْنِ. فَقُلْنَا: لَوْ لَقِينَا أَحَدًا مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ الله ﷺ فَسَأَلْنَاهُ عَمَّا يَقُولُ هَؤُلَاءِ فِي القَدَرِ فَوُفِّقَ لَنَا عَبْدُالله بْنُ عُمَرَ دَاخِلًا المَسْجِدَ فَاكْتَنَفْتُهُ أَنَا وَصَاحِبِي فَظَنَنْتُ أَنَّ صَاحِبِي سَيَكِلُ الكَلَامَ إِلَيَّ فَقُلْتُ: أَبَا عَبْدِالرَّحْمَنِ إِنَّهُ قَدْ ظَهَرَ قِبَلَنَا أُنَاسٌ يَقْرَءُونَ القُرْآنَ وَيَتَقَفَّرُونَ العِلمَ وَيَزْعُمُونَ أَنْ لَا قَدَرَ وَأَنَّ الأَمْرَ أُنُفٌ. فَقَالَ: «**إِذَا لَقِيتَ أُولَئِكَ فَأَخْبِرْهُمْ أَنِّي بَرِيءٌ مِنْهُمْ وَأَنَّهُمْ بُرَآءُ مِنِّي وَالَّذِي يَحْلِفُ بِهِ عَبْدُالله بْنُ عُمَرَ لَوْ أَنَّ لِأَحَدِهِمْ مِثْلَ (أُحُدٍ) ذَهَبًا ثُمَّ أَنْفَقَهُ فِي سَبِيلِ الله مَا قَبِلَهُ اللهُ حَتَّى يُؤْمِنَ بِالقَدَرِ**» رواه مسلم وأهل السنن[1]. ثم قال: حدثني عمر بن الخطاب ... فذكر حديث جبريل المشهور في السؤال عن الإسلام والإيمان والإحسان.

---

(١) رواه مسلم (٨)، وأبو داود (٤٦٩٥)، والترمذي (٢٦١٠)، والنسائي (٤٩٩٠)، وابن ماجة (٦٣).

فمن لم يؤمن بالقدر خيره وشره، فقد ترك أصلاً مِن أصول الدين وجحده، وشابه مَن قال الله فيه: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾ [سورة البقرة: ٨٥]. انتهى.

النصوص الدالة على إثبات القدر من الكتاب والسنة

قال الله تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾﴾ [سورة القمر: ٤٩]، وَعَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**إِنَّ أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللهُ الْقَلَمَ، فَقَالَ لَهُ: اكْتُبْ. قَالَ: مَا أَكْتُبُ؟ قَالَ: اكْتُبِ الْقَدَرَ، فَكَتَبَ مَا كَانَ وَمَا هُوَ كَائِنٌ إِلَى الأَبَدِ**»(١)، وفي وصية عبادة لابنه: يَا بُنَيَّ إِنَّكَ لَنْ تَجِدَ طَعْمَ الإِيمَانِ وَلَمْ تَبْلُغْ حَقِيقَةَ العِلمِ بِالله حَتَّى تُؤْمِنَ بِالقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «**إِنَّ أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللهُ القَلَمَ، فَقَالَ: اكْتُبْ، فَجَرَى فِي تِلْكَ السَّاعَةِ بِمَا هُوَ كَائِنٌ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ**» يَا بُنَيَّ إِنْ مِتَّ وَلَسْتَ عَلَى ذَلِكَ دَخَلتَ النَّارَ. رواه أحمد وأبو داود، ورواه الترمذي بسند متصل، وقال: حسن صحيح غريب(٢).

قال في «فتح المجيد»: وفي هذا الحديث ونحوه بيان شمول علم الله تعالى وإحاطته بما كان وما يكون كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا ﴿١٢﴾﴾ [سورة الطلاق: ١٢]. وأجمع أئمة السلف من أهل الإسلام على الإيمان بالقدر خيره وشره، وأن حلوه ومره قليله وكثيره بقضاء الله وقدره، لا يكون ذلك إلا بإرادته ومشيئته، خلق من شاء للسعادة واستعمله بها فضلاً، وخلق

---

(١) انظر التخريج التالي.

(٢) رواه أحمد (٢٢٧٠٥)، وأبو داود (٤٧٠٠) والترمذي (٣٣١٩).

من أراد للشقاوة واستعمله بها عدلاً. وفي السنة المطهرة من الأدلة لو استقصيناه لأدى إلى الطول. انتهى.

من أنواع البر الإيمان بالقدر

قال في «الحجة البالغة» في (باب الإيمان بالقدر): من أعظم أنواع البر الإيمان بالقدر ذلك أنه به يلاحظ الإنسان التدبير الواحد الذي يجمع العالم. ومن اعتقده على وجهه يصير طامح البصر إلى ما عند الله. يرى الدنيا وما فيها كالظل له، ويرى اختيار العباد من قضاء الله وقدره كالصورة المنطبعة في المرآة، وذلك يعد له، لانكشاف ما هنالك من التدبير الوحداني، ولو في المعاد أتم إعداد.

وقد نبه ﷺ على أعظم أمره من بين أنواع البر، حيث قال: «**مَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِالقَدَرِ خَيرِهِ وَشَرِّهِ فَأَنا بَريءٌ مِنْهُ**»[1]. قال: واعلم أن الله تعالى شمل علمه الأزلي الذاتي كل ما وجد أو سيوجد من الحوادث محال أن يتخلف علمه عن شيء أو يتحقق غير ما علم فيكون جهلاً لا علماً. وهذه مسألة شمول العلم وليست بمسألة القدر ولا يخالف فيها فرقة من الفرق الإسلامية. إنما القدر الذي دلت عليه الأحاديث المستفيضة ومضى عليه السلف الصالح ولم يوفق له إلا المحققون ويتجه عليه السؤال بأنه متدافع مع التكليف وأنه فيما العمل لا يدفعه هرب ولا تنفع معه حيلة.

مراتب القضاء والقدر في إيجاد العالم

وقد وقع ذلك خمس مرات:

فأولها: أنه أجمع في الأزل أن يوجد العالم على أحسن وجْه ممكن مراعياً للمصالح مؤثراً لما هو الخير النسبي حين وجوده، وكان علم الله ينتهي إلى تعيين

---

(١) رواه أبو يعلى الموصلي في «مسنده» (٦٤٠٤) وابن بطة في «الإبانة» (١٨٨٢)، وسنده ضعيف.

صورة واحدة من الصور لا يشاركها غيرها فكانت الحوادث سلسلة مرتبة مجتمعاً وجودها، لا تصدق على كثيرين. فإرادة إيجاد العالم ممن لا يخفى عليه خافية هو بعينه تخصيص صورة وجوده إلى آخر ما ينجر إليه الأمر.

وثانيها: أنه قدر المقادير ويروى أنه كتب مقادير الخلائق كلها والمعنى واحد قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف عام. وذلك أنه خلق الخلائق حسب العناية الأزلية في خيال العرش، فصور هنالك جميع الصور وهو المعبر عنه بالذكر في الشرائع، فتحقق هنالك مثلاً صورة محمد ﷺ وبعثه إلى الخلق في وقت كذا وإنذاره لهم وإنكار أبي لهب وإحاطة الخطيئة بنفسه في الدنيا ثم اشتعال النار عليه في الآخرة، وهذه الصورة سبب لحدوث الحوادث على نحو ما كانت هنالك كتأثير الصورة المنقشة في أنفسنا في زلق الرجل على الجذع الموضوع فوق الجدران ولم تكن لتزلق لو كانت على الأرض.

وثالثها: أنه لما خلق آدم عليه السلام أبا البشر، ويبدأ منه نوع الإنسان، أحدث في عالم المثال صور بنيه ومثل سعادتهم وشقاوتهم بالنور والظلمة وجعلهم بحيث يكلفون وخلق فيهم معرفته والإخبات له وهو أصل الميثاق المدسوس في فطرتهم فيؤاخذون به وإن نسوا الواقعة. إذ النفوس المخلوقة في الأرض إنما هي ظل الصور الموجودة يومئذ فمدسوس فيها ما دس يومئذ.

ورابعها: حين نفخ الروح في الجنين فكما أن النواة إذا ألقيت في الأرض في وقت مخصوص وأحاط بها تدبير مخصوص علم المطلع على خاصية نوع النخل وخاصية تلك الأرض وذلك الماء والهواء أنه يحسن نباتها ويتحقق من شأنها على بعض الأمر فكذلك تتلقى الملائكة المدبرة يومئذ وينكشف عليهم الأمر في عمره ورزقه وهل يعمل عمل من غلبت ملكيته على بهيمته أو بالعكس وأي نحو تكون سعادته وشقاوته.

خامسها: قبيل حدوث الحادثة فينزل الأمر من حظيرة القدس إلى الأرض وينتقل شيء مثالي فتنبسط أحكامه في الأرض وقد بينت السنة بياناً واضحاً أن الحوادث يخلقها الله تعالى قبل أن تحدث في الأرض خلقاً ما ثم ينزل في هذا العالم فيظهر فيه كما خلق أول مرة سنة من الله تعالى ثم قد يمحى الثابت ويثبت المعدوم بحسب هذا الوجود. قال تعالى: ﴿يَمْحُوا۟ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ ۖ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ ﴿٣٩﴾﴾ [سورة الرعد: ٣٩] مثل أن يخلق الله البلاء خلقاً ما فينزله على المبتلى ويصعد الدعاء فيرده وقد يخلق الموت فيصعد البر ويرده. [إلى أن قال:] واعلم أن القدر لا يزاحم سببية الأسباب لمسبباتها لأنه إنما تعلق بالسلطة المرتبة جملة مرة واحدة وهو قوله ﷺ في الرقى والدواء والنقاة: «**هَل تَرُدُّ شَيْئًا مِنْ قَدَرِ الله؟ قَالَ: هِيَ مِنْ قَدَرِ اللهِ**»[1] وقول عمر في قصة سرغ: «**أليس إذا رعيتها في الخصب رعيتها بقدر الله؟...**» إلخ. وللعباد اختيار أفعالهم؟ نعم لا اختيار لهم في ذلك الاختيار لكونه معلولاً بحضور صورة المطلوب ونفعه ونهوض داعيه وعزم مما ليس له علم بها فكيف الاختيار فيها وهو قوله: «**إِنَّ القُلُوبَ بَيْنَ أُصْبُعَيْنِ مِنْ أَصَابعِ الرَّحْمَانِ يُقَلِّبُهَا كَيْفَ شَاءَ**»[2] والله أعلم. انتهى كلام «الحجة».

---

(١) رواه الترمذي (٢٠٦٥) وابن ماجة (٣٤٣٧)، وضعفه الألباني.

(٢) رواه الترمذي (٢١٤٠) وقال: حديث حسن. وابن ماجة (٣٨٣٤)، وصححه الألباني.

باب بيان العلم وأنواعه

المراد بالعلم هنا العلم بالكتاب والسنة.

قال في الترجمة: المراد بالعلم هنا علم الدين المتعلق بالكتاب والسنة وهو على قسمين: مبادئ ومقاصد.

والمبادئ: علوم تتوقف معرفة الكتاب والسنة عليها كاللغة والنحو والصرف وغيرها من العلوم العربية.

والمقاصد: ما يتعلق بالأعمال والأخلاق والعقائد وهذه علم المعاملة. والأحاديث والآيات الواردة في شأن العلم وفضيلته تشمل هذه الأقسام كلها على تفاوت المراتب ودرجاتها. انتهى.

وأقول: العلم الظاهر عبارة عن أحاديث صفات الإسلام وشعب الإيمان وآياتها، وعلم الباطن عبارة عن مدارج الإحسان الوارد في حديث جبريل عليه السلام، ولكل واحد من هذين العلمين حد ومطلع، والباطن تابع للظاهر. فكل علم باطن خالف العلم الظاهر فلا حجة فيه، وميزان الاعتبار له عرضه على ظاهر القرآن والحديث (وباطنهما) فما وافقهما فهو حق وما خالفهما فهو باطل، وإن قال به أحد من الأكابر. لأن الحق أكبر من كل شيء ولا حق إلا في كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ وهما أصول الشريعة الصادقة وعليهما تدور رحى الإسلام والإيمان والإحسان والله أعلم بالصواب. عَنْ عَبْدِالله بْنِ عَمْرٍو قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**العِلْمُ ثَلَاثَةٌ**:» أي علم أصول الدين الحق والشريعة الصادقة ثلاثة:

«**آيَةٌ مُحْكَمَةٌ**» هذا إشارة إلى كتاب الله.

«**أَوْ سُنَّةٌ قَائِمَةٌ**» أي ثابتة بحفظ المتون والأسانيد وعمدتها ما في الصحاح

والسنة وعليها مدار الأحكام والمسائل وفيها كل شيء من العبادة والمعاملة والعادة وما مضى وما يأتي [وكل ما صح عن النبي ﷺ من غيرها] وهي مع كتاب الله كافية وافية لمن اعتصم بها في الدين ولا يحتاج عند وجودها وحصولها إلى علم آخر من علوم القوم خلافاً لمن زعم أن الكتاب والسنة لا يفيان بأحكام الحوادث [وهذا جهل وضلال] وهذا محجوج بالآية المحكمة وهي قوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي﴾ [سورة المائدة: ٣]، وإكمال الدين مشعر بأنه لا يحتاج إلى زيادة عليه من عند غير الله كائناً من كان وأينما كان وفي أي عصر وقطر كان. وإتمام النعمة مشعر بأن طلب المزيد عليها كفران لها ونقص فيها وما أبلغ هذا الدليل إفحاماً للقال والقيل وإلزاماً لجيل بعد جيل. فإن من يقول: إن الكتاب والحديث لا يفيان بأحكام الحوادث فإنه كالمكذب للقرآن والسنة ولا أعظم من هذه الجرأة.

«**أَوْ فَرِيضَةٌ عَادِلَةٌ**»[1] أي علم المواريث. وإنما أفردها بالذكر مع كونها داخلة في الآية المحكمة والسنة القائمة لعلمه ﷺ بأن الأمة تقصر في ذلك وتضيعها كما دلت على ذلك الأحاديث الصحيحة. إلى أن قال:

والحاصل أن أصول الدين اثنان: الكتاب والسنة لا ثالث لهما ولا رابع [يريد نفي الإجماع والقياس] وإنما ظن من ظن أنهما لا يفيان بأحكام جميع الحوادث المستقبلة والحاجة ماسة إلى الفقه المصطلح لقصوره في علم السنة القائمة والآية المحكمة وعدم الإحاطة بمفاهيم ألفاظها وعطفها وعدم القدرة على التمسك بها حجاباً من الطبيعة أو من الرسم أو القوم أو من أهل مذهبه وأهل بلده وإقليمه أو سلطانه وولي أمره ونحو ذلك. وأما من رزقه الله علماً نافعاً وعملاً صالحاً فهو

---

(١) رواه أبو داود (٢٨٨٥) وابن ماجة (٥٤)، وصححه الحاكم (٧٩٤٩)، وتعقبه الذهبي في «تلخيص المستدرك» فضعفه، وضعفه أيضاً الألباني.

يشتغل بها ليله ونهاره ويقضي بها في كل حادثة بخصوص النصوص أو بعموم الأدلة كما فعل سلف هذه الأمة وأئمتها ومن تبعهم بإحسان.

الأعمال التي يدوم ثوابها في الحياة وبعد الممات

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**إِذَا مَاتَ الإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَمَلُهُ**» الذي كان يعمله في الحياة الدنيا التي هي مزرعة الآخرة من صلاة وصوم وحج وزكاة ودرس علم السنة والكتاب والاشتغال بهما تعلماً وتعليماً وبلاغاً لقوم آخرين إلى غير ذلك من الأعمال الصالحة والأقوال الحسنة والأفعال الطيبة.

«**إِلَّا مِنْ ثَلَاثَةٍ: صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ**» بعد موته دائمة باقية مستمرة كالأوقاف وسبل الخير.

«**أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ**» قيد العلم بالانتفاع ليعلم أن المراد به علم الكتاب والسنة دون علم آراء الرجال ومقالات الأقوام.

«**أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ**» بعد ذهابه من هذا العالم الفاني. قال في الترجمة: عد الولد من عمل الوالد لأنه ولد منه وجاء في الوجود ورتب عليه وصول الثواب إليه. انتهى. رواه مسلم[(١)].

والحديث دليل على أن الدعاء من الحي ينفع الميت والقيام به من الولد من صلاحه ومن لا يدعو لأبويه فإنه غير صالح في نفسه وغير بار بهما.

والشرط في الصدقة: أن تكون من المال الحلال وفي سبيل الله خالصاً مخلصاً له لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾﴾ [سورة المائدة: ٢٧].

---

(١) رواه مسلم (١٦٣١) وأبو داود (٢٨٨٠) والترمذي (١٣٧٦) والنسائي (٣٦٥١) وأحمد (٨٨٤٤) والدارمي (٥٧٨).

فضل العلم

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ: أَوْحَى إِلَيَّ: أَنَّهُ مَنْ سَلَكَ مَسْلَكًا فِي طَلَبِ العِلْمِ: سَهَّلْتُ لَهُ طَرِيقَ الجَنَّةِ**»، فيه فضيلة لطالب علم الدين لا علم المبتدعين والمشركين وبشارة له وأي بشارة لمن يطلب ذلك.

«**وَمَنْ سَلَبْتُ كَرِيمَتَيْهِ: أَثَبْتُهُ عَلَيْهِمَا الجَنَّةَ**» المراد بالكريمة هنا: العين، وهو في الأصل كل عضو شريف، وكانت الجنة جزاء لشدة المكاره للأعمى وكثرة المشاق والمحن والتكاليف الظاهرة والباطنة عند فقدها، [-وفي رواية: «**وَاحْتَسَبَ**»- والمعنى إذا لم يرض بقدر الله عليه في ذلك فلا تحصل له الإثابة].

«**وَفَضْلٌ فِي عِلْمٍ خَيْرٌ مِنْ فَضْلٍ فِي عِبَادَةٍ**» أي الزيادة في علم الكتاب والسنة وإن كانت قليلة فهي خير من الزيادة في العبادات وإن كانت كبيرة لأن الأول متعد نفعه إلى الغير، والآخر لازم له خاصة وخير الناس من ينفع الناس [بعد نفع نفسه]. وفيه فضيلة العالم على العابد وليس المراد ترك العبادة بأسرها بل المقصود أن الفضل في العالم بعد العمل بالفرائض والواجبات وترك الكبائر والذنوب الموبقات أكثر من الفضل في العبادات من النوافل والطاعات التطوعات. فمن جاء بهذه على القدر المفروض وزاد في العلم فهو خير ممن زاد في النوافل غير العلم.

«**وَمِلَاكُ الدِّينِ الوَرَعُ**» أي قوام الدين ونظامه وسبب استحكامه وقوته هو الورع والتقوى. رواه البيهقي في «شعب الإيمان»[١].

المقارنة بين محب العلم ومحب المال

وَعَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «**مَنْهُومَانِ لَا يَشْبَعَانِ**» أي حريصان

(١) رواه البيهقي في «شعب الإيمان» (٥٣٦٧).

لا يشبع كل منهما من شدة الشره والحرص: أحدهما: «**مَنْهُومٌ فِي العِلْمِ**» حريص في طلب علم الدين لا علم الدنيا وهو علم القرآن والحديث [وما تحتاجها من العلوم الأخرى لتعديل اللسان وفهمها] «**لَا يَشْبَعُ مِنْهُ**» بل كلما يزيد في كسبه يزيد تعطشه:

شَربتُ العِلْمَ كأساً بَعدَ كَأسٍ   فَما نَفَدَ الشَّرابُ وَلا رَويتُ

ومن هنا قيل: (زمن العلم من المهد إلى اللحد).

«**وَمَنْهُومٌ فِي الدُّنْيَا لَا يَشْبَعُ مِنْهَا**» أي هالك في جمعها حريص على طلبها لا يشبع بطنه منها وإن ظفر بنقيرها وقطميرها. رواه البيهقي في «شعب الإيمان»(١).

والمقابلة بطالب العلم طالب الدنيا يقتضي أن طلب المال يخالف طلب الكمال وأنهما شيئان مفترقان. ويزيده إيضاحاً حديث عون عن ابن مسعود موقوفاً: «**مَنْهُومَانِ لَا يَشْبَعَانِ صَاحِبُ العِلْمِ وَصَاحِبُ الدُّنْيَا وَلَا يَسْتَوِيَانِ**» أي في القدر والرتبة وحسن العاقبة وقبحها. «**أَمَّا صَاحِبُ العِلْمِ فَيَزْدَادُ رِضًا لِلرَّحْمَنِ**» بطلبه العلم النافع؛ ومن زاد زاد الله في حسناته «**وَأَمَّا صَاحِبُ الدُّنْيَا فَيَتَمَادَى فِي الطُّغْيَانِ**» [أي في الإثم والعدوان]، ثُمَّ قَرَأَ عَبْدُالله هَذِهِ الآيَةَ: «﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ۝٧﴾ [سورة العلق: ٦-٧] **قَالَ: قَالَ اللهُ الآيَةَ فِي الآخَرِ**: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [سورة فاطر: ٢٨]» رواه الدارمي(٢).

أخبر رضي الله عنه عن صاحبي العلم والمال مستدلاً بالقرآن عليهما. وفضل العالم على المتمول لأن العالم يدعو إلى رضى الرب والمال يجر إلى سخطه، والمراد

---

(١) رواه البيهقي في «شعب الإيمان» (٩٧٩٨) والحاكم في «المستدرك» (٣١٢)، وقال: صحيح على شرط الشيخين، ولم أجد له علة. ووافقه الذهبي في «التلخيص».

(٢) رواه الدارمي (٣٤٤) والطبراني في «الكبير» (١٠٣٨٨)، والشاشي في «مسنده» (٦٩٢) وابن الأعرابي في «معجمه» (٩٧٨) والقضاعي في «مسنده» (٣٢٢)، وفي سنده انقطاع.

بصاحب العلم في هذا الحديث من هو عامل بعلمه، لا من عَلِمَ وعَلَّمَ للدنيا لغير وجه الله سبحانه؛ فإنه ليس من العلم في شيء، بل علمه ذلك جهل له وبال عليه، كما في حديث آخر عن ابن مسعود موقوفاً قال: لَوْ أَنَّ أَهْلَ العِلمِ صَانُوا العِلمَ لَسَادُوا بِهِ أَهْلَ زَمَانِهِمْ، وَلَكِنَّهُمْ بَذَلُوهُ لِأَهْلِ الدُّنْيَا لِيَنَالُوا بِهِ مِنْ دُنْيَاهُمْ فَهَانُوا عَلَيْهِمْ، سَمِعْتُ نَبِيَّكُمْ ﷺ يَقُولُ: «**مَنْ جَعَلَ الهُمُومَ هَمًّا وَاحِدًا هَمَّ آخِرَتِهِ كَفَاهُ اللهُ تَعَالَى هَمَّ دُنْيَاهُ، وَمَنْ تَشَعَّبَتْ بِهِ الهُمُومُ لِأَحْوَالِ الدُّنْيَا لَمْ يُبَالِ اللهُ فِي أَيِّ أَوْدِيَتِهَا هَلَكَ**» رواه ابن ماجة[1]، ورواه البيهقي في «شعب الإيمان» عن ابن عمر من قوله: «**مَنْ جَعَلَ الهُمُومَ**»[2]، ويؤيد هذا ما ورد عن سفيان: أَنَّ عُمَرَ بْنَ الخَطَّابِ قَالَ لِكَعْبِ الأَحْبَارِ: «**مَنْ أَرْبَابُ العِلمِ؟ قَالَ: الَّذِينَ يَعْمَلُونَ بِمَا يَعْلَمُونَ. قَالَ: فَمَا أَخْرَجَ العِلمَ مِنْ قُلُوبِ العُلَمَاءِ؟ قَالَ: الطَّمَعُ**» ررواه الدارمي[3].

فضل السعي لطلب العلم

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلتَمِسُ فِيهِ عِلمًا» قال في الترجمة: أي علم من علوم الدين وإن كان قليلاً أو المراد أن يكون في طريق العلم بوجه من الوجوه أو سبب من الأسباب المحصلة له كإنفاق المال والتعلم والتصنيف والتأليف «**سَهَّلَ اللهُ لَهُ بِهِ طَرِيقًا إِلَى الجَنَّةِ**» بسبب السلوك في طريق العلم ويدخله فيها جزاء لطلبه أو يوفقه لعمل صالح يكون سبباً لدخول الجنة «**وَمَا اجْتَمَعَ قَوْمٌ فِي بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ الله**» التي أعدها لمذاكرة العلم كالمدارس أو

(١) رواه ابن ماجة (٢٥٧) والبيهقي في «شعب الإيمان» (١٧٤٤) والبزار (١٦٣٨)، وحسنه الألباني.

(٢) رواه البيهقي في «شعب الإيمان» (٩٨٥٧) وابن أبي عاصم في «الزهد» (١٦٦)، وصححه الحاكم (٣٦٥٨)، كلهم عن ابن عمر عن النبي ﷺ به مرفوعاً.

(٣) رواه الدارمي (٦٠٤)، وإسناده معضل.

المساجد أو بيوت الإقامة، فإن هذا كله بيت الله لأنه سبحانه أعطاه ذلك والأول أولى وأظهر [بل الأولى والأظهر الثاني وقد يشمل الأول من حيث المعنى] (والثالث) «يَتْلُونَ كِتَابَ الله» على طريق الورد والوظيفة مع التدبر في مبانيه ومعانيه «وَيَتَدَارَسُونَهُ بَيْنَهُمْ» أي يُقرِئُونَه الناس ويعلمونهم ويبحثون في تحقيق معانيه وتصحيح ألفاظه. «إِلَّا نَزَلَتْ عَلَيْهِمُ السَّكِينَةُ» أي راحة الباطن واطمئنان القلب الذي يخرج الميل إلى شهوات الدنيا وخوف ما سوى الحق «وَغَشِيَتْهُمُ الرَّحْمَةُ» من أرحم الراحمين «وَحَفَّتْهُمُ المَلَائِكَةُ» من كل جانب «وَذَكَرَهُمُ اللهُ فِيمَنْ عِنْدَهُ» يعني من الملائكة المقربين في جناب القدس مباهاة ومفاخرة بعباده. رواه مسلم(١).

وفي حديث أبي الدرداء مرفوعاً: «مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَطْلُبُ فِيهِ عِلْمًا سَلَكَ اللهُ بِهِ طَرِيقًا مِنْ طُرُقِ الجَنَّةِ وَإِنَّ المَلَائِكَةَ لَتَضَعُ أَجْنِحَتَهَا رِضًا لِطَالِبِ العِلْمِ وَإِنَّ العَالِمَ لَيَسْتَغْفِرُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ وَالحِيتَانُ فِي جَوْفِ المَاءِ وَإِنَّ فَضْلَ العَالِمِ عَلَى العَابِدِ كَفَضْلِ القَمَرِ لَيْلَةَ البَدْرِ عَلَى سَائِرِ الكَوَاكِبِ وَإِنَّ العُلَمَاءَ وَرَثَةُ الأَنْبِيَاءِ وَإِنَّ الأَنْبِيَاءَ لَمْ يُوَرِّثُوا دِينَارًا وَلَا دِرْهَمًا، وَإِنَّمَا وَرَّثُوا العِلْمَ فَمَنْ أَخَذَ بِهِ أَخَذَ بِحَظٍّ وَافِرٍ» رواه أحمد والترمذي وأبو داود وابن ماجة والدارمي(٢).

والحديث فيه دلالة عظيمة على فضيلة طالب العلم والعالم. أمّا العالم الذي يطلب بعلمه الدنيا وما لها فليس هو خليفة الأنبياء ولا وارث علمهم. والحديث يدل -بفحوى الخطاب- على أن العالم ينبغي له أن لا يبتلى بآفات المال وزهرة

---

(١) رواه مسلم (٢٦٩٩) وأبو داود (١٤٥٥) والترمذي (٣٣٧٨) وابن ماجة (٢٢٥) وأحمد (٧٤٢٧).

(٢) رواه أحمد (٢١٧١٥) وأبو داود (٣٦٤١) والترمذي (٢٦٨٢) وابن ماجة (٢٢٣) والدارمي (٣٥٤)، وصححه الألباني.

الحياة الدنيا لأنه جلس مجلس النبي في تعليم العلم والاتّصاف به.

وعن أمامة الباهلي قال: ذُكِرَ لِرَسُولِ الله ﷺ رَجُلَانِ أَحَدُهُمَا عَابِدٌ وَالآخَرُ عَالِمٌ -أي أيهما أفضل من الآخر-؟ فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**فَضْلُ العَالِمِ عَلَى العَابِدِ كَفَضْلِي عَلَى أَدْنَاكُمْ**» قال في الترجمة: تأمل ما هذه المبالغة؟ فالأول فضله ﷺ على الأنبياء والمرسلين ثم على الصحابة لا سيما على من هو أدنى منهم. انتهى. وفيه إشارة إلى علة تفضيل العالم على العابد وإلى أن المفضل عالم يعلم الناس تَعْدِيَة لنعمة العلم إلى الغير وتفضيلاً له على العبادة غير المتعدية. رواه الترمذي[١]، ورواه الدارمي[٢] عن مكحول مرسلاً ولم يذكر رجلين، وقال: «**فَضْلُ العَالِمِ عَلَى العَابِدِ كَفَضْلِي عَلَى أَدْنَاكُمْ ثُمَّ تَلَا هَذِهِ الآيَةَ** ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [سورة فاطر: ٢٨]» وسرد الحديث إلى آخره. وقد دلت تلاوة الآية الشريفة على أن المراد بالعالم وفضله على العابد من كان يخشى الله والخاشي لابد أن يأتي بالواجبات ويجتنب الكبائر وإن لم يزدد في العبادة، وقد ورد في حديث ابن عباس يرفعه: «**فَقِيهٌ وَاحِدٌ أَشَدُّ عَلَى الشَّيْطَانِ مِنْ أَلفِ عَابِدٍ**» رواه الترمذي وابن ماجة[٣].

معنى الفقيه

وأقول: الفقه في اللغة: الفهم. وفي الشرع: فهم الكتاب والسنة على وفق مراد الله ومراد رسوله لا هذا الفقه الذي اصطلح عليه اليوم فإنه في الحقيقة رأي بحث أو اجتهاد من الفضلاء. وكان لفظ الفقيه: يطلق في الصدر الأول على الزاهد التارك للدنيا المؤثر للآخرة عليها. ثم تبدل استعماله وصار يطلق على من قرأ

(١) رواه الترمذي (٢٦٨٥)، وصححه الألباني.

(٢) رواه والدارمي (٢٩٧) مرسلاً.

(٣) رواه الترمذي (٢٦٨١) وقال: هذا حديث غريب. ورواه ابن ماجة (٢٢٢) والطبراني (١١٠٩٩)، قال الألباني: موضوع.

مسائل النكاح والبيع والشراء والعتاق والأملاك وليس هذا من المراد في شيء إلى أن قال: وبالجملة الفقيه كل الفقيه من كان شديداً على الشياطين وأما من كانت الشياطين عليه مسلطين وهو يسعى كل يوم في إماتة السنن وإحياء البدع من تقليدات الرجال والديانة بالآراء فهو ليس بفقيه بل هو سفيه والدليل على أن المراد بالفقه في هذا الحديث وما ورد في معناه من الأخبار الأخرى فهم كتاب الله والسنة لا غير وأن الفقه المصطلح عليه اليوم لم تكن له رائحة في الصدر الأول ولم يكن يعرف أحد من سلف هذه الأمة إياه، وإنما حدث هذا بعد القرون الفاضلة المشهود لها بالخير، وكما حدث نهى أئمة الفقه من المجتهدين الأربعة وغيرهم عن تقليدهم وتقليد غيرهم فيه، كما هو مصرح به في كتب مقلديهم، ومن العجائب أن مقلدي الأئمة يوجبون تقليدهم عليهم ثم لا يقلدونهم في هذا القول، بل يخالفونهم في ذلك خلافاً أشد من خلاف المتبعين للمقلدين.

التحذير من طلب العلم لغير الله

نَعَمْ «مَنْ طَلَبَ العِلمَ لِيُجَارِيَ بِهِ العُلَمَاءَ أَوْ لِيُمَارِيَ بِهِ السُّفَهَاءَ أَوْ يَصْرِفَ بِهِ وُجُوهَ النَّاسِ أَدْخَلَهُ اللهُ النَّارَ»(١) هكذا ورد مرفوعاً في حديث كعب بن مالك. قال في الترجمة: أي يبحث مع أهل العلم ويسوي نفسه بهم ويباهي بذلك ويفاخر أو يجادل مع الجهلاء وينازعهم ليوقعهم في الشكوك ويحصل بذلك المال من الناس ويصرفه في أمور الدنيا وشهوات النفس فإنه يدخل النار إذا طلب العلم لمجرد هذه الأغراض، وأما إن شابه رياء وداعية النفس بحكم الطبيعة والجبلة فهو معذور، والاحتراز عنها ليس في مقدوره، فلا يكون حكمه هذا الحكم كما وقعت الإشارة إلى ذلك في حديث أبي هريرة الآتي قريباً. قلت: هذا الأثر في تعلم علم الدين لا في

---

(١) رواه الترمذي (٢٦٥٤) وصححه الحاكم (٢٩٣).

تحصيل الفضل؛ فإنه يأبى -غالباً- إلا أن يكون لغير الله، [والأثر كما قيل: تعلمت العلم لغير الله فأبى العلم إلا أن يكون لله]، وحيث أن الحديث مشعر بما سيقع في الأمة بين من تسمى بالعلم كان علماً من أعلام النبوة فإن عصر النبي ﷺ معصوم عن مثل هذه المجاراة والمماراة على اليقين. لذا فقد طال في هذا العصر من فضلاء الزمن لا من علمائه مجاراة العلماء ومماراة السفهاء وصرف وجوه الناس إليه لكسب الشهرة في عامة الناس وجرى قلمهم برد العلماء والقدح فيهم إلى غاية لا يأتي عليها الحصر حتى جمع من ترهاتهم البسابس ما لا يحمله إلا بعير أو عير.

وفي حديث أبي هريرة يرفعه: «**مَنْ تَعَلَّمَ عِلمًا مِمَّا يُبْتَغَى بِهِ وَجْهُ الله لَا يَتَعَلَّمُهُ إِلَّا لِيُصِيبَ بِهِ عَرَضًا مِنَ الدُّنْيَا لَمْ يَجِدْ عَرْفَ الجَنَّةِ يَوْمَ القِيَامَةِ يَعْنِي رِيحَهَا**» رواه أبو داود وابن ماجة[١].

في الحديث التنبيه على أنه لا ينبغي أن ما يراد به وجه الله أن يجعل في طلب متاع الدنيا الحقيرة. ترجمه. وبالجملة: الذم متوجه إلى من لا يتعلم العلم إلا لإصابة الدنيا وعرضها وهو المحروم من السعادة لحصره طلب العلم في ذلك. وأما إن كان مشوباً مخلوطاً به وله نية العمل وترويج الدين فله الأجر على قدرها.

التحذير من القول بالرأي

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ يَرْفَعُهُ: «**مَنْ قَالَ فِي القُرْآنِ بِرَأْيِهِ فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ**» رواه الترمذي[٢] وفي راوية عنده: «**مَنْ قَالَ فِي القُرْآنِ بِغَيْرِ عِلمٍ فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ**»[٣]. قال في الترجمة: أي من قال فيه برأيه وقياسه الذي لا مستند له من النقل فحكمه ما ذكر في الحديث. وفي حديث جندب البجلي مرفوعاً: «**مَنْ قَالَ**

(١) رواه أبو داود (٣٦٦٤) وابن ماجة (٢٥٢) وأحمد (٨٤٥٧)، وصححه الألباني.

(٢) رواه الترمذي (٢٩٥١) وحسنه، والنسائي في «الكبرى» (٨٠٣١)، وضعفه الألباني.

(٣) رواه الترمذي (٢٩٥٠) وأحمد (٢٠٦٩) والنسائي في «الكبرى» (٨٠٣٠)، وضعفه الألباني.

فِي القُرْآنِ بِرَأْيِهِ فَأَصَابَ فَقَدْ أَخْطَأَ» رواه الترمذي وأبو داود[(١)].

قال في الترجمة: يعني وإن كان في الواقع حقاً وصواباً لكن من حيث أنه أخطأ في القصد والطريق فهو في حكم الخطاء وهذا على عكس حال المجتهد فإنه وإن أخطأ فهو على الصواب أي يؤجر بأجر واحد ويناله على خطئه. قال: والمجمل أن التفسير ما جزم فيه أنه المراد للحق وهذا لا يتأتى إلا بنقل من الأئمة أهل التفسير واصل إلى حضرة الرسالة ولا يجوز إلا إذا كان كذلك. والتأويل ما يقول فيه على طريقة الاحتمال: يمكن أن يكون المراد كذا وكذا وهذا لا يجوز إلا بشرط موافقته للقواعد العربية وقوانين الشرع الشريف. انتهى.

وعن أبي هريرة قال: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: **«المِرَاءُ»** بكسر الميم: ممدود **«فِي القُرْآنِ كُفْرٌ»**[(٢)] أي كاد أن يجر إلى الكفر وقال بعضهم: المراد بالمراء هنا الشك والتشكيك وعلى هذا يكون المراد حقيقة الكفر. والحديث حجة على الطائفتين المتكلمتين في الكتاب بالجدل والمكابرة في مسائل الاعتقاد ومسائل الأحكام وهم أئمة أهل الشك والتشكيك وخاضوا فيما لم يؤمروا بالخوض فيه بل بالكلام عليه فضلوا وأضلوا [عن سواء السبيل].

وفي حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال: **«سَمِعَ النَّبِيُّ ﷺ قَوْمًا يَتَدَارَؤُونَ فِي القُرْآنِ»** التدارؤ التدافع والتناقض والجدال والنزاع **«فَقَالَ: إِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِهَذَا ضَرَبُوا كِتَابَ الله بَعْضَهُ بِبَعْضٍ»** أي بإيجاد التناقض بين الآيات فقالوا: هذه الآية تخالف الآية الفلانية وتلك تخالف هذه أو المراد خلط بعض

---

(١) رواه أبو داود (٣٦٥٢) والترمذي (٢٩٥٢) وقال: حديث غريب. والنسائي في «الكبرى» (٨٠٣٢) وضعفه الألباني.

(٢) رواه أبو داود (٤٦٠٣) وأحمد (٧٨٤٨)، وصححه ابن حبان (٧٤، ١٤٦٤) والحاكم (٢٨٨٢)، ووافقه الذهبي.

الآيات ببعضها وعدم التمييز بين محكمها ومتشابهها ومجملها ومبينها وناسخها منسوخها والأول أنسب بقوله: «**وَإِنَّمَا نَزَلَ الكِتَابُ يُصَدِّقُ بَعْضُهُ بَعْضًا فَلَا تُكَذِّبُوا بَعْضَهُ بِبَعْضٍ**» بقولكم: هذه الآية تعارض الآية الفلانية «**فَمَا عَلِمْتُمْ مِنْهُ فَقُولُوا**» أي ما بلغ إليه علمكم من فهمه ودركه وفقهه فبينوه وقولوه للناس «**وَمَا جَهِلْتُمْ فَكِلُوهُ إِلَى عَالِمِهِ**» أي ما لم يبلغ إليه علمكم لكونه من المتشابهات والخفيات المشكلات فكلوه إلى الله تعالى الذي هو عالمه أو إلى رسوله ﷺ وقيل: إلى عالم الكتاب وتفسيره. رواه أحمد وابن ماجة[1].

النهي عن الأغلوطات

وَعَنْ مُعَاوِيَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: «**إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ نَهَى عَنِ الأُغْلُوطَاتِ**»[2]، جمع أغلوطة بضم الهمزة وسكون الغين هي الكلام الذي يلقى به أحداً في الغلط، ويقال لها أيضاً: المغالطات. فإن كان قصد الإظهار الفضيلة لنفسه ونقص الغير وفضيحته وندمه وباعثاً على تهيج الفتن والشرور وموجباً للعداوة والأنداء فهو حرام. وإن كان على طريق الجزاء والمكافأة فهو جائز عند البعض لقوله تعالى: ﴿وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ [سورة الشورى: ٤٠] كما فعل الإمام الشافعي رحمه الله مع أبي يوسف في مجلس هارون. كذا في الترجمه.

وبالجملة فكل كلام ومسألة يصدق عليها أنه أغلوطة أو مغالطة فالحديث يشملها وفي الفقه والفلسفة من هذا الباب شيء كثير بل عندي أن علوم الأوائل [مريداً بذلك أهل الأهواء والبدع] كلها أغلوطات ومغالطات منهي عنها في دين الإسلام.

---

(١) رواه أحمد (٦٧٠٢)، وابن ماجة (٨٥)، وقال الألباني: حسن صحيح.

(٢) رواه أبو داود (٣٦٥٦) وأحمد (٢٣٦٨٨) والطبراني (١٩/ ٣٨٠ رقم ٨٩٢)، وضعفه الألباني.

ينابيع البدع والخرافات والضلالات

وغالب البدع والضلالات التي حدثت في الإسلام قديماً وحديثاً فسببها هذا المزج والخلط، ولو بقي الدين على صرافته، والإسلام على محوضته، كما كان على عهد النبي ﷺ لما كان لهذه البدع والمحدثات مدخل في فساد الملة وأهلها، ولكن جاء البرد والجبات فأصيب الإسلام بهذه الفنون العقلية والكمالات الفلسفية التي في الحقيقة نقص وجهل بحت ومصيبة لا يساويها مصيبة وابتلاء برزية لا يرجى الإياب منها لأحد إلا من رحمه الله وحفظه وصانه بمنه وكرمه، وكانت سهامها فيه مصيبة ولم ينج منه إلا شرذمة من أهل السنة ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ ﴿١٤﴾﴾ [سورة الواقعة: ١٣]، ﴿وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾ [سورة ص: ٢٤]، ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾﴾ [سورة سبأ: ١٣].

فالإسلام إنما يسمى إسلاماً إذا كانت على صرافته التي جاء بها رسول الله ﷺ.
والإيمان إنما يسمى إيماناً إذا بقي على محوضته التي وردت السنة بتعريفه وكذلك الإحسان لا يكون إحساناً إلا إذا صدق عليه ما ورد في الحديث الصحيح الذي يقال له حديث جبريل.

وكل شيء زيد عليه فقد نقص به الإسلام وسقط به قوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [سورة المائدة: ٣].

وهذا التقدير؛ وإن كان يثقل على أهل هذا الزمان، من العامة والأعيان، فنحن مأمورون بالقول به، طلباً لرضاء الرحمن، وإيضاحاً للحق بواضح البيان، فإن كنت ممن بقي فيهم بقية من الحياء الذي هو شعبة من الإيمان، فأنت تقبله إن شاء الله.

ابتداء ذهاب العلم

وفي حديث أبي الدرداء قال: «كُنَّا مَعَ رَسُولِ الله ﷺ فَشَخَصَ بِبَصَرِهِ إِلَى السَّمَاءِ» أي كأنه ينتظر الوحي فجاء الوحي باقتراب أجله وقرب وفاته، ثُمَّ قَالَ: «هَذَا أَوَانُ يُخْتَلَسُ فِيهِ العِلْمُ مِنَ النَّاسِ حَتَّى لَا يَقْدِرُوا مِنْهُ عَلَى شَيْءٍ» رواه الترمذي(١). وهذا يدل على ذهاب العلم من الناس وأن ابتداء ذلك من وفاة الرسول ﷺ وانقطاع الوحي، وقد كان كما أخبر فهذا الحديث علم من أعلام النبوة وأن الناس لم يقدروا بعده ﷺ على شيء من العلم والوحي والذي قدروا عليه هو هذا الجهل الذي أتى به الفلاسفة الطغام والملاحدة اللئام وذلك ليس من علم الدين في ورد ولا صَدَر وليس عليه أثارة من علم وإن ظنوه علماً أو سموه فضلاً.

فَمَا العِلْمُ إِلَّا في كِتَابٍ وَسُنَّةٍ ... وَمَا الجَهلُ إِلَّا في كَلامٍ وَمَنْطِقِ

الفِرَق التي غلت في الدين

فمن الغالين الطائفة القائلة بوحدة الوجود ومستدلة بزعمها ببعض القرآن والحديث فهذا استدلال منهم بالكتاب والسنة تحريف لهما لأنهما قاضيان على كفر من قال بهذه المقالة دلالة من النص وإشارة منها، ومنهم الطائفة الرافضة المدعية لحب أهل البيت وهم عن حبهم بمعزل وفتنتهم أشد الفتن الباقية في الإسلام. ومنهم الخوارج الغالون في كتاب الله النافون للحديث والاحتجاج به. ومنهم المعتزلة والجهمية والقدرية والمرجئة والجبرية ومن في معناهم من شعبهم ومن غيرهم.

وأما المبطلون فهم فلاسفة الإسلام وحكماء هذه الملة الذين انتحلوا أديان أهل اليونان ومسائلهم ومقالاتهم في كتبهم القديمة والحديثة وتكلموا على بنائها في

---

(١) رواه الترمذي (٢٦٥٣) والدارمي (٢٩٦)، وصححه الحاكم (٣٣٨)، ووافقه الذهبي.

الأحكام الشرعية وأسسوا قواعد عقلية وافتخروا بهذا الانتحال وباهوا بذلك القيل والقال وهم في الحقيقة أعداء الإسلام ومبطلو دين خير الأنام وعلمهم هذا انتحال لدين اليونان وإبطال للملة المحمدية ومن جملة هؤلاء ابن سينا وأضرابه وبعض الرافضة كالنصير الطوسي وغيرهما.

العلوم عند جميع الديانات ثلاثة

قال الفلاني: والعلوم عند جميع أهل الديانات ثلاثة: علم أعلى وهو عندهم علم الدين الذي لا يجوز لأحد الكلام فيه بغير ما أنزل الله تعالى في كتبه وعلى ألسنة أنبيائه نصاً. وعلم أوسط وهو معرفة علوم الدنيا التي يكون معرفة الشيء منها بمعرفة نظائره وأشباهه ويستدل عليه بأجناسه وأنواعه كعلم الطب والحساب والهندسة. وعلم أسفل وهو علم بأحكام الصناعات وضروب الأعمال كالسباحة والفروسية والرمي والتزويق والخط وما أشبه ذلك من الأعمال التي هي أكثر من أن يجمعها أو يأتي عليها وصف وحساب وإنما تحصل بتدريب الجوارح فيها ويكون الحذق فيها غالباً لمن كان سفيها. والعلم الأوسط علم الأبدان وإليه حاجة لكل إنسان. والعلم الأسفل ما دربت على تعلمه الجوارح والبنان. والحاصل أنه اتفق أهل الملل والنحل والأديان على أن العلم الأعلى هو علم الدين. واتفق المسلمون منهم على أن الدين يكون بمعرفته على ثلاثة:

أولها: معرفة الإيمان والإسلام والإحسان خاصة وذلك هو معرفة التوحيد والإخلاص وإيثار الانقياد.

الثاني: معرفة مخارج الشرائع ومعادن أخبار الدين وذلك لا يكون إلا بمعرفة رسول الله ﷺ الذي شرع الله لنا الدين على لسانه وأجراه على يده ومعرفة ما جاء به من عند الله.

الثالث: معرفة السنن السنية فرائضها وواجباتها ومندوباتها وآدابها ونافلتها وسائر أحكامها على وجهها الوارد.

أوفق المذاهب بالسنة

أوفق المذاهب بالسنة مذهب إمام أهل السنة أحمد بن حنبل رضي الله عنه فإنه لم يقل شيئاً برأيه قط إنما أفتى بالحديث وبعده بأقوال الصحابة حتى إن كان جاء منهم في المسألة قولان قال بهما ولم يقل من عنده بشيء ولولاه لم يبق مذهب السنة ولا العمل بالحديث في الدنيا فمنته على هذه الأمة كمنة سائر علمائها عليها ومن لم يعرف له قدره فهو محروم من بركات الدين وحلاوة الإيمان.

ثم مذهب الشافعية فإن فيه أيضاً عملاً بالسنة، ثم مذهب المالكية فإن كتاب «الموطأ» قد اشتمل على الأحاديث الصحيحة العالية السند، وهو عمدتهم في المذهب، وإن كان فيه بعض البلاغات.

وأكثر المذاهب رأياً هو هذا المذهب الذي ينسب إلى أبي حنيفة رضي الله عنه، وهو رحمه الله كان مجتهداً ولم يصنف في الفقه المبني على الرأي شيئاً، وإنما جمعت هذه الفتاوى من علوم من كان ينسبون إليه، ومن أقوالهم فزادت كل يوم في الرأي، وبعدت عن السنن بعداً عظيماً، وبانت بوناً بائناً، وإن أنكر ذلك الاسم والرسم فرقة المذهب الحنفي، فلا يجديهم ذلك، لأن إخوانهم من أهل المذاهب الباقية يذكرونهم بهذا اللقب وبهذه العلامة. قال ابن عباس: إنما هو كتاب الله وسنة رسوله ﷺ فمن قال بعد ذلك برأيه فما أدري أفي حسناته أم في سيئاته. وهذا تصريح منه رضي الله عنه بأن أصول الإسلام في القرآن والسنة. والرأي هو القياس والظن وهو في سيئات الرائي والظان لا في حسناته وقال عمر رضي الله عنه: السنة ما سنه الله تعالى ورسوله لا تجعلوا خطأ الرأي سنة للأمة. فرحم الله عمر الفاروق

كأنه على علم بوقوع ذلك فحذر منه ولكن كان كما قال.

قال الفلاني: لقد شاهدنا في هذه الأعصار رأياً مخالفاً لسنة رسول الله ﷺ مصادقاً لما في كتاب الله عز وجل قد جعلوه سنة واعتقدوه ديناً يرجعون إليه عند التنازع وسموه مذهباً. ولعمري إنها مصيبة وبلية وحمية وعصبية أصيب بها الإسلام وابتلي بها أهله فإنا لله وإنا إليه راجعون. انتهى. وأقول إني شاهدت في هذه الأعصار والأمصار بدعاً كثيرة وشركاً جلياً رأوه ديناً قيماً وتوحيداً خالصاً حتى صار المعروف منكراً أو المنكر معروفاً عند طائفة من المتمذهبين ووجد مصداق قوله تعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾﴾ [سورة يوسف: ١٠٦] (الفلاني: إمام المحدثين في زمنه وخاتمتهم في مدينة الرسول ذكره الشوكاني بالخير والسلامة في الفتح الرباني) وأثنى عليه وكان أستاذ الشيخ محمد عابد السندي والسندي تلميذ للشوكاني.

تحرير قول أبي حنيفة

قال الإمام الأعظم عظمه الله تعالى: إذا قلتُ قولاً وكتاب الله يخالفه فاتركوا قولي لكتاب الله فقيل: إذا كان خبر رسول الله ﷺ يخالفه؟ قال: اتركوا قولي لخبر رسول الله. فقيل: إذا كان قول صحابي يخالفه؟ قال: اتركوا قولي لقول الصحابي حكاه في «خزانة الرواية» عن روضة العلماء «الرندوسية». وقال: لا يحل لأحد أن يفتي بقولنا ما لم يعلم من أين قلناه. حكاه في «الخزانة» عن «السراجية» وغيرها. قال الفلاني: ومن جملة أسباب تسليط الفرنج على بعض بلاد المغرب والتتر على بلاد المشرق كثرة التعصب والتفرق والفتن بينهم في المذاهب وكل ذلك من اتباع الظن وما تهوى الأنفس ولقد جاءهم من ربهم الهدى. انتهى. وقلت: ومن أسباب التسلط على إقليم الهند تقديم التقليد على الاتباع وتفضيل البدع على السنن. وقد

وقع فيه من الآفات وزوال الشوكة من أهل الإسلام ما ليس بخافٍ على مختبر.

(الله الله) ليس بكلام ولا توحيد

قال في «تطهير الاعتقاد»: فإن قلت: قد يتفق للأحياء أو للأموات اتصال جماعة بهم يفعلون خوارق من الأفعال يتسمون بالمجاذيب فما حكم ما يأتون به من تلك الأمور؟ قلت: (أما المسمون بالمجاذيب الذين يلوكون لفظ الجلالة بأفواههم ويقولونها بألسنتهم ويخرجونها عن لفظها العربي فهم من أجناس إبليس اللعين ومن أعظم حمر الكون الذين ألسنتهم حلل التلبيس والتزيين لأن إطلاق لفظ الجلالة مفرد عن إخبار عنها بقولهم (الله الله) ليس بكلام ولا توحيد. وإنما يلعب بهذا اللفظ الشريف بإخراجه عن لفظه العربي ثم إخلاؤه عن المعنى. ولو أن رجلاً عظيماً صار مسمى بزيد وصار جماعة يقولون له (زيد زيد) يعد ذلك استهزاء وإهانة وسخرية لا سيما إذا زادوا إلى ذلك تحريف اللفظ.

ثم انظر هل جاء في لفظة من الكتاب والسنة ذكر الجلالة بانفرادها وتكريرها؟ إذاً الذي فيهما هو طلب الذكر والتوحيد والتسبيح والتهليل وهذه أذكار رسول الله ﷺ وأصحابه خالية عن هذا الشهيق والنهيق والنعيق التي اعتادوها من هو عن هدى رسول الله ﷺ وسمته ودله في مكان سحيق.

ثم قد يضيفون إلى الجلالة الشريفة أسماء جماعة من الموتى والمقبورين مثل (ابن علوان) و(أحمد بن الحسين) و(عبدالقادر) (وعيد روس) بل قد انتهى الحال بهم إلى أنهم يفدون إلى أهل القبور من أهل الظلم والجرأة (كعلي رومان) (وعلي الأحمر) وأشباههما.

ولقد صان رسوله ﷺ وأعيان الصحابة عن إدخالهم في أفواه هؤلاء الجهلة الضلال فيجمعون أنواعاً من الجهل والشرك والكفر. انتهى.

حجج القائلين بمشروعية الذكر بالاسم المفرد والرد عليهم

قلت: وأما قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُۖ ثُمَّ ذَرۡهُمۡ فِي خَوۡضِهِمۡ يَلۡعَبُونَ ۝٩١﴾ [سورة الأنعام: ٩١] وقول رسول الله ﷺ: «**حَتَّى لَا يَبْقَى عَلَى وَجْهِ الأَرْضِ مَنْ يَقُولُ: اللهُ، اللهُ**»[1] أو كما قال، فليس من هذا الوادي ولا من جملة الأذكار المأمور بها بل هما في سياق آخر والمراد بهما قول لا إله إلا الله، على طريقة الرمز والإيجاز والإشارة إلى المحذوف المقدر فتدبر.

خوارق الذين يهتفون بالاسم المفرد

ثم قال صاحب «التطهير»: فإن قلت: إنه قد يتفق من هؤلاء الذين يلوكون [لفظ] الجلالة ويضيفون إليها أهل الخلاعة والبطالة خوارق عادات وأمور تظن كرامات كطعن أنفسهم وحمل الحنش والحية والعقرب وأكلهم النار ومسهم إياها بالأيدي وتقلبهم فيها بالأجسام [من دون أن تحرقهم]. قلت: هذه أحوال شيطانية وإنك لملبوس عليك إن ظننتها كرامات للأموات أو حسنات للأحياء لما هتف هذا الضال بأسمائهم جعلهم أندادا لله وشركاء له في الخلق والأمر.

تنزيه الأنبياء والأولياء مما ينسبه الدجالون من المجاذيب وغيرهم

فهؤلاء الموتى والمقبورون أنت تفرض أنهم أولياء الله تعالى؛ فهل يرضى ولي الله أن يجعله المجذوب أو السالك شريكاً لله تعالى ونداً، إن زعمت ذلك فقد جئت شيئاً إدّاً أو صيرت هؤلاء الأموات مشركين وأخرجتهم -وحاشاهم عن ذلك- عن دائرة الإسلام والدين حيث جعلتم بجعلهم أنداداً لله راضين فرحين. قلت: وقد قال الله تعالى: ﴿وَمَن يَقُلۡ مِنۡهُمۡ إِنِّيٓ إِلَٰهٞ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجۡزِيهِ جَهَنَّمَۚ كَذَٰلِكَ

---

(١) أخرجه مسلم (١٤٨) والترمذي (٢٢٠٧) وأحمد (١٢٠٤٣).

﴿نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [سورة الأنبياء: ٢٩] وقال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِّي مِن دُونِ اللَّهِ﴾ الآية [سورة آل عمران: ٧٩]. وقد شمل لفظ الكتاب أهل العلم جميعاً ولفظ الحكم الحكام والملوك والولاة كلهم ولفظ النبوة: الأنبياء والرسل أجمعين. فتقرر بهذا أنه ليس لأحد من هؤلاء الأصناف الثلاثة التي لا أفضل منهم في الخلق أن يقول هذه المقالة الشنيعة المذكورة لأن في القول بها وفي الأمر بقولها يثبت الشرك. انتهى قولي. أو تزعم أن هذه كرامات لهؤلاء المجاذيب الضُّلَّال المشركين التابعين لكل باطل المنغمسين في بحار الرذائل الذين لا يسجدون لله سجدة واحدة ولا يذكرون الله. فإن أثبت هذا فقد أثبت الكرامات للمشركين الكافرين المجانين وهدمت بذلك ضوابط الإسلام وقواعد الدين المبين والشرع المتين، وإذا عرفت بطلان هذين الأمرين علمت أن هذه أحوال شيطانية وأفعال طاغوتية وأعمال إبليسية. فلا يغتر من يشاهد ما يعظم في عينيه من أحوال المجاذيب من الأمور التي يراها عنده خوارق فإن للسحر تأثيراً عظيماً في الأفعال. وقد ذكر ابن بطوطة وغيره أنه شاهد في بلاد الهند قوماً توقد لهم النار العظيمة فيلبسون الثياب الرقيقة ويخوضون في تلك النار ويخرجون وثيابهم كأنها لم يمسها شيء. انتهى. قلت: ويقال لهؤلاء القوم في اصطلاحهم وعرفهم: الأبدال وكان منهم في زماننا هذا في بلدة (قنْوج) من بلاد الهند ثم انقرضوا. انتهى. وأهل هذا الشأن والحكايات والواقعات من هذا الجنس كثير وأهلها في الهند وفي غيره أيضاً كثيرون.

أنواع الدجالين

والسحرة والمشعبذون وأهل النّيرنْجات أصناف كثيرة. منهم: يقال لهم في الفارسية (صوات باز) وفي الهندية (بروبيا) وهو كالغول في الفعل بالعربية. ومنهم

من يقال لهم بالهندية (نث) وبالفارسية (رسن بازوغاز) وحدث في هذا الزمن أنواع أخرى (في زمن المصنف) منهم: من يعمل عمل المغناطيس الحيواني ويخبر عن الغيب ومنهم: من يقال لهم (فرامشن) بالنصرانية وهم من جنس السحرة. ومنهم: من يدعي الكلام مع الموتى إلى غير ذلك من أنحاء الكفرة وما يوم من الأيام إلا ويحدث فيه لعب أو لهْو جديد لم يكن قبله ولم يعلم به أحد. والناس مولعون بهذا ولكن اين جندب أو مثله في هذا العصر [أو في كل عصر] حتى يُدفع شر ذلك بالسيف ويُمكن الإسلام في مكانه بل إن فاه أحد من أهل العلم بذم هذه الأفعال وصرح بتحريمه أو كفره أو شركه في كتاب من كتبه فذاك غنيمة وإن لم يقبله أحد.

حكم شد الرحال إلى قبور الأنبياء والأولياء

وأقول: مسألة السفر والرحلة وشد الرحال إلى زيارة القبور من المسائل التي اختلفت فيها العلماء قديماً وحديثاً بل قامت عليها القيامة بين أئمة الحنابلة وغيرهم ووقعت لها قلاقل وزلازل في كل قطر وعصر إلى يومنا هذا في العرب والعجم جميعاً [بل قد استمر هذا إلى يومنا هذا] وذهب كل ذاهب من أهل المذاهب الأربعة إلى ما دعته إليه شكيمته ودندن كل واحد من أصحاب المشارب حول فكرته، وجاء كل امرئٍ بما لديه وما بدا له فيها، ولم يهتد فيما علمت في هذه المسألة إلا أصحاب الحديث وعصابة المتبعين له وللقرآن الكريم وطال البحث في ذلك في رسائل مستقلة ومسائل مفردة وفي كتب شروح الحديث حتى ضاق نطاق التحذير من ضبط هذه الإطالة والحق ما حققه صاحب «الصارم المنكي» وصاحب «عون الباري» وغيرهما من أهل التحقيق. وقد تقرر في موضعه أنه إذا وقع الخلاف بين الناس في كون الشيء جائز [أو غير جائز] يجب الرد فيه إلى كتاب الله وسنة رسوله

ﷺ فهذه المسألة من هذا القبيل لأنه وقع فيها الخلاف بين العلماء منذ زمن طويل فوجب الرد فيه إلى القرآن والحديث ليتبين المصيب من المخطئ ومن بيده الحق ومن بيده غيره حتى يعرف حق معرفته ويتضح غاية الاتضاح وهي مسألة الزيارة والرحلة لها.

تحقيق القول في معنى حديث شد الرحال

فنقول: إن هذا الحديث: أي حديث شد الرحال ورد في المنع من السفر إلى غير هذه المساجد الثلاثة لقصد العبادة فيها لكونها جميعاً -سوى هذه- متساوية الأقدام في الفضيلة. ففي أي مسجد عبد الله جاز ومن عبده في أحد هذه المساجد فله فضل على العابد في غيرها وفيه أيضاً إشارة إلى فضيلة هذه المساجد على غيرها كما في حديث أبي هريرة يرفعه: «**صَلَاةٌ فِي مَسْجِدِي هَذَا خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ صَلَاةٍ فِيمَا سِوَاهُ إِلَّا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ**» متفق عليه[1].

وفي حديث أنس: «**صَلَاةٌ فِي الْمَسْجِدِ الأَقْصَى بِخَمْسِ مَائَةِ صَلَاةٍ وَصَلَاةٍ فِي مَسْجِدِي بِأَلْفِ صَلَاةٍ وَصَلَاةٌ فِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ بِمِائَةِ أَلْفِ صَلَاةٍ**» رواه ابن ماجة[2]، وفي الباب أحاديث ووردت الأخبار أيضاً في فضل مسجد قباء منها حديث ابن عمر قال: «**كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَأْتِي مَسْجِدَ قُبَاءٍ كُلَّ سَبْتٍ مَاشِيًا وَرَاكِبًا وَيُصَلِّي فِيهِ رَكْعَتَيْنِ**» متفق عليه[3].

وقد نزلت الآية الكريمة ﴿لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ﴾ [سورة التوبة: ١٠٨] في شأن هذا المسجد ومسجد المدينة معاً.

فثبت بهذا أن الحديث ورد مورد الحث على الترحل إلى أحد هذه المساجد

(١) رواه البخاري (١١٩٠) ومسلم (١٣٩٤).

(٢) رواه ابن ماجة (١٤١٣)، وضعفه الألباني.

(٣) رواه البخاري (١١٩٣) ومسلم (١٣٩٩) وأبو داود (٢٠٤٠).

الثلاثة خاصة حتى أن مسجد قباء لم يرغب في شد الرحال إليه مع كونه ذا فضيلة عظيمة. وهذا يدل على المستثنى منه هو المساجد دون المواضع. لأنها لو كانت مرادة لم يصح السفر إلى موضع غير المساجد مع أن السفر للهجرة ولطلب العلم وللتجارة وغيرها ثبت في الآيات القرآنية والأحاديث الصحيحة، فلا معنى لمنع السفر لغرض من أغراض الدين والدنيا استدلالاً بهذا الحديث، فليس فيه من هذا رائحة، إنما فيه بيان فضيلتها وجواز السفر إليها لعبادة الله، لأن المساجد بنيت لهذه كما قال تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾﴾ [سورة الجن: ١٨] ونهى عن السفر إلى المساجد الأخرى لهذه الحسنة حتى إلى مسجد قباء وأما استنباط منع السفر لزيارة القبور فظهر لي أنه بعيد عن سباقه وسياقه وإن استدل به بعض أئمة العلم نعم لمنع شد الرحل إلى زيارة الموتى أدلة أخرى تكفي له ويكفي منها أنه لم يثبت أمر الرسول ﷺ بالسفر إلى مشاهد الموتى الخالية ومقابرهم البالية ولم يسافر أحد من الصحابة وأهل البيت وتابعيهم بالإحسان إلى قبر من القبور البعيدة عن بلادهم الواقعة في قطر من الأقطار أو مصر من الأمصار.

وما ليس عليه أمر الرسول فهو مردود كما في الحديث الصحيح: «**مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ فِيهِ فَهُوَ رَدٌّ**»(١) ولا شك أن السفر لأغراض أخرى قد ثبت عنه ﷺ وعن أصحابه وتابعيهم ثبوتاً لا شك فيه فلو كان هذا السفر جائزاً في الشرع لابد أن يقع من أحدهم [ولم يقع من ذلك شيء منهم] وهذا يدل على أنهم لم يروا هذا السفر جائزاً أو لم يكن هذا فيهم شائعاً مأثوراً وهذا الكلام في السفر لزيارة القبور عموماً أن المفهوم من الحديث المنع من شد الرحل للقبور ويؤيده ما قاله المؤلف.

(١) رواه البخاري (٢٦٩٧) ومسلم (١٧١٨) وتقدم.

حكم السفر وشد الرحل لزيارة قبر الرسول صلى الله عليه وسلم

وأما خصوصاً السفر لزيارة سيد المرسلين ففيه مذهبان:

الأول: قالت جماعة: هو أيضاً مندرج في النهي عن السفر إليها. وقالت الطائفة الثانية: أن السفر جائز. ثم اختلفوا فيها فقالت طائفة مستحب وقالت أخرى: قريبة من الواجب واستدلوا بأحاديث وردت في فضل زيارته ﷺ وفي الاستدلال بها من وجهين:

الأول: أنه ليس فيها ذكر السفر للزيارة حتى يصح الاحتجاج بها ونفس الزيارة لا يقول أحد بمنعها بل هي مستحبة مندوبة أو سنة صحيحة بالنسبة إلى جميع القبور فكيف بقبر هو سيد القبور.

والثاني: أن تلك الأحاديث تكلم فيها أهل الحديث ولم يصح منها إلا شيء يسير حكموا عليه أيضاً بالضعف واللين ولا حجة بالضعاف في مثل هذه المسائل وعلى هذا دخلت زيارة النبي ﷺ في الأمر المطلق في زيارة القبور. وعليه فزيارة قبره لمن حضر في المدينة يحصر بطرق:

أحدها: أن الزائر ساكن المدينة فالزيارة عليه سهلة.

الثاني: من إذا ورد بها ناوياً المسجد الشريف فإذا حضر المسجد تيسر له الزيارة.

الثالث: من كان مكارياً أو ملازماً لأحد في تجارة أو غيرها وجاء بها تبعاً وحضرها بالعرض فعليه أن يزوره ﷺ. ولا خلاف بين أهل العلم في سنية زيارته ﷺ. وقد ذهب إمام دار الهجرة مالك بن أنس والقاضي عياض من أئمة المالكية إلى منع السفر لزيارة القبور وكرهوها [بمعنى حرموها] وبه قال شيخ الإسلام ابن تيمية وابن القيم وابن عقيل وابن بطة من الحنابلة وإمام الحرمين أبو محمد الجويني وأحمد ولي أمر الدهلوي وغيرهم [من المتقدمين والمتأخرين] وعن أبي هريرة رضي

الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**لَا تَجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قُبُورًا وَلَا تَجْعَلُوا قَبْرِي عِيدًا وَصَلُّوا عَلَيَّ فَإِنَّ صَلَاتَكُمْ تَبْلُغُنِي حَيْثُ كُنْتُمْ**» رواه النسائي وأبو داود بإسناد حسن، رجاله ثقات(١).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: لا تعطلوها من الصلاة فيها والدعاء والقراءة فتكون بمنزلة القبور فأمر بتحري العبادة في البيوت ونهى عن تحريها عند القبور عكس ما يفعله المشركون من النصارى ومن تشبه بهم من هذه الأمة. والعيد: اسم لما يعود من الاجتماع العام على وجه معتاد. عائد إما بعود السنة أو بعود الأسبوع أو الشهر ونحو ذلك. وقال ابن القيم: العيد: ما يعتاد مجيئه وقصده من زمان ومكان مأخوذ من المعاودة والاعتياد. فإذا كان اسماً للمكان فهو المكان الذي يقصد فيه الاجتماع والانتياب بالعبادة ولغيرها كما أن المسجد الحرام ومنى ومزدلفة وعرفة والمشاعر جعلها الله عيداً للحنفاء ومثابة للناس وأمناً كما عوضهم من أعياد المشركين المكانية بالكعبة ومنى ومزدلفة وعرفة والمشاعر كما جعل أيام العيد منها عيداً وكان للمشركين أعياد زمانية ومكانية فأبدلها الله لما جاء بالإسلام وعوض الحنفاء عنها عيد الفطر وعيد النحر. قال ابن تيمية: الحديث يشير إلى أن ما ينالني منكم من الصلاة والسلام يحصل مع قربكم من قبري وبعدكم عنه بلا حاجة بكم إلى اتخاذه عيداً. انتهى.

قلت: والحديث دليل على منع السفر لزيارته ﷺ لأن المقصود منها هو الصلاة والسلام عليه والدعاء له ﷺ وهذا يمكن استحصاله من بعد كما يمكن من قرب وأن من سافر إليه وحضر مع ناس آخرين [أو حضر وحده] فقد اتخذه عيداً وهذا منهي عنه بنص الحديث. فثبت منع شد الرحل لأجل ذلك بإشارة النص كما ثبت النهي عن جعله عيداً بدلالة النص. وهاتان الدلالتان معمول بهما عند أهل

---

(١) رواه النسائي في «الكبرى» (٨٠٣٠) وأبو داود (٢٠٤٢) وأحمد (٨٨٠٤)، وصححه الألباني.

الأصول ووجه هذه الدلالة على المراد قوله: تبلغني حيث كنتم؛ فإنه يشير إلى البعد والبعيد عنه ﷺ لا يحصل له القرب باختيار السفر إليه والسفر يصدق على أقل مسافة من يوم فكيف بمسافة بعيدة؟ ففيه النهي عن السفر لأجل الزيارة والله أعلم. والحديث حسن جيد الإسناد وله شواهد كثيرة يرتقى بها إلى درجة الصحة. قاله الحافظ محمد بن عبدالهادي.

قال في «فتح المجيد»: رواته مشاهير، لكن قال أبو حاتم الرازي: فيه عبدالله بن نافع ليس بالحافظ تعرف منه وتنكر. وقال ابن معين: هو ثقة. وقال أبو زرعة: لا بأس به. قال ابن تيمية رضي الله عنه: ومثل هذا إذا كان لحديثه شواهد علم أنه محفوظ وهذا له شواهد متعددة. انتهى. قلت: ومن شواهده الصادقة ما روى علي بن الحسين رضي الله عنه أنه رأى رجلاً يجيء إلى فرجة كانت عند قبر النبي ﷺ فيدخل فيها فيدعو فنهاه وقال: ألا أحدثكم حديثاً سمعته من أبي عن جدي عن رسول الله ﷺ قال: **«لَا تَتَّخِذُوا قَبْرِي عِيدًا وَلَا بُيُوتَكُمْ قُبُورًا وَصَلُّوا عَلَيَّ فَإِنَّ تَسْلِيمَكُمْ يَبْلُغُنِي أَيْنَ كُنْتُمْ»** رواه في «المختارة»، ورواه أبو يعلى والقاضي إسماعيل وغيرهم[1]. قال ابن تيمية: انظر هذه السنة كيف مخرجها من أهل المدينة وأهل البيت الذين لهم من رسول الله ﷺ قرب النسب وقرب الدار ولأنهم إلى ذلك أحوج من غيرهم فكانوا له أضبط. انتهى.

والحديث دل على النهي عن قصد القبور والمشاهد لأجل الدعاء والصلاة عندها لمن هو في المدينة المنورة على ساكنها الصلاة والتحية فكيف بمن قصدها من مسافة طويلة واختار لها السفر وشد إليها الرحل. قال شيخ الإسلام: ما علمت أحداً رخص فيه لأن ذلك نوع من اتخاذه عيداً ويدل أيضاً أن قصد القبر للسلام إذا دخل المسجد منهي عنه لأن ذلك لم يشرع. وكره مالك لأهل المدينة كلما دخل

---

(١) رواه الضياء المقدسي في «المختارة» (٤٢٨) وأبو يعلى في «مسنده» (٤٦٩)، وفي إسناده ضعف.

الإنسان المسجد يأتي قبر النبي ﷺ لأن السلف لم يكونوا يفعلون ذلك ولن يصلح آخر هذه الأمة إلا ما أصلح أولها وكان الصحابة والتابعون يأتون إلى مسجد النبي ﷺ فيصلون فإذا قضوا الصلاة قعدوا أو خرجوا ولم يكونوا يأتون القبر للسلام لعلمهم أن الصلاة والسلام عليه في الصلاة أكمل وأفضل. وأما دخولهم عند قبره للصلاة والسلام عليه هناك أو للصلاة والدعاء فلم يشرع لهم بل نهاهم عنه بقوله: «وَلَا تَجْعَلُوا قَبْرِي عِيدًا وَصَلُّوا عَلَيَّ فَإِنَّ صَلَاتَكُمْ تَبْلُغُنِي»[1]، فبين أن الصلاة تصل إليه من بُعْدٍ وكذا السلام. ولعن من اتخذ قبور الأنبياء مساجد.

وكانت الحجرة في زمانهم يدخل إليها من الباب إذا كانت عائشة رضي الله عنها فيها، وبعد ذلك إلى أن بني الحائط الآخر، وهم مع ذلك التمكن من الوصول إلى قبره ﷺ لا يدخلون إليه، لا لسلام ولا لصلاة، ولا لدعاء لأنفسهم ولا لغيرهم، ولا لسؤال عن حديث أو علم، ولا كان الشيطان يطمع فيهم حتى يُسمع كلاماً أو سلاماً، فيظنون أنه كلمهم وأفتاهم وبين لهم الأحاديث، أو أنه قد رد عليهم السلام بصوت يُسمع من خارج، كما طمع الشيطان في غيرهم فأضلهم عند قبره الشريف وقبر غيره، حتى ظنوا أن صاحب القبر يأمرهم وينهاهم ويفتيهم ويحدثهم في الظاهر، وأنه يخرج من القبر ويرونه، والمقصود أن الصحابة لم يكونوا يعتادون الصلاة والتسليم عليه ﷺ عند قبره الشريف، كما يفعله من بعدهم من الخلوف [الضالة عن سواء السبيل].

آراء الأئمة في كيفية زيارة النبي صلى الله عليه وسلم

وفي «المبسوط» قال مالك: لا أرى أن يقف عند قبر النبي ﷺ ولكن يسلم ويمضي ونص الإمام أحمد على أنه يستقبل القبلة ويجعل الحجرة عن يساره لئلا

---

(١) تقدم تخريجه قريباً.

يستدبره. وبالجملة فقد اتفق الأئمة على أنه إذا دعا لا يستقبل القبر وتنازعوا هل يستقبله عند السلام أم لا؟ انتهى.

قلت: وأما الآن فرأيت الناس في المسجد الشريف إذا سلم الإمام من الصلاة قاموا في مصلاهم مستقبلين القبر الشريف راكعين له ومنهم من يلتصق بالسرادق ويطوف حوله، بل ود بعضهم لو فعل أكثر من ذلك لو حصل لهم التمكن من ذلك، وكل ذلك حرام باتفاق العلماء وفيه ما يجر الفاعل إلى الشرك. ومنهم من يفعل هناك أفعالاً ليس عليها أثارة من علم ولا دين فيا لله من هذه المخالفة الظاهرة لأمره ﷺ ولسيرة سلف الأمة وأئمتها.

إجماع الأئمة على عدم مشروعية التمسح بقبر النبي وقبر غيره من الأنبياء من الصالحين

وأما التمسح بقبر النبي ﷺ وتقبيله فكلهم كره ذلك [بمعنى حرمه] ونهى عنه، وذلك أنهم علموا ما قصده النبي ﷺ من حسم مادة الشرك، وتحقيق التوحيد وإخلاص الدين لله رب العالمين.

واتفق العلماء على أن من زار قبر النبي ﷺ أو قبر غيره من الأنبياء والصالحين أو الصحابة وأهل البيت وغيرهم فإنه لا يتمسح به ولا يقبله بل ليس في الدنيا من الجمادات ما يشرع تقبيلها إلا الحجر الأسود.

وقد ثبت في الصحيحين(١) أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: «**وَاللهِ إِنِّي أَعْلَمُ أَنَّكَ حَجَرٌ لَا تَضُرُّ وَلَا تَنْفَعُ وَلَوْلَا أَنِّي رَأَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يُقَبِّلُكَ مَا قَبَّلْتُكَ**» ولهذا لا يسن باتفاق الأئمة أن يقبل الرجل (أو المرأة) أو يستلم ركني البيت الذين يليان الحجر ولا جدلان البيت ولا مقام إبراهيم ولا صخرة بيت المقدس ولا قبر

---

(١) رواه البخاري (١٥٩٧) ومسلم (١٢٧٠).

أحد من الأنبياء والصالحين.

ولم يكن أحد من سلف الأمة في عصر الصحابة ولا التابعين ولا تابعي التابعين يتخيرون الصلاة والدعاء عند قبور الأنبياء ويسألونهم ولا يستغيثون بهم لا في مغيبهم ولا عند قبورهم وكذلك العكوف عندها.

ومعلوم أن خير الخلق وأكرمهم على الله نبينا محمد ﷺ وأعلم الناس بقدره وحقه أصحابه ولم يكونوا يفعلون شيئاً من ذلك لا في مغيبه ولا بعد موته وهؤلاء المشركون يضمون إلى الشرك الكذب فإن الكذب مقرون بالشرك.

وقد قال تعالى: ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ ۝٣٠﴾ [سورة الحج: ٣٠] وقال النبي ﷺ: «**عُدِلَتْ شَهَادَةُ الزُّورِ بِالإِشْرَاكِ بِالله مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا**»[١] فمن كذبهم أن أحدهم يقول عند شيخه: إن المريد إذا كان بالمغرب وشيخه بالمشرق وانكشف غطاؤه رد عليه وأن الشيخ إن لم يكن كذلك لم يكن شيخاً.

حكم التوسل بجاه الأنبياء والصالحين

وأما حكم من يقول: اللهم بجاه فلان عندك أو ببركة فلان أو بحرمة فلان عندك افعل بي كذا وكذا فهذا يفعله كثير من الناس لكن لم ينقل عن أحد من الصحابة والتابعين وسلف الأمة أنهم كانوا يدعون بمثل هذا الدعاء.

وأما التمسح بالقبر أي قبر كان وتقبيله وتمريغ الخد عليه فمنهي عنه باتفاق المسلمين ولو كان ذلك من قبور الأنبياء ولم يفعل ذلك أحد من سلف الأمة وأئمتها بل هذا من الشرك.

---

(١) رواه أبو داود (٣٥٩٩) والترمذي (٢٣٠٠) وابن ماجة (٢٣٧٢) وأحمد (١٨٨٩٨)، وضعفه الألباني.

حكم الانحناء والسجود ونحو ذلك

وأما وضع الرأس عند الملوك والكبراء من الشيوخ وغيرهم أو تقبيل الأرض ونحو ذلك فإنه مما لا نزاع فيه بين الأئمة في النهي عنه بل مجرد الانحناء بالظهر لغير الله عز وجل منهي عنه. ففي المسند وغيره: أَنَّ مُعَاذ بْنَ جَبَلٍ لَمَّا رَجعَ مِنَ الشَّام سَجَدَ لِلنَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: «**مَا هَذَا يَا مُعَاذُ؟**» قَالَ: يَا رَسُولَ الله رَأَيْتُهُمْ فِي الشَّامِ يَسْجُدُونَ لِأَسَاقِفَتِهِمْ وَيَذْكُرُونَ ذَلِكَ عَنْ أَنْبِيَائِهِمْ فَقَالَ: «**كَذَبُوا يَا مُعَاذُ لَوْ كُنْتُ آمِرًا أَحَدًا أَنْ يَسْجُدَ لِأَحَدٍ لَأَمَرْتُ المَرْأَةَ أَنْ تَسْجُدَ لِزَوْجِهَا مِنْ عِظَمِ حَقِّهِ عَلَيْهَا، يَا مُعَاذُ أَرَأَيْتَ إِنْ مَرَرْتَ بِقَبْرِي أَكُنْتَ سَاجِدًا؟**» قَالَ: لَا. قَالَ: «**لَا تَفْعَل هَذَا**»[١]. بل قد ثبت في الصحيح من حديث جابر: أنه ﷺ صلى بأصحابه قاعداً من مرض كان به فصلوا خلفه قياماً فأمرهم بالجلوس وقال: «**إِنْ كِدْتُمْ آنِفًا لَتَفْعَلُونَ فِعْلَ فَارِسَ وَالرُّومِ يَقُومُونَ عَلَى مُلُوكِهِمْ، وَهُمْ قُعُودٌ فَلَا تَفْعَلُوا ائْتَمُّوا بِأَئِمَّتِكُمْ إِنْ صَلَّى قَائِمًا فَصَلُّوا قِيَامًا وَإِنْ صَلَّى قَاعِدًا فَصَلُّوا قُعُودًا**»[٢]، وقال: «**مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَتَمَثَّلَ لَهُ النَّاسُ قِيَامًا فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ**»[٣] فإذا كان قد نهاهم مع قعوده وإن كانوا قاموا في الصلاة حتى لا يتشبهوا بمن يقومون لعظمائهم وبيّن أن من سره القيام له كان من أهل النار فكيف بما فيه السجود له ومن وضع الرأس وتقبيل الأيادي. وقد كان عمر بن عبدالعزيز رضي الله عنه وهو خليفة على الأرض كلها قد وكل أعواناً يمنعون الداخل من تقبيل الأرض ويؤدبهم إذا قبل أحد الأرض. وبالجملة فالقيام والقعود والركوع والسجود حق للواحد المعبود خالق السماوات والأرض وما فيها.

---

(١) رواه أحمد (١٩٤٠٣) وابن ماجة (١٨٥٣)، وصححه ابن حبان (٤١٧١).

(٢) أخرجه مسلم (٤١٣) وأبو داود (٦٠٢) والنسائي (١٢٠٠) وابن ماجه (١٢٤٠).

(٣) رواه أبو داود (٥٢٢٩) والترمذي (٢٧٥٥) وأحمد (١٦٨٣٠)، وصححه الألباني.

التحذير من الشرك ووسائله

وإخلاص الدين لله هو أصل العبادة ونبينا ﷺ نهى عن الشرك دقه وجله وحقيره وكبيره حتى أنه قد تواتر عنه أنه نهى عن الصلاة وقت طلوع الشمس ووقت غروبها بألفاظ متنوعة. تارة يقول: «**لَا تَحَرَّوْا بِصَلَاتِكُمْ طُلُوعَ الشَّمْسِ وَلَا غُرُوبَهَا**»(١)، وتارة ينهى عن الصلاة بعد طلوع الفجر حتى تطلع الشمس وبعد العصر حتى تغرب الشمس وتارة بذكر أن الشمس إذا طلعت تطلع بين قرني شيطان وحينئذ يسجد لها الكفار ونهى عن الصلاة في هذا الوقت لما فيه من مشابهة الكفار المشركين في كونهم يسجدون للشمس في هذا الوقت وأن الشيطان يقارن الشمس حينئذ ليكون السجود له فكيف بما هو شرك ومشابهة للمشركين.

بيان الوجوه المحتملة في قول القائل: حصل هذا ببركة فلان

وقول القائل: ببركة الشيخ قد يعني بها دعاءه وأسرع الدعاء إجابة دعاء غائب لغائب -وقد يعني بها بركة ما أمره به وعلمه من الخير- وقد يعني بها بركة معاونته له على الحق وموالاته في الدين ونحو ذلك وهذه كلها معاني صحيحة. [ومثل ذلك من غير الشيخ].

وقد يعني بها دعاءه للميت والغائب إذ استقلال الشيخ بذلك التأثير أو فعله لما هو عاجز عنه أو غير قادر عليه أو غير قاصد له متابعته أو مطاوعته على ذلك من البدع والمنكرات من هذه المعاني الباطلة.

والذي لا ريب فيه أن العمل بطاعة الله تعالى ودعاء المؤمنين بعضهم لبعض ونحو ذلك فهو نافع في الدنيا والآخرة وذلك بفضل الله ورحمته ﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢١﴾﴾ [سورة الحديد: ٢١].

---

(١) رواه البخاري (٥٨٣) ومسلم (٨٢٨).

بطلان مراتب الأولياء كالغوث ونحوه

وأما سؤال السائل عن القطب الفرد فهذا قد يقوله طوائف من الناس ويفسرونه بأمور باطلة في دين الإسلام مثل تفسير بعضهم: إن الغوث هو الذي يكون مدد الخلائق بواسطته في نصرهم ورزقهم حتى يقول: إن مدد الملائكة وحيتان البحر بواسطته. فهذا من جنس قول النصارى في المسيح عليه السلام، والغالية في علي رضي الله عنه، وهذا كفر صريح يستتاب صاحبه فإن تاب وإلا قتل، فإنه ليس من المخلوقات لا ملك مقرب ولا نبي ولا بشر من سائر الناس يكون إمداد الخلائق بواسطته ولهذا كان ما يقوله الفلاسفة في العشرة الذين يزعمون أنها الملائكة وما يقوله النصارى في المسيح ونحو ذلك كفر باتفاق المسلمين.

بطلان القول بحياة الخضر

ومن قال: إن الخضر نقيب الأولياء أو أنه يعلمهم كلهم فقد قال الباطل. والصواب ما قاله المحققون أنه ميت وأنه لم يدرك الإسلام ولو كان موجوداً في زمن النبي ﷺ لوجب عليه أن يؤمن به ويجاهد معه كما أوجب الله ذلك عليه وعلى غيره ولكان يكون في مكة والمدينة ولكان يكون مع الصحابة للجهاد معهم وإعانتهم على الدين أولى به من حضوره عند قوم كفار ليرقع لهم سفينتهم ولم يكن مختفياً عن خير أمة أخرجت للناس وهو قد كان بين المشركين ثم أنه ليس للمسلمين به وأمثاله حاجة لا في دينهم ولا في دنياهم فإن دينهم أخذوه عن الرسول ﷺ الأمي الذي علمهم الكتاب والحكمة وقال لهم نبيهم: «**لَوْ كَانَ مُوسَى حَيًّا ثُمَّ اتَّبَعْتُمُوهُ وَتَرَكْتُمُونِي لَضَلَلْتُمْ**»[1] وعيسى بن مريم عليه السلام إذا نزل من

---

(١) رواه الدارمي (٤٤٩)، ورواه أحمد (١٥١٥٦).

السماء إنما يحكم فيهم بكتاب الله وسنة نبيه.

فأي حاجة لهم مع هذا إلى الخضر وغيره. وإذا كان الخضر حياً دائماً فكيف لم يذكر النبي ﷺ ذلك قط ولا أخبر به أمته، ولا خلفاؤه الراشدون. وقول القائل: إنه نقيب الأولياء فيقال له: من ولاه النقابة؟ وأفضل الأولياء أصحاب محمد ﷺ وليس فيهم الخضر. وغاية ما يحكى في هذا الباب من الحكايات بعضها كذب وبعضها مبني على ظن رجال مثل شخص رأى رجلاً ظن أنه الخضر وقال: إنه الخضر كما أن الرافضة ترى شخصاً تظن أنه الإمام المنتظر المعصوم أو تدعي ذلك.

تنبيه: [من إجماع الأمة على عدم التمسح بقبر النبي ﷺ. إلى هنا كلام ابن تيمية رحمه الله تعالى لخصته من كتاب المؤلف.]

بيان ما تورثه القباب على القبور وزخرفتها

وكل عاقل يعلم أن لزيادة الزخرفة للقبور وإسبال الستور الرائعة عليها وتسريجها والتأنق في تحسينها تأثيراً في طبائع غالب العوام، ينشأ عنه التعظيم والاعتقادات الباطلة، وهكذا إذا استعظمت نفوسهم شيئاً مما يتعلق بالأحياء وبهذا السبب اعتقدت كثير من الطوائف الإلهية في أشخاص كثيرة. وروي لنا أن بعض أهل جهات القبلة لما وصل إلى القبة الموضوعة على قبر الإمام أحمد بن الحسين صاحب ذي بين رحمه الله فرآها وهي مسرجة بالشمع، والبخور ينفخ في جوانبها، وعلى القبر الستور الفائقة، فقال عند وصوله إلى الباب: أمسيت بالخير يا أرحم الراحمين.

تلاعب سدنة الأضرحة والشياطين في عقول القبوريين

واعلم أن ما حررناه وقررنا من أن كثيراً مما يفعله المعتقدون في الأموات يكون شركاً قد يخفى على كثير من أهل العلم وذلك لا لكونه خفياً في نفسه بل لإطباق

الجمهور على هذا الأمر وكونه قد شاب عليه الكبير وشب عليه الصغير وهو يرى ذلك ويسمعه ولا يرى ولا يسمع من ينكره بل ربما يسمع من يرغب فيه ويندب الناس إليه، [بل لولا إجماعه بصره وسمعه لمن يدعو إلى ذلك لما حصل هذا البلاء المستطر في كل زمان ومكان].

وينضم إلى ذلك ما يظهره الشيطان للناس من قضاء حوائج من قصد بعض الأموات الذين لهم شهرة وللعامة فيهم اعتقاد وربما يقف جماعة من المحتالين ويجلبون الناس بأكاذيب يحكونها عن ذلك الميت ليستجلبوا منهم النذور ويستدروا منهم الأرزاق ويقتنصوا النحائر ويستخرجوا من عوام الناس ما يعود عليهم وعلى من يعولونه ويجعلون ذلك مكسباً ومعاشاً. وربما يهولون على الزائر لذلك الميت بتهويلات [تدفعه إلى الإنفاق في سبيل الشيطان وغير ذلك من التمويهات الباطلة] ويوقدون عليها الشموع والأطياب ويجعلون لزيارته مواسم مخصوصة يجتمع فيها الجمع الغفير من الناس. فينبهر الزائر ويرى ما يملأ عينيه وسمعه من ضجيج الخلق وازدحامهم وتكالبهم على القرب من الميت والتمسح بأحجار قبره والاستغاثة به والالتجاء إليه وسؤاله قضاء الحاجات ونجاح الطلبات مع خضوعهم واستكانتهم وتقريبهم نفائس الأموال ونحرهم أصناف النحائر.

فمع تطاول الأزمنة على هذا يظن الإنسان في مبادئ عمره وأوائل أيامه أن ذلك من أعظم القربات وأفضل الطاعات، ثم لا ينفعه ما تعلمه من العلم بعد ذلك، بل يذهل عن كل حجة شرعية تدل على أن هذا هو الشرك بعينه. وهكذا كل شيء يقلد الناس فيه أسلافهم ويحكمون العادات المستمرة.

وبهذه الذريعة الشيطانية والوسيلة الطاغوتية يبقى المشرك على شركه واليهودي على يهوديته والنصراني على نصرانيته والمبتدع على بدعته.

تحذير عمر بن الخطاب من الجهل بعقائد الجاهلية

قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «**إِنَّمَا تُنْقَضُ عُرَى الإِسْلَامِ عُرْوَةً عُرْوَةً إِذَا نَشَأَ فِي الإِسْلَامِ مَنْ لَا يَعْرِفُ الجَاهِلِيَّةَ**»، وهذا لأنه إذا لم يعرف الشرك وما عابه القرآن وذمه وقع فيه وأقره وهو لا يعرف أنه الذي كان عليه أهل الجاهلية فتنقض بذلك عرى الإسلام ويعود المنكر معروفاً والمعروف منكراً والبدعة سنة والسنة بدعة. ويكفر الرجل بمحض الإيمان وتجريد التوحيد ويبتدع بتجريد متابعته ﷺ ومفارقته أهل الأهواء والبدع ومن له بصيرة وقلب سليم يرى ذلك عياناً انتهى من قول ابن القيم.

بيان حكم البناء على القبور والصلاة فيها

عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ فِي مَرَضِهِ الَّذِي لَمْ يَقُمْ مِنْهُ: «**لَعْنَةُ اللهِ عَلَى اليَهُودِ وَالنَّصَارَى اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ**» متفق عليه[1].

قال في «اللمعات»: لما أعلمه الله بقرب أجله خشي أن يفعل بعض أمته بقبره الشريف ما فعله أهل الكتاب بقبور أنبيائهم فنهى عن ذلك. فالحديث برهان قاطع لمواد النزاع بين العلماء وحجة نيرة على كون هذه الأفعال جالبة للعن، واللعن أمارة الكبيرة المحرمة أشد التحريم؛ فمن اتخذ مسجداً بجوار نبي أو صالح رجاء بركته في العبادة ومجاورة روح ذلك الميت فقد شمله الحديث شمولاً واضحاً كشمس النهار.

ومن توجه إليه واستمد منه فلا شك أنه أشرك بالله وخالف أمر رسوله ﷺ في هذا الحديث وما ورد في معناه. عَنْ جُنْدَبَ بْنَ عَبْدِالله رَضِيَ اللهُ عَنْهُ يَرْفَعُهُ: «**أَلَا وَإِنَّ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ كَانُوا يَتَّخِذُونَ قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ وَصَالِحِيهِمْ مَسَاجِدَ أَلَا فَلَا تَتَّخِذُوا**

---

(١) رواه البخاري (٤٣٦) ومسلم (٥٣١).

الْقُبُورَ مَسَاجِدَ فَإِنِّي أَنْهَاكُمْ عَنْ ذَلِكَ» رواه مسلم[١]. النهي أصل في التحريم والحديث دليل على حرمة اتخاذ القبور مواضع للعبادة لكونها مظنة للشرك.

قال في «فتح المجيد»: ثم إنه لعن فاعل ذلك كما في حديث عائشة فكيف يسوغ مع هذا التغليظ أن تعظم القبور ويبنى عليها ويصلى عندها وإليها؟ هذا أعظم مشاقة لله تعالى ولرسوله ﷺ لو كانوا يعقلون. انتهى.

وجوب هدم القباب والمساجد المتخذة على القبور

قال شيخ الإسلام: أما بناء المساجد على القبور فقد صرح عامة الطوائف من أهل العلم بالنهي عنه متابعة للأحاديث الصحيحة وصرح أصحابنا [الحنابلة] وغيرهم من أصحاب مالك والشافعي بتحريمه. قال: ولا ريب في القطع بتحريمه ثم ذكر الأحاديث في ذلك.

ثم قال: وهذه المساجد المبنية على قبور الأنبياء والصالحين أو الملوك والسلاطين وغيرهم تتعين إزالتها بهدم أو بغيره هذا مما لا نعلم فيه خلافاً بين العلماء المعروفين.

النهي عن الجلوس على القبور والصلاة عندها وإليها

وَعَنْ أَبِي مَرْثَدٍ الغَنَوِيِّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: **«لَا تَجْلِسُوا عَلَى الْقُبُورِ وَلَا تُصَلُّوا إِلَيْهَا»** رواه مسلم[٢]. النهي عن الجلوس عليها لأن فيه استخفافاً (بالميت) والنهي عن الصلاة إليها لأن فيه تعظيماً بليغاً. ويؤيد هذا حديث أبي هريرة مرفوعاً: **«لَأَنْ يَجْلِسَ أَحَدُكُمْ عَلَى جَمْرَةٍ فَتُحْرِقَ ثِيَابَهُ فَتَخْلُصَ إِلَى جِلْدِهِ خَيْرٌ لَهُ مِنْ**

---

(١) رواه مسلم (٥٣٢).

(٢) رواه مسلم (٩٧٢) وأبو داود (٣٢٢٩) والترمذي (١٠٥٠) والنسائي (٧٦٠) وأحمد (١٧٢١٦).

أَنْ يَجْلِسَ عَلَى قَبْرٍ» رواه مسلم[(١)]. ويزيده إيضاحاً حديث عمرو بن حزم قال: رَآنِي النَّبِيُّ ﷺ مُتَّكِئًا عَلَى قَبْرٍ فَقَالَ: «**لَا تُؤْذُوا صَاحِبَ هَذَا الْقَبْرِ أَوْ لَا تُؤْذِهِ**» رواه أحمد[(٢)]. وفي حديث جابر: «**نَهَى أَنْ تُوطَأَ**» رواه الترمذي[(٣)]. والمعنى: توطأ بالأرجل والنعال [وفي الحديث النهي عن الصلاة إليها، ومن باب أولى عليها].

بيان حكم البناء على القبور وتجصيصها والكتابة عليها

وأخرج مسلم وأحمد[(٤)] من حديث جابر قال: «**نَهَى رَسُولُ اللهِ ﷺ أَنْ يُجَصَّصَ الْقَبْرُ وَأَنْ يُبْنَى عَلَيْهِ**» وفي رواية أخرى: «**وَأَنْ يُوطَأَ**»[(٥)]، وزاد هؤلاء المخرجون لهذا الحديث: «**أَنْ يُكْتَبَ عَلَيْهَا**»[(٦)]، قال الحاكم: النهي عن الكتابة على شرط مسلم. وهي صحيحة غريبة، وفي هذا التصريح بالنهي عن البناء على القبور. وهو يصدق على من بنى جوانب حفرة القبر كما يفعله كثير من الناس من رفع قبور الموتى ذراعاً فما فوقه ولأنه لا يمكن أن يجعل نفس القبر مسجداً فذلك مما يدل على أنه المراد بعض ما يقربه مما يتصل به. ويصدق على من بنى قريباً من جوانب القبر وكذلك، كما في القباب والمشاهد الكبيرة على وجه يكون القبر في وسطها أو في جانب منها فإن هذا بناء على القبر لا يخفى ذلك على من له أدنى فهم كما يقال: بنى السلطان على مدينة كذا وقرية كذا سوراً. ومن زعم أن في لغة العرب ما يمنع من هذا الإطلاق فهو لا يعرف لغة العرب ولا يفهم لسانها ولا يدري بما استعملته في

---

(١) رواه مسلم (٩٧١) وأبو داود (٣٢٢٨) والنسائي (٢٠٤٤) وابن ماجة (١٥٦٦) وأحمد (٨١٠٨).

(٢) رواه أحمد (٣٩/ ٤٧٦ رقم ٣٩)، وسنده صحيح.

(٣) رواه الترمذي (١٠٥٢)، وأصله عند مسلم (٩٧٠).

(٤) رواه مسلم (٩٧٠) وأحمد (١٤١٤٩).

(٥) هذه الرواية رواها الترمذي (١٠٥٢).

(٦) هذه الزيادة رواها الترمذي (١٠٥٢) والحاكم (١٣٦٩).

كلامها. وإذا تقرر لك هذا علمت أن رفع القبور ووضع القباب والمساجد والمشاهد مثلها. قد لعن رسول الله ﷺ فاعله تارة كما تقدم وتارة قال: «**اشْتَدَّ غَضَبُ الله عَلَى قَوْمٍ اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ وَصَالِحِيهِمْ مَسَاجِدَ**»(١) فدعا عليهم بأن يشتد غضب الله عليهم بما فعلوه من هذه المعصية وذلك ثابت كما تقدم في الصحيح. وتارة نهى عن ذلك وتارة بعث من يهدمها وتارة جعله من فعل اليهود والنصارى وتارة قال: «**لَا تَتَّخِذُوا قَبْرِي وَثَنًا**»(٢) وتارة قال: «**لَا تَتَّخِذُوا قَبْرِي عِيدًا**»(٣) [كل هذا تحذير لأمته من هذه الأمور المؤدية إلى الشرك بالله].

المفاسد المترتبة على اتخاذ القباب على القبور وزخرفتها

فلا شك ولا ريب أن السبب الأعظم الذي نشأ معه هذا الاعتقاد في الأموات هو ما زينه الشيطان للناس من رفع القبور ووضع الستور عليها وتجصيصها وتزيينها بأبلغ زينة وتحسينها بأكمل تحسين فإن الجاهل إذا وقعت عينه على قبر من القبور نبت عليه قبة فدخلها ونظر إلى الستور الرائقة والسرج المتلألأة وقد صدعت حولها مجامر الطيب، فلا شك ولا ريب أنه يمتلئ قلبه تعظيماً لذلك القبر ويضيق ذهنه عن تصور ما لهذا الميت من المنزلة ويدخله من الروعة والمهابة له ما يزرع في قلبه من العقائد الشيطانية التي هي من أعظم مكائد الشيطان للمسلمين وأشد وسائله إلى إضلال العباد وما يزلزله عن الإسلام قليلاً قليلاً حتى يطلب من صاحب ذلك القبر ما لا يقدر عليه إلا الله الواحد سبحانه فيصير في عداد

---

(١) رواه مالك في «الموطأ» (٥٩٣).

(٢) رواه أحمد (٧٣٥٨)، وأصله عند البخاري (٤٣٧) ومسلم (٥٣٠).

(٣) رواه بهذا اللفظ الضياء المقدسي في «المختارة» (٤٢٨) وأبو يعلى في «مسنده» (٤٦٩)، وفي إسناده ضعف.

ورواه أبو داود (٢٠٤٢) بلفظ: «لا تجعلوا قبري عيداً»، وهو صحيح، وقد تقدم.

المشركين. إلى أن قال بعد ذكره لبيان أكاذيب الدعاة إليها والمرجفين بالتخويف منها: وبهذه الذريعة الملعونة والوسيلة الإبليسية تكاثرت الأوقاف على القبور وبلغت مبلغاً عظيماً حتى بلغت غلاة ما يوقف على المشهورين منهم ما لو جمعت أوقافه يقتاتها أهل قرية كبيرة من قرى المسلمين ولو بيعت تلك الأوقاف الباطلة أغنى الله بها طائفة عظيمة من الفقراء وكلها من النذر في معصية الله. وقد صح عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**لَا نَذْرَ فِي مَعْصِيَةِ الله**»[1] بل كلها من النذور التي يستحق فاعلها غضب الله وسخطه. فانظر إلى أين بلغ تلاعب الشيطان بهؤلاء فكيف رمى بهم في هذه الهُوَّة البعيدة القعر المظلمة الجوانب. فهذه مفسدة من مفاسد رفع القبور وتشييدها وزخرفتها وتجصيصها. ومن المفاسد البالغة إلى حد يرقى بصاحبه إلى وراء حائط الإسلام ويلقيه على أم رأسه من أعلى مكان من الدين أنه يأتي كثير منهم بأحسن ما عنده وما يملكه من الأنعام فيقربه إليه وينحره عند ذلك متقرباً به إليه. فيهل به لغير الله ويتعبد به لوثن من الأوثان لأنه لا فرق بين نحر النحائر لحجر منصوبة يسمونها وثناً وبين قبر لميت يسمونه قبراً. ومجرد الاختلاف في التسمية لا يغني من الحق شيئاً ولا يؤثر تحليلاً ولا تحريماً.

بيان أن وظائف الإنكار ثلاث

فإنه قد علم من قواعد الشريعة أن وظائف الإنكار ثلاث:

أولها: الإنكار باليد وذلك بتغيير المنكر وإزالته.

ثانيها: الإنكار باللسان مع عدم الاستطاعة بالتغيير باليد.

ثالثها: الإنكار بالقلب عند عدم الاستطاعة باليد أو اللسان. فإن انتفى أحدها لم ينتف الآخر. ومثاله مرور فرد من أفراد العلماء بأحد المكاسين وهو يأخذ أموال

---

(١) رواه مسلم (١٦٤١) وأبو داود (٣٣١٦) والنسائي (٣٨١٢) وابن ماجه (٢١٢٤) وأحمد (١٩٨٥٦).

المظلومين. فهذا الفرد من علماء الدين لا يستطيع التغيير باليد على هذا الذي يأخذ أموال المساكين ولا باللسان لأنه يكون سخرية لأهل العصيان فانتفى في حقه شرط الإنكار بالوظيفتين فلم يبق إلا الإنكار بالقلب الذي هو أضعف الإيمان فيجب على من رأى ذلك العالم ساكتاً عن الإنكار مع مشاهدة ما يأخذ هؤلاء الجبارون أن يعتقد أنه تعذر عليه الإنكار باليد واللسان وأنه قد أنكر بقلبه فإن حسن الظن بالمسلمين أهل الدين واجب والتأويل لهم ما أمكن [لازم].

ومن هنا يعلم اختلال ما استقر عند أئمة الاستدلال من قولهم في بعض ما يستدلون عليه بالإجماع: إنه وقع ولم ينكر فكان إجماعاً. ووجه اختلاله أن قولهم: (ولم ينكر) رجم بالغيب فإنه قد يكون أنكرته قلوب كثيرة تعذر عليهم الإنكار باليد واللسان وأنك تشاهد في زمانك أنه كم من أمر يقع لا تنكره بلسانك ولا بيدك وأنت منكر له بالقلب ويقول الجاهل إذا رآك تشاهده سكت فلان عن الإنكار بقوله. إما لائماً أو متأسياً بسكوتك وكذا يعلم اختلال قولهم في الاستدلال: فعل فلان كذا أو سكت الباقون فكان إجماعاً. وهذا مختل من جهتين:

الأولى: دعوى أن سكوت الباقين تقرير لفعل فلان، لما عرف من عدم دلالة السكوت على التقرير.

والثانية: قولهم: فكان إجماعاً فإن الإجماع اتفاق أمة محمد ﷺ والساكت لا ينسب إليه وفاق ولا خلاف حتى يعرب عنه لسانه. فما كل سكوت رضا، فإن المنكرات أسسها من بيده السيف والسنان، ودعاء العباد وأموالهم تحت لسانه وقلمه، وأعراضهم تحت قوله وكلمه، فكيف يقوى فرد من الأفراد على دفع ما أراد؟! [فانظر أيها المحتج بهذا الإجماع إلى] هذه القباب والمشاهد التي صارت أعظم ذريعة إلى الشرك والإلحاد وأكبر وسيلة إلى هدم الإسلام وخراب بنيانه، فغالب بل كل من يعمرها هم الملوك والسلاطين والرؤساء والولاة، إما على قريب

لهم أو على من يحسنون الظن فيه من عالم أو فاضل أو صوفي أو فقير أو شيخ أو كبير، ويزوره الناس الذين يعرفون زيارة الأموات من دون توسل به ولا هتف باسمه بل يدعون له ويستغفرون حتى ينقرض من يعرفه أو أكثرهم [فيُعبد من دون الله]، ولهذا الأمر ثبت في الأحاديث اللعن على من أسرج على القبور وكتب عليها وبنى عليها.

بيان أول من بنى القبة على قبر النبي صلى الله عليه وسلم

فإن قلت: هذا قبر رسول الله ﷺ قد عمرت عليه قبة عظيمة أنفقت فيها الأموال. قلت: هذا جهل عظيم بحقيقة الحال فإن هذه القبة ليس بناؤها منه ﷺ ولا من أصحابه ولا من تابعيهم وتبع التابعين ولا من علماء أمته وأئمة ملته، بل هذه القبة المعمورة على قبر سيد الأنبياء وخير الرسول ﷺ، من أبنية بعض ملوك مصر المتأخرين وهو (قلاوون) الصالحي المعروف بالملك المنصور، في سنة ثمان وسبعين وستمائة، ذكره في «تحقيق النصرة بتلخيص معالم دار الهجرة».

[ثم إن المصنف ذكر أن من كان له القدرة على تغيير المنكر من المسلمين باليد لا يتركه فذكر من ذلك ما يلي:]

هدم القباب والمشاهد

وأقول: بلغنا أن أهل نجد غلبوا على الحرمين الشريفين وحكموا فيهما مدة هدموا المشاهد التي كانت في (المعلى) مقبرة مكة المكرمة وكذلك القباب التي كانت ببقيع الغرقد في المدينة المنورة وسووها بالأرض ولم يتركوا أثراً من آثارها إلا قبة الرسول ﷺ خوفاً من آثار الضلال.

ومن هذا القبيل حال المشاهد الواقعة المعمورة في أرض (كربلاء) فإن المتوكل العباسي هدم قبورها وأمر الناس بالزراعة فيها فزرعوا إلى آخر عهده الطويل

العريض ولم يبق لقبر من القبور أثر في العين ولا أمارة لقبر الإمام الحسين رضي الله عنه ثم أحدثوا هناك بعده تلك القبور وبنوا عليها العمائر وأرخوا الستور وقالوا: هذا قبر الحسين عليه السلام وهذا قبر فلان والله أعلم هل في ذلك الموضع الخاص المشار إليه قبر ذلك الإمام وأولئك المأمومين من أهل بيته ومن غيرهم أم تبدلت الأرض (هذا مع ما ذكر في هدم السلف للطواغيت سابقاً).

أنواع زيارة القبور

والناس في هذا الباب أعنى زيارة القبور ثلاثة أقسام:

الأول: قوم يزورون الموتى فيدعون لهم وهذه هي الزيارة الشرعية.

الثاني: قوم يزورونهم يدعون بهم وهؤلاء هم المشركون في الألوهية والمحبة.

الثالث: قوم يزورونهم فيدعونهم أنفسهم وهؤلاء هم المشركون في الربوبية [والألوهية] وقد حمى رسول الله ﷺ جانب التوحيد أعظم حماية تحقيقاً لقوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ [سورة الفاتحة: ٥] حتى نهى عن الصلاة في هذين الوقتين [عند طلوع الشمس وعند غروبها] لأنها ذريعة إلى التشبه بعباد الشمس الذين يسجدون لها في هاتين الحالتين وسد الذريعة بأن منع من الصلاة بعد العصر والصبح لاتصال هذين الوقتين بالوقتين الذين يسجد المشركون فيهما للشمس وأما السجود لغير الله، فقد قال رسول الله ﷺ: «**لَا يَنْبَغِي لأَحَدٍ أَنْ يَسْجُدَ لأَحَدٍ إِلَّا للهِ رَبِّ العَالَمِينَ**»(١).

الزيارة الشرعية

وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: مَرَّ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِقُبُورِ المَدِينَةِ فَأَقْبَلَ

---

(١) أخرج نحوه الترمذي (١١٥٩)، وابن حبان (٤١٦٢)، والحاكم (٢٧٦٨)، وصححه الألباني.

عَلَيْهِمْ بِوَجْهِهِ فَقَالَ: «السَّلَامُ عَلَيْكُمْ يَا أَهْلَ القُبُورِ يَغْفِرُ اللهُ لَنَا وَلَكُمْ وَنَحْنُ بِالأَثَرِ» رواه الترمذي وحسنه[١].

فهذه الزيارة التي شرعها رسول الله ﷺ لأمته وعلمهم إياها هل تجد فيها شيئاً مما يعتمده أهل الشرك والبدع والآراء المضلة أم تجدها مضادة لما هم عليه من كل وجه. وما أحسن ما قال مالك بن أنس رحمه الله: لن يصلح آخر هذه الأمة إلا ما أصلح أولها. ولكن كلما ضعف تمسك الأمم بعهود أنبيائهم ونقص إيمانهم عوضوا عن ذلك بما أحدثوه من البدع والشرك.

بيان ما يفعله السلف الصالح عند زيارة القبور

ولقد جرد السلف الصالح التوحيد وحموا جانبه حتى كان أحدهم إذا سلم على الرسول ﷺ ثم أراد الدعاء استقبل القبلة وجعل ظهره إلى جدار القبر ثم دعا ونص على ذلك -كما تقدم- الأئمة الأربعة أنه يستقبل القبلة وقت الدعاء حتى لا يدعو عند القبر فإن الدعاء عبادة كما في الترمذي وغيره مرفوعاً. فجردوا العبادة لله ولم يفعلوا عند القبور إلا ما أذن فيه رسول الله ﷺ من الدعاء لأصحابها والاستغفار لهم والترحم عليهم ونهى عن تحري النافلة عند القبور، وهذا ضد ما عليه المشركون من النصارى وأشباههم.

وقال ابن القيم: وكل من شم أدنى رائحة من العلم والفقه يعلم أن من أهم الأمور سد الذرائع المؤدية إلى هذا المحذور [الشرك]، وأن صاحب الشرع أعلم بعاقبة ما نهى عنه وما يؤول إليه وأحكم في نهيه عنه وتوعده عليه وأن الخير والهدى في اتباعه وطاعته والشر والضلال في معصيته ومخالفته. انتهى.

---

(١) رواه الترمذي (١٠٥٣) والطبراني (١٢٦١٣).

باب في الرافضة واعتقادهم

مناظرة بين سني ورافضي في شأن الصحابة

قيل: سأل رافضي سُنِّيّاً: ما تقول في حق الصحابة؟

فأجاب: أقول فيهم ما قال الله تعالى في كتابه. عنى به قوله هذا: ﴿رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ﴾ [سورة المائدة: ١١٩].

فقال الرفضي: إنهم بدَّلوا بعد النبي ﷺ.

فقال: إن الله يقول: ﴿وَمَا بَدَّلُواْ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾﴾ [سورة الأحزاب: ٢٣]، ونحن لا نقول بإله يخبر بشيء ولا يعلم أنه يتغير بعد ذلك ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾﴾ [سورة التوبة: ١٠٠].

فضل الصحابة الكبار

في هذه الآية الشريفة دلالة أوضح من شمس النهار على فضل الصحابة الكبار وعلى أنهم كلهم مغفور لهم من أصحاب الجنات والأنهار فمن نال منهم أو طعن أو سبهم فلا شك ولا ريب أنه من أصحاب النار لأنه عارض الله في كتابه وإخباره بمزيد فضلهم برأيه الفاسد ولم يقبل دليل القرآن ومن أنكر حرفاً من القرآن فقد خرج عن الإسلام ودخل في الكفر بلا ارتياب. فسحقاً للرافضة اللاعنين لهم والسابين لهم، وقد قال تعالى: ﴿لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ﴾ [سورة الفتح: ٢٩] وقد نص جمع وجمٌّ من أهل السنة والعلم بالحديث والقرآن: أن الرافضة كفار لإنكارهم ضروريات الدين وما علم من شرع رسول الله ﷺ بالقطع

واليقين، وتكفيرهم للصحابة السابقين والآخرين وهم أفضل الأمة وأبرها وأكرمها على الله بأدلة من الكتاب والسنة. فمن خالف الله أو رسوله في إخبارهما وعصاهما بسوء العقيدة في خلص عباده ونخبة عبّاده فكفره بواح لا سترة عليه.

فضل نسائه صلى الله عليه وسلم

قال تعالى: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ ۗ﴾ [سورة الأحزاب: ٦] والآية دليل على فضيلة أهل بيته [أي زوجاته] ﷺ، وعلى أن شأنهن أرفع من شأن جميع الأمة، ومن جملتهن عائشة الصديقة رضي الله عنها وحفصة بنت الفاروق، وقد أساءت الرافضة الأدب فيهما، وقالوا في حقهما ما هم مستحقون به، لا هما رضي الله عنهن. وأهل السنة يحترمون الكل ويعظمونهن حق التعظيم وهو الحق البحت، وكذلك يعترفون بعظمة أولاده ﷺ من فاطمة الزهراء رضي الله عنها، ويذكرونهم جميعاً بالخير والدعاء، فمن لم يراع هذه الحرمة لأزواجه المطهرات فقد خالف ظاهر القرآن وصريح النص منه، ومن فرق بينهن وقال بشرف بعضهن ولم يقل بأخرى فهو رافضي خبيث رجس لأنه سبحانه ساقهن [في القرآن] في مساق واحد، ولم يفرق بينهن بشيء، وماذا بعد الحق إلا الضلال.

الرد على الرافضة الزاعمين بأن الصحابة كفروا بعد موت الرسول صلى الله عليه وسلم

قال الله تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا ﴿٢٩﴾﴾ [سورة الفتح: ٢٩].

قال مالك بن أنس: من أصبح وفي قلبه غيظ على أصحاب رسول الله ﷺ فقد أصابته هذه الآية. قلت: أصبحت الرافضة كلهم في العرب والعجم وفي قلوبهم وبواطنهم غيظ شديد وغصة عظيمة على الصحابة وشجى في حلوقهم، فالآية شملتهم وكفى بها دليلاً على كفرهم، لأن الغيظ بهم والسخط عليهم بالسب وإطلاق اللسان بمساويهم المكذوبة عليهم من أمارات الكفر والطغيان، وهذه الأمارة وجدت فيهم وجداناً صحيحاً نطقت بها كتبهم بذكر مطاعن الصحابة وفاهت بها ألسنتهم بالسب والطعن والقدح، فهم أجهل خلق الله بحقوق السلف وأعظم عناداً بهم. قال في «فتح البيان»: وهذه الآية ترد قول الرافضة أنهم كفروا بعد وفاة النبي ﷺ.

وأقول: هذه المغفرة وهذا الأجر لمن بعدهم ممن سلك سبيلهم واتبعهم بالإحسان، وهم الفرقة الناجية، لقوله ﷺ: «**مِثْلُ مَا أَنَا عَلَيْهِ وَأَصْحَابِي الْيَوْمَ**»[1]، فكل من ليس على طريقتهم سواء كان رافضياً أو خارجياً أو معتزلياً أو قدرياً أو مرجئاً أو غير هؤلاء وسواء كان يدعي لنفسه أنه من أهل السنة والجماعة وهو ماش على سبيلهم المدون في كتب الحديث وصحائف الآثار وخارج عن هذا الوعد الشريف، بلا شك ولا شبهة وإن أتى بألف تقرير وعذر بارد. وأسوأ اعتقاد في الأصحاب طائفة الرفض أفناهم الله تعالى وأبادهم.

قال الشوكاني: فانظر أرشدك الله ما حال من يسب أو يغتاب أو يلعن مسلماً من المسلمين وماذا يكون عليه من العقوبة؟ فكيف بمن يفعل ذلك بخيار عباد الله من المؤمنين؟ بل كيف من يسب أو يغتاب خير القرون كما وردت بذلك السنة المتواترة؟. فأبعد الله الروافض عمدوا بسبهم الخبيث وفحشهم المتبالغ إلى من يعدل مُدّ أحدهم أو نصيفه أكبر من جبل [أحد] من إنفاق غيرهم، وورد في

(١) رواه الترمذي (٢٦٤١)، وصححه الحاكم (٤٤٤)..

الكتاب والسنة من مناقبهم وفضائلهم التي امتازوا بها ولم يشاركهم فيها غيرهم ما لا يفي به إلا مؤلف بسيط، مع ورود الأحاديث الصحيحة في النهي عن سبهم على الخصوص، بل ثبت في الصحيح النهي عن سب الأموات على العموم وهم خير الأموات، كما كانوا خير الأحياء، لا جرم فإنه لم يعادهم، ولم يتعرض لأعراضهم المصونة إلا أخبث الطوائف المنتسبة إلى الإسلام، وشر من على وجه الأرض من أهل هذه الملة، وأقل أهلها عقولاً وأحقر أهل الإسلام علوماً وأضعفهم حلوماً، بل أصل دعوتهم لكياد الدين، ومخالفة شريعة المسلمين، يعرف ذلك من يعرفه ويجهله من يجهله، والعجب كل العجب من علماء الإسلام وسلاطين هذا الدين كيف تركوهم على هذا المنكر البالغ في القبح إلى غايته ونهايته فإن المخذولين لما أرادوا رد هذه الشريعة المطهرة ومخالفتها طعنوا في أعراض الحاملين لها الذين لا طريق لنا إليها إلا من طريقهم واستذلوا أهل العقول الضعيفة والإدراكات الركيكة بهذه الذريعة الملعونة والوسيلة الشيطانية فهم يظهرون السب واللعن لخير الخليقة ويضمرون العناد للشريعة ورفع أحكامها عن العباد. فكان حاصل ما هم عليه من ذلك أربع كبائر كل واحدة منها كفر بواح.

الأولى: عناد الله عز وجل.

والثانية: العناد لرسوله ﷺ.

والثالثة: العناد للشريعة المطهرة وكيادها ومحاولة إبطالها.

والرابعة: تكفير الصحابة رضي الله عنهم أجمعين الموصوفين في كتاب الله بأنهم أشداء على الكفار وأن الله سبحانه يغيظ بهم الكفار وأنه قد رضي عنهم مع أنه قد ثبت في هذه الشريعة المطهرة أن من كفر مسلماً كفر كما في «الصحيحين» وغيرهما[1]

---

(١) رواه البخاري (٦١٠٤) ومسلم (٦٠) وأبو داود (٤٦٨٧) والترمذي (٢٦٣٧) وأحمد (٤٦٨٧) ومالك (١٨٤٤).

من حديث ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «**إِذَا قَالَ الرَّجُلُ لِأَخِيهِ يَا كَافِرُ فَقَدْ بَاءَ بِهَا أَحَدُهُمَا، فَإِنْ كَانَ كَمَا قَالَ وَإِلَّا رَجَعَتْ عَلَيْهِ**».

ولهما وغيرهما[1] من حديث أبي ذر رضي الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «**مَنْ دَعَا رَجُلًا بِالكُفْرِ أَوْ قَالَ عَدُوَّ اللهِ، وَلَيْسَ كَذَلِكَ إِلَّا حَارَ عَلَيْهِ**»، فعرفت بهذا أن كل رافضي خبيث على وجه الأرض يصير كافراً بتكفيرهم الصحابي، لأن كل واحد منهم قد كفر ذلك الصحابي، فكيف بمن كفر منهم كل الصحابة، واستثنى أفراداً يسيرة تنفيقاً لما هو عليه وفيه من الضلال على الطغام الذين لا يعقلون الحجج ولا يفهمون البراهين ولا يفطنون بما يضمره أعداء الإسلام من العناد لدين الله والكياد لشريعته.

بيان طوائف الرافضة

وهم طوائف: منهم الباطنية والقرامطة وأمثالهم من طوائف العجم ومن قال بقولهم فإنهم غلو في الكفر حتى أثبتوا الإلهية لمن يزعمون أنه المهدي المنتظر وأنه دخل السرداب وسيخرج منه في آخر الزمان وبلغ تلاعبهم بالدين أنهم يجعلون في كل مكان نائباً عن الإمام المذكور الموصوف بأنه إلههم ويسمون أولئك النواب حجاباً للإمام المنتظر ويثبتون لهم الإلهية وهذا مصرح به في كتبهم وقد وقفنا منها على غير كتاب فانظر إلى هذا الأمر العظيم وإلى أي مبلغ بلغ هؤلاء الملاحدة من كياد الدين والتلاعب بضعاف العقول من الداخلين في الدعوة الإسلامية حتى أخرجوهم منها إلى أكفر الكفر واتخاذ إله غير الله عز وجل وتعالى وتقدس وخدعوهم من جهة ما يظهرونه من المحبة الكاذبة لأهل البيت رضي الله عنهم وهم أشد الاعداء لهم.

---

(١) رواه البخاري (٣٥٠٨) ومسلم (٦١) وأحمد (٢١٤٦٥).

سبب تسمية غلاة الشيعة بالرافضة

وقد ثبت في كتب اللغة وشروح الحديث وكتب التاريخ: أن الرافضة إنما ثبت لهم هذا اللقب لما طلبوا من الإمام زين العابدين علي بن الحسين بن علي رضي الله عنه أن يتبرأ من أبي بكر وعمر فقال: إنهما وزيرا جدي فرفضوه وفارقوه فسموا حينئذ: الرافضة. فانظر كيف كان ثبوت هذا اللقب الخبيث لهم بسبب خذلهم لنصرة ذلك الإمام العظيم. فالحاصل أن من صدق عليه هذا اللقب فأقل أحواله أن يكون معادياً للصحابة لاعناً لهم مكفراً لغالبهم. وهذا على تقدير عدم تفطنه لما هو العلة الغائية للرافضة من العناد لله سبحانه ولرسوله ﷺ وللشريعة المطهرة. فتقرر بهذا أن من يقدر على إنكار صنيع الرافضة ولم يفعل فقد رضي بأن تنتهك حرمة الإسلام وأهله وسكت على ما هو كفر متضاعف كما سلف. انتهى.

وأقول: وقد رأينا في رافضة الهند وهم يسمون أنفسهم بالإمامية والشيعة يعتقدون كفر الصحابة ويسمونهم سباً صريحاً بلا ارتياب في كتبهم وبألسنتهم ويلعنونهم لعناً ساطعاً وكذلك (جال البواهر) في الهند وغيره فإنهم القرامطة في الأصل. ويرون أن سب الصحابة ولعنهم وشتمهم عبادة فاضلة حتى أن بعضهم من الرؤساء والرعية صنعوا في بعض البلاد صورهم الخيالية المنحوتة على شكل ما في أذهانهم وفعلوا به ما ينبغي أن يفعل بالكافر وبالعدو. وهذا أدل دليل على أن اعتقادهم وقولهم في الأصحاب أنهم كفار مرتدون، ونعوذ بالله من ذلك.

بطلان محبة الشيعة لعلي كرم الله وجهه

وأما دعوى الرافضة لحبهم علياً؛ فهي منقوضة بمخالفتهم له رضي الله عنه في العلم والعمل والزي والشكل ألا تراهم يحلقون لحاهم ويعفون شواربهم ويفعلون أشياء لم تؤثر عنه في شيء من دواوين الإسلام فدعواهم هذه نفاق في

الحقيقة وقد استحقوا بهذا النفاق ما استحق المنافقون من الولوج في الدرك الأسفل من النار. وفي حديث أم سلمة قالت: قال رسول الله ﷺ: «**لَا يُحِبُّ عَلِيًّا مُنَافِقٌ وَلَا يَبْغَضُهُ مُؤْمِنٌ**» رواه أحمد والترمذي(١). وقال هذا حديث غريب الإسناد. قلت: وفيه أن من لا يحبه كالخوارج والنواصب منافق وحكم المنافق معلوم فالرافضة والخارجة كلهم في الحقيقة أعداؤه فليسوا بمؤمنين لبغضهم إياه عليه السلام. وإن ادعى بعضهم أنه يحبه فإن الفعل منه يكذب قوله ومن قال ولم يفعل فهو المنافق وعليه الذم في الكتاب والسنة ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٣﴾ [سورة الصف: ٣].

ما استدل به الرافضة على أحقية علي بالخلافة

عَنْ زَيْدِ بْنِ أَرْقَمَ: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «**مَنْ كُنْتُ مَوْلَاهُ فَعَلِيٌّ مَوْلَاهُ**» رواه أحمد والترمذي(٢). وفي حدث البراء بن عازب رضي الله عنه: أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ لَمَّا نَزَلَ بِغَدِيرِ خُمٍّ أَخَذَ بِيَدِ عَلِيٍّ فَقَالَ: «**أَلَسْتُمْ تَعْلَمُونَ أَنِّي أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ؟**» قَالُوا: بَلَى. قَالَ: «**أَلَسْتُمْ تَعْلَمُونَ أَنِّي أَوْلَى بِكُلِّ مُؤْمِنٍ مِنْ نَفْسِهِ؟**» قَالُوا: بَلَى. فَقَالَ: «**اللهُمَّ مَنْ كُنْتُ مَوْلَاهُ فَعَلِيٌّ مَوْلَاهُ اللهُمَّ وَالِ مَنْ وَالَاهُ وَعَادِ مَنْ عَادَاهُ**» فَلَقِيَهُ عُمَرُ بَعْدَ ذَلِكَ، فَقَالَ لَهُ: «**هَنِيئًا يَا ابْنَ أَبِي طَالِبٍ، أَصْبَحْتَ وَأَمْسَيْتَ مَوْلَى كُلِّ مُؤْمِنٍ وَمُؤْمِنَةٍ**» رواه أحمد(٣). غدير خم [موضع بين الحرمين] وهو اسم لغيضة على ثلاثة أميال من الجحفة بها غدير ماء. قال في (المرقاة): تمسك الشيعة بأن هذا الحديث من النص الصريح بخلافة علي رضي الله عنه حيث قالوا: معنى المولى الأولى بالإمامة وإلا لما احتاج إلى جمعهم كذلك وهذه أقوى شبههم. ودفعها علماء أهل السنة بأن

---

(١) رواه الترمذي (٣٧١٧) وأحمد (٢٦٥٠٧)، وضعفه الألباني.

(٢) رواه الترمذي (٣٧١٣)، وصححه الألباني.

(٣) رواه أحمد (١٨٤٧٩) وابن أبي شيبة (٣٢١١٨)، وهو صحيح.

المولى بمعنى المحبوب وله معانٍ أخر ومنه الناصر وأمثاله فخرج عن كونه نصاً فضلاً عن أن يكون صريحاً. ولو سلم أنه بمعنى الأولى بالإمامة فالمراد به المآل وإلا للزم أن يكون هو الإمام مع وجود النبي عليه الصلاة والسلام فتعين أن يكون المقصود حين يوجد عقد البيعة له ولا ينافيه تقديم الخلفاء الثلاثة الأئمة عليه لانعقاد إجماع من يعتد به حتى من علي رضي الله عنه نفسه. ثم سكوته عن الاحتجاج به إلى أيام خلافته قاض على من له أدنى مسكة من عقل بأنه علم منه أنه نص فيه على خلافته عقب وفاته عليه السلام مع أن علياً كرم الله وجهه صرح بنفسه بأنه ﷺ لم ينص عليه ولا غيره انتهى. قلت: ولو كان ﷺ أراد بذلك خلافته لم يكن له مانع من التصريح به فلماذا لم يصرح واختار لفظاً له معان كثيرة. فصار محتمل فسقط الاحتجاج به على مراد الشيعة ولو فرض أن له دلالة على الخلافة فأين دلالته عليها بلا فصل؟ هل فيه لفظ يدل على ذلك؟ قل لي إن كان بقي فيك بقية من الحياء والإنصاف. ولا منكر لخلافته في زمن بيعته، وسياق الحديث يأبى هذا الاحتجاج المنكر المخالف للأدلة الصحيحة؛ لأن قوله ﷺ: «**اللهُمَّ وَالِ مَنْ وَالَاهُ وَعَادِ مَنْ عَادَاهُ**»(١) نص واضح جلي على أن المراد بالمولى المحبوب لا غير لوقوع الموالاة في محاذاة المعاداة. فقد فسر رسول الله ﷺ حديثه بنفسه وعين مراده بذكر التولي والتبري فهو في معنى الحديث المتقدم: «**لَا يُحِبُّهُ إِلَّا مُؤْمِنٌ وَلَا يُبْغِضُهُ إِلَّا مُنَافِقٌ**»(٢). وأما الرافضة [فلم يعملوا بهذا الحديث فهم قد] خذلوه ولم يوالوه ولا نصروه ولا أحبوه كما هو ظاهر من صنائعهم وبدائعهم وإن كان بعضهم ألف في إثبات المولى بمعنى الأولى كتاباً ضخماً في أجزاء كبار حكى فيه أقوال الفقهاء وغيرهم من أهل السنة وهذا لا ينفعه أبداً. فإن الأولوية لا تقتضي الخلافة بلا

---

(١) رواه أحمد (١٨٤٧٩) وابن أبي شيبة (٣٢١١٨)، وتقدم.

(٢) رواه الترمذي (٣٧١٧) وأحمد (٢٦٥٠٧)، وضعفه الألباني.

فضل ولا تقديم صاحبها على غيره لا عقلاً ولا شرعاً فأين هذا من ذاك وأين السمك من السماك.

قال في الترجمة: وبالجملة فمتاع السعادة ونجاح النجاح أمران:

الأول: محبة أهل البيت.

الثاني: تعظيم الأصحاب (ومحبتهم).

قلت: مصداق من أبغضه في هذه الأمة فرقة الخوارج والنواصب ففيهم شبه اليهود وقد مرقوا من الدين كما مرق اليهود من العمل بدينهم ومصداق من أحبه بالإفراط طائفة الرافضة ففيهم شبه النصارى أن المسيح ابن الله وبقي أهل السنة والجماعة وهم عن هذين الطرفين بمعزل وهم يحبونه ولا يبغضونه وحبهم إياه علاوة بين العدلين ووجود بين القدمين ولله الحمد.

القول الحق فيما شجر بين الصحابة

سئل الإمام العلامة محمد بن علي الشوكاني عن المذهب الحق في شأن ما شجر بين الصحابة في الخلافة وما يترتب عليها فقال: أقول إن كان هذا السائل طالباً النجاة مستفهماً عن أقرب الأقوال إلى مطابقة مراد مولاه وكما يشعر بذلك تصرفه في سؤاله، فليدع الاشتغال بهذا الأمر، ويترك المرور في هذا السبيل الذي تاهت فيه الأفكار، وتحيرت عنده أبصار أهل الأبصار، فإن هؤلاء الذين يبحث عن حوادثهم، ويتطلع لمعرفة ما شجر بينهم، قد صاروا تحت أطباق الثرى، ولقوا ربهم تعالى في المائة الأولى من البعثة، وها نحن في المائة الثالثة عشرة، فما لنا والاشتغال بهذا الشأن الذي لا يعنينا، ومن حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه، وأي فائدة في الدخول في الأمر الذي فيه ريبة، وقد أرشدنا الله إلى أن ندع ما يريبنا إلى ما لا يريبنا، ويكفينا من هذه القلاقل والزلازل أن نعتقد أنهم خير القرون، وأفضل

الناس، وأن الخارجين على أمير المؤمنين علي بن أبي طالب المحاربين له، المصرين على ذلك، الذين لم تصح توبتهم بغاة، وأنه على الحق وهم المبطلون. وما زاد على هذا المقدار فمن الفضول الذي يشتغل به من لا يبالي بدينه.

وقد تلاعب الشيطان بكثير من الناس، فأوقعهم في الاختلاف في خير القرون، الذين قال رسول الله ﷺ في شأنهم لبعض من هو في جملتهم لكن تأخر إسلامه عنهم: «**لَوْ أَنْفَقَ أَحَدُكُمْ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا مَا بَلَغَ مُدَّ أَحَدِهِمْ وَلَا نَصِيفَهُ**»(١)، فإذا كان مثل أحد ذهباً من المتأخرين من الصحابة المخاطَبين بهذا الخطاب لا يبلغ مُدّ أحد متقدميهم، فما أظن مثل أحد ذهباً منا يبلغ مقدار حبة من أحدهم ولا نصيفها. فرحم الله امرءاً اشتغل بالقيام بما أوجبه الله عليه، وطلبه منه، وترك ما لا يعود عليه بنفع لا في دنياه ولا أخراه، بل يعود عليه بالضرر، ولو لم يكن من الضرر إلا مجرد مخالفة ما أرشدنا إليه رسول الله ﷺ بقوله: «**مِنْ حُسْنِ إِسْلَامِ الْمَرْءِ تَرْكُهُ مَا لَا يَعْنِيهِ**»(٢)، فهذا والله مما لا يعنينا.

ومن ظن خلاف هذا فهو مغرور ومخدوع، قاصر الباع عن إدراك الحقائق ومعرفة الحق على وجهه كائناً من كان.

والله لو جاء أحدهم يوم القيامة بما يملأ الدنيا من الحسنات ما كان لنا من ذلك شيء، ولو جاء أحدهم -صانهم الله- بما يملأ الدنيا من السيئات ما كان علينا من ذلك شيء، ففيم التعب، وعلام تضييع الأوقات في هذه الترهات؟ انتهى.

وما أبلغه وأحسنه وأجمعه وأقطعه للخصام في هذا المرام، عند من له بمدارك الدين إلمام، وبشأن الإسلام اهتمام.

---

(١) رواه البخاري (٣٦٧٣) ومسلم (٢٥٤١) وأبو داود (٤٦٥٨) والترمذي (٣٨٦١) وأحمد (١١٠٧٩).

(٢) رواه الترمذي (٢٣١٧) وابن ماجة (٣٩٧٦)، وصححه ابن حبان (٢٢٩).

فضل الصحابة إجمالاً

قال الله تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ﴾ [سورة الفتح: ٢٩] من المؤمنين وهم جميع الصحابة حملاً لها على العموم وهو الأولى عند أهل المفهوم ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ﴾ أي غلاظ عليهم كما يغلظ الأسد على فريسته لا تأخذهم بهم رأفة لأن الله أمرهم بالغلظة عليهم فلا يرحمونهم ولا يبتغي لهم الرحمة على أعداء الله وأعداء رسوله ﴿رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ أي متوادّون متعاطفون كالوالد مع الولد. والمعنى أنهم يظهرون لمن خالف دينهم الشدة والصلابة ولمن وافقهم الرحمة والرأفة ونحوه قوله تعالى: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [سورة المائدة: ٥٤] وبلغ من تراحمهم فيما بينهم: أنه كان لا يرى مؤمن مؤمناً إلا صافحه وعانقه ومن حق المسلمين في كل زمان أن يراعوا هذا التشدد وهذا التعطف فيشددوا على من ليس من دينهم ويعاشروا إخوانهم المؤمنين في الإسلام متعاطفين بالبر والصلة وكف الأذى والاحتمال منهم ﴿تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا﴾ [سورة الفتح: ٢٩] أي تظهر علامتهم في جباههم من أثر السجدة في الصلاة لكثرة التعبد بالليل والنهار ﴿ذَٰلِكَ﴾ ما تقدم من هذه الصفات الجليلة ﴿مَثَلُهُمْ﴾ أي وصفهم العجيب الشأن الذي وصفوا به ﴿فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ﴾ الذي وصفوا به ﴿فِى ٱلْإِنجِيلِ﴾ تكرير ذكر المثل لزيادة تقريره وللتنبيه على غرابته وأنه جار مجرى الأمثال في الغرابة ﴿كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ﴾ كلام مستأنف عام كزرع وقيل: هو تفسير لذلك على أنه إشارة مبهمة لم يرد به ما تقدم من أوصاف وقيل: خبر لقوله: ﴿وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ﴾ أي ومثلهم في الإنجيل كزرع. ومعنى شطأه: أن الشطأ قوى الزرع. وقيل الزرع قوى الشطأ ﴿فَٱسْتَغْلَظَ﴾ صار ذلك الزرع غليظاً بعد ما كان دقيقاً ﴿فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ﴾ فاستقام على

أعواده والسوق جمع ساق ﴿يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ﴾ أي يعجب هذا الزرع زراعه لقوته وحسن منظره وهنا تم المثل.

قلت: وهذا المثل ضربه الله سبحانه لأصحاب محمد ﷺ وأنهم يكونون في الابتداء قليلاً ثم يزدادون ويكثرون ويقوون كالزرع فإنه يكون في الابتداء ضعيفاً ثم يقوى حالاً بعد حال حتى يغلظ ساقه. وعن بعض الصحابة أنه لما قرأ هذه الآية قال: «**أَنْتُمُ الزَّرْعُ وَقَدْ دَنَا حَصَادُهُ**»[1].

ثم ذكر سبحانه علة تكثيره لأصحاب نبيه ﷺ وتقويته لهم وتشبيههم بالزرع فقال: ﴿لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ﴾ أي إنما كثرهم وقواهم ليكونوا غيظاً للكفار. قال مالك بن أنس: من أصبح وفي قلبه غيظ على أصحاب رسول الله ﷺ فقد أصابته هذه الآية.

وقد مدحهم الله وأثنى عليهم في قوله تعالى: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَـٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّـٰدِقُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَـٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾﴾ [سورة الحشر: ٨-٩] الفائزون الظافرون بكل مطلوب.

وأخرج البخاري عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: «**أُوصِي الخَلِيفَةَ بَعْدِي بِالمُهَاجِرِينَ الأَوَّلِينَ أَنْ يَعْرِفَ لَهُمْ حَقَّهُمْ وَيَحْفَظَ لَهُمْ حُرْمَتَهُمْ وَأُوصِيهِ بِالأَنْصَارِ، الَّذِينَ ﴿تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَـٰنَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أَنْ يُقْبَلَ مِنْ مُحْسِنِهِمْ وَيَتَجَاوَزَ**

---

(١) رواه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٣٧٥١٧)، والحاكم (٣٧١٨)، والبيهقي (١٧٧١٦)، قال الحاكم: صحيح على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي.

عَنْ مُسِيئِهِمْ»[١].

والآية فيها دلالة عظيمة على فضل المهاجرين من الأصحاب والأنصار منهم وحجة على من لا يرضى منهم من الرافضة والخارجة ونحوهما.

(١) رواه البخاري (١٣٩٢).

مكائد الشيطان

ذكر المصنف أنه نقل ملخصاً مما اختصره ابن القيم في «إغاثة اللهفان من مكائد الشيطان» وإني ألخص ما لخصه مما يناسب المقام في هذا المختصر.

أنواع الفتنة

الفتنة نوعان: فتنة الشبهات، وفتنة الشهوات.

ففتنة الشبهات من ضعف البصيرة وقلة العلم ولا سيما إذا اقترن بذلك فساد القصد وحصول الهوى. قال تعالى: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ﴾ [سورة النجم: ٢٣]وهذه الفتنة مآلها إلى الكفر والنفاق، وهي فتنة المنافقين وفتنة أهل البدع على حسب مراتبهم في الابتداع، ولا ينجي من هذه الفتنة إلا تجريد اتباع الرسول وتحكيمه في دِقّ الدين وجِلّه وظاهره وباطنه، فالهدى دائر على أقواله وأفعاله [وتقريراته]، وكل ما خرج عنها فهو ضلال.

وأما فتنة الشهوات فتدفع بالصبر كما تدفع فتنة الشبهات باليقين، فقوله تعالى: ﴿وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ﴾ إشارة إلى ما يدفع به الشبهات، وقوله: ﴿وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ﴿٣﴾﴾ [سورة العصر: ٣]إشارة إلى ما يدفع به فتنة الشهوات.

فصل

وإذا سلم العبد من فتنة الشبهات والشهوات حصل له أعظم غايتين مطلوبتين بهما سعادته وفلاحه وكماله وهما الهدى والرحمة قال تعالى: ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾﴾ [سورة الكهف: ٦٥] فجمع له بين الرحمة والعلم وذلك نظير قول أصحاب الكهف: ﴿إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ

إِلَى ٱلْكَهْفِ فَقَالُوا۟ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴿١٠﴾ [سورة الكهف: ١٠] فإن الرشد هو العلم بما ينفع والعمل به والرشد والهدى إذا أفرد كل واحد منهما تضمن الآخر وإذا قرنت أحدهما بالآخر فالهدى هو العلم بالحق والرشد هو العمل به وضدهما الغي واتباع الهوى.

سوء الفهم والاعتقاد الفاسد

وهاهنا نكتة وهي أن الإنسان قد يسمع ويرى ما يصيب كثيراً من أهل الإيمان في الدنيا من المصائب وما ينال كثيراً من الفجار في الدنيا من الرياسة والمال وغير ذلك فيعتقد أن النعيم في الدنيا لا يكون إلا للكفار والفجار وأن المؤمنين حظهم من النعيم في الدنيا قليل. وكذلك قد يعتقد أن العزة والنصرة في الدنيا قد تستقر للكفار والمنافقين على المؤمنين فإذا سمع في القرآن قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [سورة المنافقون: ٨] وقوله: ﴿وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾﴾ [سورة الصافات: ١٧٣] وقوله: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ﴾ [سورة المجادلة: ٢١] وقوله: ﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾﴾ [سورة الأعراف: ١٢٨] ونحو هذه الآيات وهو ممن يصدق بالقرآن حمل ذلك على حصوله في الدار الآخرة فقط أما في الدنيا فإنا نرى الكفار والمنافقين يغلبون فيها ويظهرون ويكون لهم النصر والظفر والقرآن لا يرد بخلاف الحسن، ويعتمد على هذا الظن إذا أديل عليه عدو من جنس الكفار والمنافقين أو الفجوة الظالمين وهو عند نفسه من أهل الإيمان والتقوى فيرى أن صاحب الباطل قد علا على صاحب الحق فإذا ذكر بها وعده الله من حسن العاقبة للمتقين قال: هذا في الآخرة وأما الدنيا فصاحب الحق مغلوب مقهور وإذا قيل له: كيف يفعل الله تعالى بأوليائه وأهل الحق؟ فإن كان ممن لا يعلل أفعال الله بالحكم والمصالح قال: يفعل الله في ملكه ما يشاء ويحكم ما يريد لا يسأل

عما يفعل وهم يسألون. وإن كان ممن يعلل الأفعال قال: فعل بهم هذا ليعوضهم بالصبر عليه ثواب الآخرة وعلو الدرجات وتوفية الأجر بغير حساب ولقد بلغنا وشاهدنا من كثير من هؤلاء من التظليم للرب واتهامه بما لا يصدر إلا من عدو. وكان الجهم بن صفوان يخرج بأصحابه فيقف على الجذْمَى وأهلِ البلاء، ويقول: انظروا أرحم الراحمين يفعل مثل هذا، إنكاراً لرحمته، كما أنكر حكمته، فليس الله عند جهم وأتباعه بحكيم ولا رحيم. وقال بعض كبار القوم: ما على الخلق أضر من الخالق. وقال لي غير واحد: إذا أتيتُ إليه وأنبتُ وعملتُ صالحاً ضيق عليَّ رزقي ونكَّد معيشتي، وإذا راجعت المعصية فأعطيت نفسي مرادها جاءني الرزق. وهذه الظنون الكاذبة مبنية على مقدمتين:

إحداهما: حسن ظن العبد بنفسه، وتدينه، واعتقاده أنه قائم بما يجب عليه، تارك ما نُهي عنه، واعتقاده في خصمه وعدوه خلاف ذلك.

المقدمة الثانية: اعتقاده أن الله سبحانه قد لا يؤيد صاحب الدين الحق، وقد لا يجعل له العاقبة في الدنيا بوجه من الوجوه، بل يعيش عمره مظلوماً مقهوراً مع قيامه بما أمر به ظاهراً وباطناً، فهو عند نفسه قائم بشرائع الإسلام، وحقائق الإيمان، وهو تحت قهر أهل الظلم والفجور والعدوان. فلا إله إلا الله. كم فسر بهذا الاغترار من عابد جاهل ومتدين لا بصيرة له ومنتسب إلى العلم لا معرفة له بحقائق الدين. فإنه من المعلوم أن العبد وإن آمن بالآخرة، فإنه طلب في الدنيا ما لا بد منه من جلب النفع ودفع الضرر، يعتقد أنه واجب أو مستحب أو مباح. فإذا اعتقد أن الدين الحق واتباع الهدى والاستقامة على التوحيد ومتابعة السنة ينفي ذلك وأنه يعادي جميع أهل الأرض ويتعرض لما لا يقدر عليه من البلاء وفوات حظوظه ومنافعه العاجلة لزم من ذلك إعراضه عن الرغبة في كمال دينه وتجرده لله ولرسوله فيعرض عن حال السابقين المقربين بل قد يعرض عن حال المقتصدين

من أصحاب اليمين بل قد يعرض حتى يدخل مع الظالمين بل مع المنافقين. فسبحان الله كم صدت هذه الفتنة كثيراً من الخلق بل أكثرهم عن القيام بحقيقة الدين، ولا شك أن أصل المقدمتين اللتين بنيت عليهما هذه الفتنة: الجهل بأمر الله ودينه ووعده ووعيده وحقيقة النعم التي هي غاية مطلوب النفوس وكمالها وبه ابتهاجها والتذاذها.

فيعرض عن القيام بحقيقة الدين وعن طلب حقيقة النعيم، ويعتقد لجهله أمر الدين أنه قائم بالدين الحق، فاعل للمأمور ظاهراً وباطناً تارك للمحظور، كذلك لجهله بالدين الحق وما لله عليه وما هو المراد منه. وإذا اعتقد أن صاحب الحق لا ينصره الله في الدنيا والآخرة بل تكون العاقبة في الدنيا للكفار والمنافقين فهذا من جهله بوعد الله ووعيده.

فأما المقام الأول: فإن العبد كثيراً ما يترك واجبات لا يعلم بها ولا بوجوبها فيكون مقصراً وكثيراً ما يتركها بعد العلم بها وبوجوبها إما كسلاً وتهاوناً وإما لنوع تأويل باطل أو تقليد أو لظنه أنه مشتغل بما هو أوجب منها أو لغير ذلك. فواجبات القلوب أشد وجوباً من واجبات الأبدان وآكد منها. فتراه يتحرَّج من ترك واجب من واجبات البدن، وقد ترك ما هو أهم من واجبات القلوب. ويتحرَّج من فعل أدنى المحرمات، وقد ارتكب من محرمات القلوب ما هو أشد تحريماً. بل أكثر من يتعبد لله بترك ما أوجب عليه فيتخلى وينقطع عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مع قدرته عليه ويزعم أنه متقرب إلى الله بذلك مجتمع على ربه تارك ما لا يعنيه. فهذا من أمقت الخلق إلى الله مع ظنه أنه قائم بحق الإيمان وشرائع الإسلام. وما أكثر من يعتقد أنه هو المظلوم المحق من كل وجه ولا يكون الأمر كذلك والإنسان مجبول على حب نفسه فهو لا يرى إلا محاسنها ومبغض لخصمه فهو لا يرى إلا مساوئه بل قد يشتد حبه لنفسه حتى يرى مساويها محاسن، قال تعالى:

﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنٗاۖ﴾ [سورة فاطر: ٨] فإذا أصيب بمصيبة في نفسه أو ماله أو بإمالة عدو عليه فإنما هي بذنوبه إما بترك واجب أو فعل محرم وبهذا يزول الإشكال الذي يورده كثير من العلماء على قوله تعالى: ﴿وَلَن يَجۡعَلَ ٱللَّهُ لِلۡكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ سَبِيلًا ١٤١﴾ [سورة النساء: ١٤١]، ويجيب عنه كثير منهم بأنه لن يجعل لهم عليهم سبيلاً في الآخرة. ويجيب آخرون بأنه لن يجعل لهم عليهم سبيلاً في الحجة. والتحقيق أن انتفاء السبيل عن أهل الإيمان الكامل وإذا ضعف الإيمان صار لعدوهم عليهم من السبيل بحسب ما نقص من إيمانهم فهم جعلوا لهم عليهم السبيل بما تركوه من طاعة. (وهذا هو البرهان الواضح ويؤيده التاريخ عن أهل الإيمان الكامل من الصحابة وغيرهم ماذا حصل لهم من النصر العظيم والفوز في هذه الحياة).

فصل

وأما المقام الثاني: فكثير من الناس يظن أن أهل الدين الحق يكونون في الدنيا أذلاء مقهورين مغلوبين دائماً بخلاف من فارقهم فلا يثق بوعد الله بنصر دينه، بل إما أن يجعله خاصاً بطائفة دون طائفة أو بزمان دون زمان، ويجعله متعلقاً بالمشيئة وإن لم يصرح بها، وهذا من عدم الوثوق بوعد الله وسوء الفهم في كتابه، والله سبحانه قد بين في كتابه أنه ناصر المؤمنين في الدنيا والآخرة. قال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡأَشۡهَٰدُ ٥١﴾ [سورة غافر: ٥١] وقال تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَإِنَّ حِزۡبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡغَٰلِبُونَ ٥٦﴾ [سورة المائدة: ٥٦] وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلۡأَذَلِّينَ ٢٠ كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغۡلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٞ ٢١﴾ [سورة المجادلة: ٢٠-٢١]،

وهذا كثير في القرآن وقد بين سبحانه فيه أن ما أصاب العبد من مصيبة أو إدالة عدو صغير أو كبير وغير ذلك فبذنوبه. فبين سبحانه في كتابه المقدمتين فإذا جمعت بينهما تبين لك حقيقة الأمور وزال عنك الإشكال بالكلية، واستغنيت عن تلك التكلفات الباردة والتأويلات البعيدة.

فصل

وتمام الكلام في هذا المقام العظيم يتبين بأصول جامعة نافعة:

الأول: أن ما يصيب المؤمنين من الشرور والمحن والأذى دون ما يصيب الكفار. والواقع شاهد بذلك وكذلك ما يصيب الأبرار في هذه الحياة دون ما يصيب الفجار والفسقة والظلمة [لأن هذا سبب لتمحيص الذنوب].

الأصل الثاني: أن ما يصيب المؤمنين في الله مقرون بالرضا والاحتساب، فإن فاتهم الرضا فمعولهم على الصبر والاحتساب، وذلك يخفف عنهم ثقل البلاء.

الأصل الثالث: أن المؤمن إذا أوذي في الله فإنه محمول عنه بحسب طاعته وإخلاصه ومعان عليه.

الأصل الرابع: أن المحبة كلما تمكنت في القلب ورسخت كان أذى المحب في رضا محبوبه مستحلى والمحبون يفتخرون بذلك.

الأصل الخامس: أن ما يصيب الكافر أو الفاجر من العز والنصر والجاه دون ما يحصل للمؤمنين، فباطن ذلك ذل وكسر.

الأصل السادس: أن ابتلاء المؤمن كالدواء له يستخرج منه الأدواء ويستعد به لتمام الأجر وعلو المنزلة. ومعلوم أن وجود هذا خير للمؤمنين من عدمه ولهذا كان أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الأقرب إليهم فالأقرب.

الأصل السابع: أن ما يصيب المؤمن في هذه الدار من إدالة عدوه عليه وغلبته

له في بعض الأحيان أمر لازم لابد منه وهو كالحر الشديد والبرد الشديد والأمراض والهموم والغموم لازم للطبيعة والنشأة الإنسانية في هذه الدار حتى الأطفال والبهائم لما اقتضته حكمة أحكم الحاكمين. فلو تجرد الخير في هذا عن الشر لكان عالماً غير هذا ونشأة أخرى غير هذه النشأة وفاتت الحكمة التي مزج لأجلها بين الخير والشر.

الأصل الثامن: أن ابتلاء المؤمنين بغلبة عدوهم لهم وقهرهم وكسرهم لهم أحياناً فيه حِكَم عظيمة لا يعلمها على التفصيل إلا الله. **فمنها**: استخراج عبوديتهم وذلهم لله وانكسارهم له وافتقارهم إليه وسؤاله نصرهم على أعدائهم ولو كانوا دائماً منصورين لبطروا وشروا. **ومنها**: أنهم لو كانوا دائماً منصورين لدخل معهم من لبس قصده الدين ومتابعة الرسول ﷺ وإنما انضاف إلى من له الغلبة والعزة ولو كانوا مقهورين مغلوبين دائماً لم يدخل معهم أحد. فاقتضت الحكمة الإلهية أن كانت لهم الدولة تارة وعليهم تارة. فيتميز بذلك من يريد الله ورسوله ومن لا يريد إلا الدنيا والجاه [ومنها ومنها ... لحكم أرادها الله].

الأصل التاسع: أنه سبحانه إنما خلق السماوات والأرض وخلق الموت والحياة وزين الأرض بما عليها ابتلاء لعباده ليعلم من يريده ويريد ما عنده ممن يريد الدنيا وزينتها قال تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۝٧﴾ [سورة الكهف: ٧] إلى غير ذلك من الآيات. والامتحان لا بد منه للمؤمن والكافر. فالمؤمن ليتبين هل هو صادق في إيمانه وغير المؤمن يمتحن في الآخرة بالعذاب وهي أعظم المحنتين، هذا إن سلم من امتحانه بعذاب الدنيا ومصائبها. فلا بد من المحنة في هذه الدار وفي البرزخ وفي يوم القيامة لكل أحد.

الأصل العاشر: هو أن الإنسان مدني بالطبع لابد له أن يعيش مع الناس فإن لم

يوافقهم آذوه وعذبوه وإن وافقهم حصل له الأذى والعذاب من وجه، فلا بد من الناس ومخالطتهم ولا ينفك عن موافقتهم أو مخالفتهم وفي الموافقة ألم وعذاب إذا كانت على باطل وفي المخالفة ألم وعذاب إن لم يوافقهم على أهوائهم. ولا ريب أن ألم المخالفة في باطلهم أسهل وأيسر من الألم المرتب على موافقتهم.

الأصل الحادي عشر: أن البلاء الذي يصيب العبد في الله لا يخرج عن أربعة أقسام: في نفسه أو في ماله أو في عرضه أو في أهله ومن يحب والذي في نفسه قد يكون بتلفها وبتألّمها. وأشد هذه الأقسام المصيبة في النفس، ومن المعلوم أن الخلق كلهم يموتون. وغاية هذا المؤمن أن يستشهد في الله وتلك أشرف الموتات وأسهلها فإنه لا يجد الشهيد من الألم إلا مثل ألم القرصة.

فليس في قتل الشهيد مصيبة زائدة على ما هو معتاد لبني آدم، فمن عده مصيبة هذا القتل أعظم من مصيبة الموت على الفراش فهو جاهل. ولكن الفارّ يظن أنه بفراره يطول عمره فيتمتع بالعيش، فقد أكذب الله هذا الظن حيث قال: ﴿قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٦﴾﴾ [سورة الأحزاب: ١٦] إذ لابد من الموت فيفوته بهذا القتل ما هو خير منه وأنفع من حياة الشهيد عند ربه. ثم قال: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧﴾﴾ [سورة الأحزاب: ١٧]، وإذا كان هذا في مصيبة النفس فهكذا الأمر في مصيبة المال والعرض والبدن وأن من بخل بماله ينفقه في سبيل الله وإعلاء كلمته سلبه الله إياه أو قبض له إنفاقه فيما لا ينفعه دنيا ولا أخرى بل فيما يعود عليه بمضرته عاجلاً أو آجلاً. وكذلك من رفّه بدنه أو عرضه وآثر راحته على التعب لله وفي سبيله أتعبه الله سبحانه أضعاف ذلك في غير سبيله ومرضاته وهذا أمر يعرفه الناس بالتجارب.

فصل في خاتمة لهذا الباب
وهي الغاية المطلوبة وكل ما تقدم وسيلة إليها

وهي أن محبته سبحانه وتعالى والأنس به والشوق إلى لقائه والرضا به وعنه أصل الدين وأصل أعماله وإرادته كما أن معرفته والعلم بأسمائه وصفاته وأفعاله أجل الدين فمعرفته أجل المعارف وإرادة وجهه أجل المقاصد وعبادته أشرف الأعمال والثناء عليه بأسمائه وصفاته ومدحه وتمجيده أشرف الأقوال وذلك أساس الحنيفية ملة إبراهيم، وقد قال تعالى: ﴿ ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٣﴾ ﴾ [سورة النحل: ١٢٣] فكان النبي ﷺ يوصي أصحابه إذا أصبحوا أن يقولوا: «**أَصْبَحْنَا عَلَى فِطْرَةِ الإِسْلَامِ وَكَلِمَةِ الإِخْلَاصِ وَدِينِ نَبِيِّنَا ﷺ وَمِلَّةِ أَبِينَا إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ**»(١) فمحبته سبحانه بل كونه أحب إلى العبد وكل ما سواه على الإطلاق من أعظم واجبات الدين وأكبر أصوله وأجل قواعده. ومن أحب معه مخلوقاً مثل ما يحبه فهو من الشرك الذي لا يغفر لصاحبه ولا يقبل معه عمل.

وهو سبحانه لم يخلق الإنس والجن إلا لعبادته التي تتضمن كمال محبته وكمال تعظيمه والذل له ولأجل ذلك أرسل رسله وأنزل كتبه. وكما أنه سبحانه ليس كمثله شيء، فليس كمحبتِه وإجلالِه وخوفِه؛ محبةٌ وإجلالٌ وخوفٌ. فالمخلوق كلما خفته استوحشت منه وهربت منه، والله سبحانه كلما خفته أنست به وفررت إليه، والمخلوق يُخاف ظلمه وعدوانه، والرب سبحانه إنما يخاف عدله وقسطه. وكذلك المحبة فإن محبة المخلوق إذا لم تكن لله فهي عذاب للمحب ووبال عليه وما يحصل له بها من التألم أعظم مما يحصل من العزة وكلما كانت أبعد عن الله سبحانه كان ألمها

---

(١) رواه أحمد (١٥٣٦٤) والنسائي في «الكبرى» (٩٧٤٣) والدارمي (٢٧٣٠)، وهو صحيح.

وعذابها أعظم وأما محبة الله سبحانه فشأنها غير هذا الشأن فإنه لا شيء أحب إلى القلوب من خالقها فمحبته نعيم النفوس وحياة الأرواح وقرة العيون وعمارة الباطن فليس عند القلوب السليمة والأرواح الطيبة والعقول الزاكية أحلى ولا ألذ ولا أطيب ولا أسر ولا أنعم من محبته والأنس به والشوق إلى لقائه، والحلاوة التي يجدها المؤمن في قلبه بذلك فوق كل حلاوة والنعيم الذي يحصل له بذلك أتم من كل نعيم.

فصل في كيد الشيطان نفسه

ثم لم يقتصر على ذلك حتى كاد ذرية نفسه وذرية آدم، فكان مشؤوماً على نفسه وعلى ذريته وأوليائه وأهل طاعته من الجن والإنس، أما كيده لنفسه فإن الله سبحانه لما أمره بالسجود لآدم كان في امتثال أمره وطاعته سعادته وفلاحه فسولت له نفسه أن في سجوده لآدم غضاضة عليه وهضماً، إذ يخضع ويقع ساجداً لمن خلق من طين وهو مخلوق من نار، والنار بزعمه أشرف من الطين، وقارن ذلك حسده لآدم على ما خصه به من أنواع الكرامة، فإنه خلقه بيده، ونفخ فيه من روحه، وأسجد له ملائكته، وعلمه أسماء كل شيء، وميزه بذلك عن الملائكة، وأسكنه جنته. فعارض النص بالمعقول بزعمه كفعل أوليائه من المبطلين، وقال: ﴿أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ ٧٦﴾ [سورة ص: ٧٦] اعتراضاً على حكمة ربه وامتنع من السجود، فجمع بين الجهل والظلم والكبر والحسد والمعصية ومعارضة النص بالرأي والعقل. فأهان نفسه كل الإهانة من حيث أراد تعظيمها، ووضعها من حيث أراد رفعتها، وأذلها من حيث أراد عزها، ففعل بنفسه ما لو اجتهد أعظم أعدائه في مضرته لم يبلغ منه ذلك المبلغ. ومن كان هذا غشه لنفسه فكيف يسمع منه العاقل ويقبل منه أو يواليه. قال تعالى: ﴿وَإِذۡ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ

إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ﴿٥٠﴾﴾ [سورة الكهف: ٥٠].

فصل في كيده للأبوين

وأما كيده للأبوين فقد قص الله علينا قصته معهما وأنه لم يزل يخدعهما ويمنيهما الخلود في الجنة حتى حلف لهما بالله جهد يمينه أنه ناصح لهما فجرى عليهما من المحنة والخروج من الجنة ما جرى ورد الله كيده وتدارك الأبوين برحمته ومغفرته فأعادهما إلى الجنة، وعاد عاقبة مكره عليه ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾ [سورة فاطر: ٤٣] ظن عدو الله أن الغلبة والظفر له في هذا الحرب ولم يعلم بكمين جيش: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [سورة الأعراف: ٢٣] ولا بإقبال دولة: ﴿ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾﴾ [سورة طه: ١٢٢] ظن اللعين بجهله أن الله سبحانه يتخلى عن صفيه وحبيبه الذي خلقه بيده ونفخ فيه من روحه وأسجد له ملائكته وعلمه أسماء كل شيء من أكلة أكلها. وما علم أن الطبيب قد علّم المريض الدواء قبل المرض فلما أحسن المرض بادر إلى استعماله الدواء.

وتلاعُب الشيطان بالمشركين في عبادة الأصنام له أسباب عديدة، يلاعب بكل قوم على قدر عقولهم، فطائفة منهم دعاهم إلى عبادتها من جهة تعظيم الموتى الذين صوروا تلك الأصنام على قبورهم [وقد تقدم معنى ذلك]، ومنهم من يعبد الشمس، ويزعم أنها ملك من الملائكة، له نفس وعقل، وهي أصل نور القمر والكواكب والموجودات السفلية كلها منها. واتخذوا إلهاً صنماً بيده جوهرة على لون النار، وله بيت خاص له وقوف كثيرة من القرى والضياع، وله سدنة وصحبة يأتون البيت ويصلون فيه ويستشفون به. فإذا طلعت الشمس سجدوا لها وكذا إذا

غربت أو توسطت في الفلك، ولهذا يقارنها الشيطان في هذه الأوقات؛ لتقع عبادتهم وسجودهم له، ولهذا نهى النبي ﷺ عن تحري الصلاة في هذه الأوقات، ومن أسباب عبادتها أن الشياطين تدخل فيها وتخاطبهم منها، وتخبرهم ببعض المغيبات، فجهلتهم يظنون أن الصنم نفسه هو المتكلم، وعقلاؤهم يقولون: تلك روحانيات الأجرام العلوية، وهؤلاء هم أكثر أهل الأرض.

فصل

ومن أسباب عبادة الأصنام الغلو في المخلوق، وإعطاؤه فوق منزلته حتى جُعل فيه حظٌّ من الإلهية، وشُبِّه بالله تعالى. وهذا هو التشبيه الذي أبطله الله وبعث رسله بإنكاره والرد على أهله، فهو سبحانه ينفي وينهى أن يجعل غيره مثلاً له، ونداً له، لا أن يشبه هو بغيره. إذ ليس في الأمم المعروفة أمة جعلته سبحانه مثلاً لشيء من مخلوقاته وإنما العدو في طوائف أهل الشرك الغلو فيمن يعظمونه بتشبيهه بالخالق بل جعلوه هو الإله و،نه هو المعبود الذي يرجى ويخاف، وكل مشرك فهو شبه إلهه ومعبوده بالله سبحانه، وإن لم يشبهه من كل وجه، حتى إن الذين وصفوه بالنقائص والعيوب كقولهم: إن الله فقير، وإن يده مغلولة، وإنه استراح لما فرغ من خلق العالم، والذين جعلوا له ولداً وصاحبة، لم يكن قصدهم أن يجعلوا المخلوق أصلاً ثم يشبهون به الخالق تعالى، بل وصفوه بهذه استقلالاً، لا قصداً أن يكون غيره أصلاً فيما هو مشبه به. ولذا كان وصفه سبحانه بهذه الأمور من أبطل الباطل، لكونها في نفسها نقائص وعيوباً. والمقصود أنه لم يكن في الأمم مَن مَثَّله بخلقه، وجعل المخلوق أصلاً ثم شبهه به، وإنما كان التمثيل والتشبيه في الأمم. وهذا التشبيه هو أصل عبادة الأصنام، فأعرض عنه وعن بيان بطلانه أهل الكلام، وصرفوا العناية إلى إنكار تشبيهه بالخلق الذي لم تعرف أمة من الأمم عليه، وبالغوا

فيه حتى نفوا عنه صفات الكمال، وهذا موضع مهم نافع جداً، يعرف الفَرْق بين ما نزَّه الرب سبحانه نفسه عنه، وذم به المشركين المشبهين العادلين به خلقه، وبين ما تنفيه الجهمية المعطلة من صفات كماله، ويزعمون أن القرآن دل عليه، والقرآن مملوء من إبطال أن يكون في المخلوقات من يشبه الرب أو يماثله، فهذا هو الذي قُصد بالقرآن، إبطالاً لما عليه المشركون والمشبهون العادلون بالله غيره، قال تعالى: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [سورة البقرة: ٢٢]، وقال: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا﴾ [سورة البقرة: ١٦٥]، هؤلاء جعلوا المخلوق مثلاً للخالق فالنِّد: الشبه، فلان ند فلان، أي مثله وشبهه.

فصل

ومن كيده وتلاعبه ما تلاعب بعباد النار حتى اتخذوها إلهاً معبودة، وقد قيل: إن هذا من عهد قابيل، وأنه لما قتل أخاه هابيل وهرب من أبيه آدم، أتاه إبليس فقال له: إن هابيل إنما قُبل منه قربانه وأكلته النار لأنه كان يخدمها ويعبدها، فانصب أنت ناراً تكون لك ولعقبك، فبنى بيت نار. فهو أول من نصب النار وعبدها، وسرى هذا المذهب إلى المجوس، فبنوا لها بيوتاً كثيرة واتخذوا الوقوف والسدنة والحجاب لها ولم يدعوها تخمد لحظة واحدة. عباد النار يفضلونها على التراب، ويصوِّبون رأي إبليس، ويقولون: إنها أوسع العناصر حيِّزاً وأعظمها جرماً وأوسعها مكاناً وأشرفها جوهراً وألطفها جسماً، ولا كون في العالم إلا بها ولا نمو ولا انعقاد إلا بممازجتها، ومنهم من يبلغ عبادتهم لها أن يقربوا أنفسهم لها، فيأتي الرجل بنفسه أو بولده فيلبسه أحسن اللباس وأفخر الحلي ويركب أعلى المراكب، وحوله المعازف والطبول فيزف إلى النار أعظم من زفاف العروس، حتى إذا قابلها طرح نفسه فيها وضج الحاضرون ضجة عظيمة بالدعاء له وغبطةً على ما فعل، فلا يلبث إلا يسيراً

حتى يأتيهم الشيطان في صورته، لا ينكرون منه شيئاً، فيوصيهم بالتمسك بهذا الدين، وأنه لم يمسه من ألم النار شيء، وصار إلى جنة ونعيم.

فصل

وطائفة أخرى عبدت الماء وقالت: هو أصل كل شيء وبه كل ولادة ونمو وطهارة وعمارة، وما من عمل إلا يحتاج فيه إليه. وتلاعب بعباد الحيوانات؛ فعبد بعضهم الخيل، وبعضهم عبد البقر؛ وبعضهم البشر الأحياء والأموات؛ وتلاعب بقوم فعبدوا الشجر؛ وبطائفة فعبدوا الجن. [وأكثر هذه العبادات والاعتقادات أو كلها موجودة الآن في بلاد الهند وغيرها].

فصل

وزين لقوم عبادة الملائكة وتلاعب بالثنوية فعبدوا النور وقالوا: الصانع اثنان: ففاعل الخير، النور. وفاعل الشر، الظلمة. ولهم مقالات في غاية القبح والتناقض. وقريب منهم المجوس: يعظمون الأنوار والنيران والماء والأرض وهم فرق شتى.

فصل في ذكر تلاعبه بالدهرية

الدهرية قوم عطلوا المصنوعات عن صانعها، وقالوا ما حكاه الله عنهم: ﴿مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾ [سورة الجاثية: ٢٤]، وهم فرقتان:

١- فرقة قالت: إن الخالق سبحانه خلق الأفلاك متحركة أعظم حركة، فدارت عليه فأحرقته، ولم يقدر على ضبطها وإمساك حركتها.

٢- وفرقة قالت: إن الأشياء ليس لها أول البتة، وإنما تخرج من القوة إلى الفعل، فإذا خرج ما كان بالقوة إلى الفعل تكونت الأشياء، مركباتها وبسائطها من ذاتها لا من شيء آخر، وقالوا: إن العالم لم يزل ولا يزال، لا يتغير ولا يضمحل،

ولا يجوز أن يكون المبدع يفعل فعلاً يبطل ويضمحل إلا وهو يبطل ويضمحل مع فعله، وهذا العالم هو الممسك هذه الأجزاء التي فيه.

وهؤلاء هم المعطلة حقاً، وقد سرى هذا التعطيل إلى سائر فرق المعطلة على اختلاف آرائهم في التعطيل، كما سرى داء الشرك في سائر فرق المشركين على اختلاف مذاهبهم فيه. وكما سرى جحد النبوة في سائر من جحد النبوة أو صفة من صفاتها أو أقرَّ بها جملة وجحد مقصودها، [بل هذا القول والاعتقاد هو نفي لوجود الله ولرسوله، وقد سرى ذلك في العالم سريان الماء في الأغصان، فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم]، ولم ينج إلا أتباع الرسول، العارفون بحقيقة ما جاء به، المتمسكون به دون ما سواه ظاهراً وباطناً، فَدَاءُ التعطيل وداءُ الإشراك وداءُ مخالفة الرسول وجحدُ ما جاء به أو شيء منه هو منبع كل شر وفساد في العالم. فليست فرقة من فرق أهل الإلحاد والباطل والبدع إلا وقولها مشتق من هذه الأصول أو بعضها.

فَإِنْ تَنْجُ مِنْهـا تَـنْجُ مِـنْ ذِي عَظِيمَـةٍ وَإِلَّا فَــإِنِّي لَا أَخَالُــكَ نَاجِيــاً

فصل

وهذه البلايا ليست عامة لجميع الفلاسفة، فإن الفلسفة من حيث هي لا تقتضي ذلك، فإن معناها محبة الحكمة، والفيلسوف محب الحكمة.

وقد صار هذا الاسم في عرف كثير من الناس مختصاً بمن خرج عن ديانات الأنبياء وذهب إلى ما يقتضيه مجرد العقل في زعمه، وأخص من ذلك أنه في عرف المتأخرين اسم لأتباع (أرسطو) وهم الذين هذب (ابن سينا) طريقتهم، وهم فرقة شاذة من فرق الفلاسفة، حتى قيل: إنه لم يقل من الفلاسفة بقدم العالم غير (أرسطو) وأصحابه.

بيان الإجماع على حدوث العالم وعلى إثبات صفة العلو لله

والأساطين قبل (أرسطو) كانوا يقولون بحدوث العالم، وإثبات الصانع ومباينته للعالم، وأنه فوق العالم وفوق السماوات بذاته، كما حكاه أبو الوليد بن زيد في كتابه «مناهج الأدلة»، وهو أعلم الناس في زمانه بمقالاتهم، فقال فيه القول في الجهة. وأما هذه الصفة فلم يزل أهل الشريعة من أول الأمر بثبوتها لله سبحانه، حتى نفتها المعتزلة، ثم تبعهم على نفيها متأخروا الأشاعرة، كأبي المعالي ومن اقتدى بقوله، إلى أن قال: والشرائع كلها مبنية على أن الله في السماء، وأن منه تنزل الملائكة بالوحي إلى النبيين، وأن من السماوات نزلت الكتب، وإليها كان الإسراء بالنبي ﷺ. وجميع الحكماء قد اتفقوا على أن الله والملائكة في السماء، كما اتفقت جميع الشرائع على ذلك. ثم ذكر تقرير ذلك بالمعقول، وبيَّن بطلان الشبهة التي من أجلها نفتها الجهمية ومن وافقهم، إلى أن قال: فقد ظهر لك من هذا أن إثبات الجهة واجب بالشرع والعقل، وأن إبطاله إبطال الشرائع. ولم يزل أساطينهم معظمين للرسل والشرائع، معترفين بأن ما جاءوا به طور آخر وراء طور العقل. وكانوا لا يتكلمون في الإلهيات، ويسلمون باب الكلام فيها إلى الرسل، ويقولون: علومنا إنما هي الربانيات والطبيعيات وتوابعها.

وحكى أرباب المقالات أن أول من عرف منه القول بقدم العالم (أرسطو)، وكان مشركاً يعبد الأصنام، وله في الإلهيات كلام كله خطأ، قد ردّه عليه طوائف المسلمين، حتى الجهمية والمعتزلة والقدرية والرافضة وفلاسفة الإسلام. وأنكر أن يعلم الله شيئاً من الموجودات، وقال: لو علم شيئاً لكمل بمعلوماته، ولم يكن كاملاً في نفسه، وكان يلحقه التعب من تصور المعلومات. وتبعه من تَسَتَّر باتباع الرسل وهو منحل من كل ما جاءوا به، ويسمونه المعلم الأول، لأنه أول من وضع لهم التعاليم المنطقية. وزعم (أرسطو) وأتباعه أن المنطق ميزان المعاني، كما أن العروض

ميزان الشعر. وقد بين نظار الإسلام فساد هذا الميزان وعوجه وتخبيطه للأذهان، وصنفوا في رده وتهافته، وآخر مَن صنَّف في ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية.

والمقصود أن الملاحدة درجت على أثر هذا المعلم حتى انتهت النوبة إلى معلمهم أبي نصر الفارابي فوضع لهم التعاليم الصوتية كما أن المعلم الأول وضع لهم التعاليم الحرفية ثم وسع الفارابي الكلام في صناعة المنطق وشرح فلسفة (أرسطو) وهذبها. وأما الإيمان بالملائكة فهم لا يعرفون الملائكة ولا يؤمنون بهم وإنما الملك عندهم ما يتصوره النبي من أشكال نورانية هي العقول عندهم وهي المجردات ليست داخل العالم ولا خارجه ولا فوق السموات ولا تحتها ولا هي أشخاص تتحرك ولا إحساس لها ولا حركة. وكذلك الكتب ليس لله عندهم كلام أنزله بواسطة الملك فإنه ما قال شيئاً ولا يقول. ومن يقرب منهم من المسلمين يقول: الكتب المنزلة فيض فاض من العقل الفعال على النفس المستعدة الفاضلة الزكية.

وللنبوة عندهم ثلاث خصائص من استكملها فهو نبي.

أحدها: قوة الحدس، بحيث يدرك الحد الأوسط بسرعة.

والثانية: قوة التخيل، بحيث يتخيل في نفسه أشكالاً نورانية تخاطبه ويسمع الخطاب منها ويحيلها إلى غيره.

والثالثة: قوة التأثير بالتصرف في هيولي العالم، وهذا يكون عندهم بتجرد النفس من العلائق واتصالها بالمفارقات من العقول والنفوس المجردة وهذه الخصائص تحصل بالاكتساب. ولهذا طلب النبوة من تصوف على مذهب هؤلاء كابن سبعين وابن هود وإضرابهما.

وأما الإيمان باليوم الآخر؛ فهم لا يقرون بانفطار السماوات وانتثار الكواكب وقيامة الأبدان، ولا يقرون بأن الله خلق السماوات والأرض في ستة أيام، وأوجد هذا العالم بعد عدمه، فلا مبدأ عندهم ولا معاد.

فصل

والفلاسفة لا تختص بأمة، وإن كان الذين اعتنى الناس بحكاية مقالاتهم هم فلاسفة اليونان. وهم أمة لهم مملكة، وعلماؤهم فلاسفتهم، ومن ملوكهم (المقدوني)، فكان مشركاً يعبد الأصنام هو وأهل مملكته، وكان بينه وبين المسيح نيف وثلاث مائة سنة، وكان لليونانيين في دولته عز وسطوة بسبب وزيره (أرسطو)، ونشأ فيهم (سقراط)، وكان من عبادهم ومتألهيهم، وجاهرهم بمخالفتهم في عبادة الأصنام، وقابلهم بالحجج والبراهين على بطلان عبادتها، فثارت عليه العامة، فاضطر الملك إلى قتله، فأودعه في السجن ليكفهم عنه، ثم لم يرض المشركون إلا بقتله، فسقاه السم بعد مناظرات طويلة جرت لهم معه.

وكذلك (أفلاطون) كان معروفاً بالتوحيد، وإنكار عبادة الأصنام، وإثبات حدوث العالم، وكان تلميذاً لسقراط. وانتهت نوبة الملاحدة إلى (ابن سينا) وكان كما أخبر عن نفسه قال: أنا وأبي من أهل دعوة الحاكم. فكان من القرامطة الباطنية، الذين لا يؤمنون بمبدأ ولا معاد، ويتسترون بالتشيع والانتساب إلى أهل البيت، ويبطنون الإلحاد، وكانوا يقتلون أهل العلم والإيمان، ويدعون أهل الإلحاد. وفي زمنهم ولخواصهم وضعت «رسائل إخوان الصفا».

ولما انتهت النوبة إلى نصير الشرك الطوسي، وزير الملاحدة، شفا نفسه من أتباع الرسول، فعرضهم على السيف، فقتل الخليفة والقضاة والفقهاء والمحدثين. واستبقى الفلاسفة والمنجمين والسحرة، ونقل أوقاف المساجد إليهم، ونص في كتبه على قدم العالم وبطلان المعاد، وإنكار صفات الرب من العلم والقدرة ونحوها، واتخذ للملاحدة مدارس، ورام جعل إشارات إمام الملحدين (ابن سينا) مكان القرآن، فلم يقدر على ذلك، فقال: هي قرآن الخواص، وذاك قرآن العوام. ورام تغيير الصلاة، وجعلها صلاتين، فلم يتم له الأمر، وتعلم السحر في آخر

الأمر. والتعطيل كان متوارثاً بين هؤلاء من عهد فرعون إلى أن بعث الله عبده ورسوله المسيح، فجدد لهم الدين، وبين معالمه ودعاهم إلى عبادة الله وحده، فعادوه وكذبوه، ورموه وأمه بالعظائم، وراموا قتله. فرفعه الله إليه وطهره عنهم، فأقام الله له أنصاراً، واستقام أمرهم على السداد، نحو ثلاث مائة سنة، ثم أخذ دين المسيح في التغيير، حتى لم يبق في أيدي النصارى منه شيء، حتى كانت لهم مجامع يرومون بها الاجتماع على دين، فيفترقون على الاختلاف والتلاعن والاعتقادات الباطلة. وكان فيهم من دين المسيح بقايا كالختان والاغتسال من الجنابة وتعظيم السبت، وتحريم الخنزير وتحريم ما حرمته التوراة، إلا ما أحل لهم بنصها. فآل الأمر إلى أن استحلوا الخنزير، وأحلوا السبت، وعوضوا منه الأحد، وتركوا الختان والاغتسال من الجنابة، وكان المسيح يصلي إلى بيت المقدس، فصلوا هم إلى المشرق، ولم يعظم المسيح صليباً قط كما عظموه وعبدوه، ولم يصم صومهم هذا أبداً، ولا شرعه، بل هم وضعوه على هذا العدد، ونقلوه إلى زمن الربيع، فجعلوا ما زادوا فيه من العدد عِوَضاً عن نقله من الشهور الهلالية إلى الشهور الرومية، وتلبسوا بالنجاسات، وكان المسيح في غاية الطهارة، وقصدوا بذلك مراغمة اليهود، وتقربوا إلى أهل الفلسفة وعباد الأصنام، بأن وافقوهم في بعض الأمر ليستنصروا بهم على اليهود، وحاصل عقيدتهم التي اتفق عليها أكثرهم بأن جمعهم ملكهم قسطنطين، فحشرهم من سائر الآفاق فاجتمع عنده بعد سنة وشهرين ألفان وثمانية وأربعون أسقفاً، وكانوا مختلفي الآراء، متباينين في الأديان، فاتفق منهم ثلاثمئة وثمانية عشر أسقفاً على رأي، وناظروا بقية الأساقفة فظهروا عليهم، فعقد الملك لهؤلاء الثلاثمائة مجلساً خاصاً، وجلس في وسطه، وأخذ خاتمه وسيفه وقضيبه، ودفعها إليهم، وقال لهم: قد سلطتكم على المملكة، فاصنعوا ما فيه قوام دينكم وصلاح أمتكم، فباركوه عليه وقلدوه سيفه، وقالوا: أظهر دين النصرانية وذب

عنه، ودفعوا إليه الأمانة التي اتفقوا على وضعها، فلا يكون عندهم نصراني من لا يقرُّ بها، ولا يتم له قربان إلا بها، وهي هذه:

نؤمن بالله الواحد الأب، مالك كل شيء، صانع ما يرى وما لا يرى.

وبالرب الواحد (يسوع) ابن الله الواحد، بكر الخلائق كلها، الذي ولد من أبيه قبل العوالم كلها، وليس بمصنوع، إله حق من إله حق، من جوهر أبيه الذي بيده أتقنت العوالم، وخلق كل شيء، الذي من أجلنا معشر الناس ومن أجل خلاصنا نزل من السماء، وتجسد من روح القدس، وصار إنساناً، وحمل به، ثم ولد من مريم البتول، وأولم وأوجع، وقتل وصلب، ودفن، وقام في اليوم الثالث، وصعد إلى السماء، وجلس عن يمين أبيه، وهو مستعد للمجيء تارة أخرى، للقضاء بين الأموات والأحياء.

ونؤمن بروح القدس الواحد، روح الحق الذي يخرج من أبيه، روح محيية، وبمعمودية واحدة لغفران الخطايا، وبجماعة واحدة قدسية، جابلنقية، وبقيامة أبداننا، والحياة الدائمة إلى أبد الآباد. وافترقوا على هذه العقيدة وعلى لعن من خالفها. إلى أن قال:

ثم كان لهم مجمع رابع بعد إحدى وخمسين سنة من هذا المجمع، على نسطورس. وكان مذهبه أن مريم ليست بوالدة الإله على الحقيقة، ولكن ثمة ابنان: الإله الذي هو موجود من الأب، والآخر إنسان الذي هو موجود من مريم، وأن هذا الإنسان الذي يقول: إنه المسيح متوحد مع ابن الإله، وابن الإله ليس ابناً على الحقيقة، ولكن على سبيل الكرامة، واتفاق الاسمين، فبلغ ذلك (بتاركة) سائر البلاد، فاتفقوا على تخطيئه، وجرت بينهم مراسلات في ذلك. واجتمعوا وأرسلوا إليه للمناظرة، فامتنع، فأوجبوا عليه اللعن، فلما لعنوه غضب له (بترك أنطاكية)، فجمع أساقفته الذين قدموا معه وناظرهم، فقطعهم، وتقاتلوا، ووقع الحرب، ثم

وقع الصلح، وأنفذوا لعن نسطورس، ولم تزل مجامعهم تشمل على مثل تلك الأقوال. وإذا كان هذا حال المتقدمين مع قرب عهدهم بالمسيح وكون الدولة لهم فما ظنك بالمتأخرين.

وهذه الأمة ارتكبت محذورين عظيمين لا يرضى بهما ذو عقل:

أحدهما: الغلو في المخلوق حتى جعلوه شريك الخالق وجزء منه وإلهاً آخر معه.

الثاني: تنقص الخالق وسبه ورميه بالعظائم، حيث زعموا أنه تعالى نزل من القدس، ودخل في فرج امرأة، وأقام عندها هناك تسعة أشهر، ثم خرج رضيعاً صغيراً، حتى انتهى إلى أن صفعته اليهود وصلبوه، تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً. وعذرهم أقبح من قولهم.

فإن أصل معتقدهم أن أرواح الأنبياء كانت في الجحيم في سجن إبليس من عهد آدم إلى زمن المسيح بسبب خطيئة آدم وكان كلما مات واحد من بني آدم أخذه إبليس وسجنه في النار بذنب أبيه، فلما أراد الله خلاصهم تحيل على إبليس فنزل عن كرسي عظمته والتحم ببطن مريم حتى ولد وشب وصار رجلاً. فمكن أعداءه اليهود من نفسه حتى صلبوه وقتلوه، فخلص أنبياءه ورسله وفداهم بنفسه، إلا من أنكر صلبه أو شك فيه، وقال بأن الإله يجل عن ذلك، فهو في سجن إبليس معذب حتى يقر بذلك. فعجزوا الرب وعطلوه عن القدرة على تخليص الأنبياء، ونسبوا إليه الظلم بحبسهم بذنب أبيهم، ونسبوا إليه ما لا يليق بآحاد المخلوقين، فضلاً عن الخالق جل وعز، وهم يعظمون الصليب لأنه صلب عليه، ولو كان لهم عقول لما كان الصليب حقيقاً بذاك، بل على تقدير زعمهم يستحق التحريق والإهانة.

فصل

ورهبانهم ليسوا على شيء من الدين وإنما مدار أمرهم على نصب حبائل الحيل ليقنّصوا بها عقول العوام ويستدروا أموالهم فمن ذلك ما يفعلونه في عيدهم المسمى (عيد الأنوار) ببيت المقدس يجتمعون إلى بيت فيه قنديل معلق لا نار فيه فإذا تلا أحبارهم الإنجيل ورفعوا أصواتهم وابتهلوا بالدعاء إذا نار قد نزلت من سقف البيت فتقع على دبالة القنديل فيشرق ويشتعل فيضجون ضجة واحدة ويأخذون في البكاء والشهيق. قال أبو بكر الطرطوس: فلما نمى هذا الخبر في بعض السنين إلى والٍ لبيت المقدس في ذلك العام يسمى (سقمان) فأنفذ إلي بتاركتهم: إني نازل إليكم في يوم هذا العيد لأكشف حقيقة ما تقولون فإن كان حقاً ولم يتضح لي وجه الحيلة أقررتكم عليه وعظمته بعلم وإن كان مخرفة على عوامكم أوقعت بكم ما تكرهون. فصعب عليهم جداً وسألوه ألا يفعل فأبى فحملوا له مالاً عظيماً فأخذها وأعرض عنهم.

وقال أيضاً: إني اجتمعت بأبي محمد بن الأقدم بالاسكندرية فحدثني أنهم يأخذون خيطاً دقيقاً من نحاس، ويجعلونه في وسط قبة البيت إلى رأس الفتيلة التي في القنديل، ويدهنونه بدهن اللبان، والبيت مظلم، بحيث لا يدرك الناظرون الخيط النحاسي، وقد عظموا هذا البيت ولا يمكّنون أحداً من دخوله، وفي رأس القبة رجل، فإذا قسموا ودعوا ألقي على ذلك الخيط النحاس شيئاً من نار النفط، فتجري النار مع دهن اللبان حتى تلقى الفتيلة. ومن حيلهم أيضاً أنه كان بأرض الروم في زمن المتوكل كنيسة إذا كان في يوم عيدها يحج الناس، ويجتمعون عند صنم فيها، فيشاهدون ثدي ذلك الصنم في ذلك اليوم يخرج منه اللبن، وكان يجتمع للسادن ذلك اليوم مال عظيم. فبحث الملك عنها، فانكشف أمرها، فوجدوا القيّم قد نقب من وراء الحائط نقباً إلى ثدي الصنم، وجعل فيه أنبوبة من رصاص،

وأصلحها بالجير ليخفي أمرها، فإذا كان يوم العيد فتحها وصب اللبن فيها، فيجري إلى الثدي فيقطر منه. فيعتقد الجهال أن هذا سر في الصنم وأنه علامة من الله لقبول قربانهم، فلما انكشف له أمر بضرب عنق السادن، ومحق الصور من الكنائس. ومن عجائب ما وقع من هذه الأمة أنهم زادوا جمعة في ابتداء صومهم، يصومونها لهرقل ملك بيت المقدس. ومن تلاعب الشيطان بهم أن أعيادهم كلها موضوعة محدثة بآرائهم؛ فمنها (عيد ميكائيل) وكذلك (عيد الصليب) وهو على زعمهم في الوقت الذي ظهر فيه صليب عيسى الذي صلب عليه بعد أن خفي عليهم، وجعل اليهود موضعه مزبلة لما كان النصارى يترددون إليه، ويتبركون به، ويحكون في ذلك حكاية لا أصل لها، ويقضي بفسادها العقل لطول المدة. ولا يبقى العود تحت التراب ثلاثمائة وثمانية وعشرين سنة. فإنه يبلى لدون هذه المدة ولغير ذلك مما اشتملت عليه تفاصيل هذه الحكاية من النكارة [وما أكثر الأعياد في هذا الزمان التي ما أنزل الله بها من سلطان من النصارى وغيرهم].

فصل في تلاعبه بالأمة المغضوب عليها وهم اليهود

قال تعالى: ﴿بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ ۚ﴾ [سورة البقرة: ٩٠] وقال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ ۚ﴾ [سورة المائدة: ٦٠] وقال: ﴿تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِى ٱلْعَذَابِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴿٨٠﴾﴾ [سورة المائدة: ٨٠] قد أمرنا الله أن نقول في صلاتنا: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا

ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧﴾ [سورة الفاتحة: ٦] ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: «**اليَهُودُ مَغْضُوبٌ عَلَيْهِمْ وَالنَّصَارَى ضَالُّونَ**»(١) فأول تلاعب الشيطان بهم أن قالوا في عهد نبيهم مع قرب العهد بإنجائهم وإغراق فرعون وقد رأوا قوماً يعكفون على أصنام لهم: اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة. ثم عبادتهم للعجل وقد شاهدوا ما حل بالمشركين من العقوبة وشاهدوا صانعه يصنعه ويصوغه ويصليه النار ويضربه بالمطرقة ويسطو عليه بالمبرد وجعلوه إله موسى أيضاً ونسبوا إليه عبادة الحيوان. بل عبادة أبلد الحيوانات ونسبوا إليه الخطأ والضلال عنه فقالوا: ﴿هَٰذَآ إِلَٰهُكُمۡ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ ﴿٨٨﴾﴾ [سورة طه: ٨٨] قال ابن عباس: أي ضل وأخطأ الطريق وقال السدى: أي ترك إلهه هاهنا وذهب يطلبه. قال محمد بن جرير: وكان سبب اتخاذهم العجل ما رويناه عن ابن عباس قال: لما هجم (فرعون) على البحر وكان على فرس أدهم حصان فهاب الحصان أن يقتحم البحر فتمثل له جبريل على فرس أنثى فلما رآها الحصان تقحم خلفها. قال: وعرف (السامري) جبريل فقبض قبضة من أثر فرسه من تحت حافرها. وكان السامري من قوم يعبدون البقر فكان يحب عبادة البقر في نفسه وكان قد أظهر الإسلام في بني إسرائيل. ومن تلاعب الشيطان بهم في حياة نبيهم ما قصه الله في كتابه من قولهم ﴿لَن نُّؤۡمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهۡرَةٗ﴾ [سورة البقرة: ٥٥] أي عياناً، وكذا قولهم لنبيهم: ﴿فَٱذۡهَبۡ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [سورة المائدة: ٢٤]. وتبديلهم ما أمروا أن يقولوه عند دخول باب بيت المقدس، ودخولهم على أستاههم، وقد أُمِرُوا أن يدخلوا سُجَّداً، وكذا امتناعهم من العمل بما في التوراة، حتى يُلقى عليهم الجبل كأنه ظلة.

---

(١) رواه أحمد (١٩٣٨١).

فصل

ومن تلاعبه بهم أنهم كانوا في البرية قد ظلل عليهم الغمام وأنزل عليهم المن والسلوى. فملوا ذلك وذكروا عيش الثوم والبصل والعدس والبقل والقثاء فسألوا الله ذلك. وهذا من سوء اختيارهم لأنفسهم وقلة بصرهم بالأغذية النافعة وعدولهم إلى الأغذية الضارة القليلة الغذاء.

ومن تلاعبه بهم أن ألقى إليهم أن الرب محجور عليه في نسخ الشرائع وكانت هذه الشبهة الشيطانية ترساً إلى جحدهم نبوة رسول الله ﷺ وقرروا ذلك بأن النسخ يستلزم (البداء) وهو محال على الله. وقد أكذبهم الله سبحانه في نص التوراة كما أكذبهم في القرآن قال تعالى: ﴿كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوْرَىٰةُ ۗ قُلْ فَأْتُوا۟ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٩٣﴾﴾ [سورة آل عمران: ٩٣] إلخ الآيات المتضمنة للتصريح بكذبهم.

فإنه أخبر أن الطعام كله كان حلاً لبني إسرائيل قبل نزول التوراة سوى ما حرم إسرائيل على نفسه منه. ومعلوم أن بني إسرائيل كانوا على شريعة أبيهم إسرائيل وملته وأن الذي كان لهم حلال إنما هو بإحلال الله على لسان إسرائيل والأنبياء بعده إلى حين نزول التوراة، ثم جاءت التوراة بتحريم كثير من المآكل التي كانت حلالاً لبني إسرائيل قبل نزول التوراة، وهم يعلمون ذلك.

ثم قال: ﴿قُلْ فَأْتُوا۟ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٩٣﴾﴾ [سورة آل عمران: ٩٣]، هل تجدون فيها أن إسرائيل حرم على نفسه ما حرمته التوراة عليكم أم تجدون فيها تحريم ما خصه بالتحريم وهو لحوم الإبل وألبانها خاصة؟ وإذا كان إثماً حرم هذا وحده وكان ما سواه حلالاً له ولبنيه وقد حرمت التوراة كثيراً منه فظهر كذبكم.

فصل

قالت الأمة الغضبية: قد حظرت التوراة أموراً كانت مباحة من قبل ولم تأت بإباحة محظور والنسخ الذي يمنعه هو ما أوجب إباحة محظور لا ما أوجب تحريم ما كان مباحاً. قالوا: وشريعتكم جاءت بإباحة كثير مما حرمته التوراة مع أنه إنما حرم لما فيه من المفسدة. وتبطل شبهتهم هذه بثبوت رفع البراءة الأصلية ورفع الإباحة بالتحريم فإنه تغيير لما كان عليه الحكم الاستصحابي والشرعي بحكم آخر لمصلحة اقتضت تغيره ولا فرق بين تغيير الإباحة بالتحريم والتحريم بالإباحة والشبهة التي عرضت لهم في أحد الموضعين هي بعينها في الموضع الآخر فإن إباحة الشيء في الشريعة تابع لعدم مفسدته إذ لو كانت فيه مفسدة راجحة لم تأت الشريعة بإباحته. فإذا حرمته الشريعة الأخرى وجب قطعاً أن يكون تحريمه فيها هو المصلحة كما كان إباحته في الشريعة الأولى هي المصلحة، فإن تضمن إباحة المحرم في الشريعة الأولى إباحة الفاسد -وحاشاه لله- تضمن تحريم المباح في الشريعة الأولى تحريم المصالح وكلاهما باطل فإذا جاز أن تأتي شريعة بتحريم ما كان إبراهيم ومن بعده يستبيحه فجائز أن تأتي شريعة أخرى بتحليل بعض ما كان في التوراة محظور، وبهذه الشبهة الداحضة ردت الأمة الغضبية نبوة محمد ﷺ، ونبوة عيسى. ويقال لهم أيضاً: لا يخلو المحرم إما أن يكون تحريمه لعينه بحيث يمنع إباحته في أي زمان أو يكون تحريمه لما تضمنه من المفسدة فإن كان الأول لزم أن يكون ما حرمته التوراة محرماً على جميع الأنبياء في كل زمان ومكان من عهد (نوح) إلى خاتم الأنبياء وإن كان التحريم والإباحة تابعين للمصالح فهي تختلف بالزمان والمكان والحال فيكون الشيء الواحد حراماً في ملة دون ملة ووقت دون وقت وفي مكان دون مكان وحال دون حال، قال تعالى: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ

بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ ۗ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٦﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ﴾ [سورة البقرة: ١٠٦-١٠٧]، فأخبر سبحانه أن عموم قدرته وملكه وتصرفه في مملكته وخلقه لا يمنعه أن ينسخ ما يشاء ويثبت ومن العجب أنهم مع حجرهم على الله أن ينسخ ما يشاء من شريعة موسى وغيره قد صار تمسكهم في أكثر ما هم عليه مما شرعه أحبارهم. فمن ذلك أنهم يقولون بتحريم مؤاكلة من لم يكن على دينهم ومناكحته والأكل من ذبيحته لأن علماءهم علموا أن دينهم لا يبقى مع كونهم تحت الذلة إلا بتنفيرهم عن مخالطة أهل سائر الأديان. والتوراة إنما حرمت عليهم مناكحة عبدة الأصنام والشرك وحرمت عليهم الذبائح التي يتقرب بها للأصنام لأنها مما لم يذكر اسم الله عليه. فأما الذبائح التي لم تذبح قرباناً فلم تحرمها التوراة فما بال هؤلاء لا يأكلون ذبائح المسلمين وهم يذكرون اسم الله عليها؟ وقد ألف علماؤهم كتابين يسمى أحدهما (المشنا) وقدره نحو ثمانمائة ورقة والآخر يسمى (التلمود) ومقداره نصف حمل بغل. ولم يكن مؤلفه واحداً بل ألفه جيل بعد جيل وهما مشتملان على ما أحدثوه مما لم يكن في التوراة. واختلقوا أيضاً كتاباً في الذباحة، ووضعوا فيه من التشديدات والآصار ما لا أصل له فمن ذلك أن تنفخ الرئة حتى تمتلئ هواء ويتأملونها هل يخرج الهواء من ثقب منها أم لا؟ فإن خرج منها الهواء حرموها وإن كان بعض أطراف الرئة لاصقاً ببعض لم يأكلوه وأمروا الذي يتفقد الذبيحة أن يدخل يده في بطن الذبيحة ويتأمل بأصابعه فإن وجد القلب ملتصقاً إلى الظهر أو أحد الجانبين ولو كان الالتصاق بعرق دقيق كالشعرة حرموه وسموه (طريفاً) يعنون بذلك أنه نجس وأكله حرام وهذه التسمية هي أصل بلائهم وذلك أن التوراة حرمت عليهم أكل الطريق وهي الفريسة التي يفترسها الأسد أو الذئب أو غيرهما من السباع وهو الذي عبر عنه

القرآن بقوله: ﴿وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ﴾ [سورة المائدة: ٣] والدليل على ذلك أنه قال في التوراة: «**ولحم في الصحراء فريسة لا تأكلوا، وللكلب ألقوة**». وكان سبب نزول هذا عليهم أنهم كانوا ذوي أخبية يسكنون البر لأنهم مكثوا يترددون في التيه أربعين سنة وكانوا لا يجدون طعاماً إلا المن والسلوى: وهو طائر صغير يشبه السماني وفيه من الخاصية أن أكل لحمه يلين القلب فإن هذا الطائر يموت إذا سمع الرعد فألهمه الله أن يسكن جزائر البحر التي لا يكون بها مطر ولا رعد. فكان اغتذاؤهم به كالدواء لقسوة قلوبهم. والمقصود هنا تعديهم في التسمية بـ(الطريفا) ووضعهم لها في غير محلها والقصد بها ابتدعوه التنفير من سائر الأمم وإيهام الانفراد بما لم يعرفوه. وكلما كان الواحد من علمائهم أكثر تكلفاً كان عندهم هو العالم الرباني وما من جماعة منهم في بلدة إلا وإذا قدم عليهم عالم من أهل دينهم من بلاد بعيدة يظهر لهم الخشونة في دينهم والمبالغة في الاحتياط ولا يزال يستنكر شيئاً من أحوالهم وينسبهم إلى عدم التشدد في الدين وقصد إما الرياسة عليهم وإما تحصيل شيء من المآرب، وإذا أراد المقام عندهم تأمل سكين ذبحهم ويقول: أنا لا آكل إلا من ذبيحة يدي ولا يزال كذلك. فإذا قدم عليهم قادم وخاف المقيم أن يعترضه ذلك القادم تلقاه وأكرمه وسعى في موافقته وتصديقه فيستحسن ما فعله الأول ويقول لهم: لقد أعظم الله ثواب فلان إذ قوى ناموس الدين في قلوب هذه الجماعة، شيد أشباح الشرع عندهم. وإذا لقيه يظهر له من مدحه وشكره والدعاء له. وإن كان القادم الثاني منكراً لما جاء به الأول من التشديد والتضييق لم يقع عندهم بموقع وربما نسبوه إلى الجهل أو رقة القلب نحو الدين لأنهم يرون التضييق وتحريم الحلال هو الدين. فهم أبداً يعتقدون الصواب والحق مع من تشدد هذا إذا كان القادم من فقهائهم فأما إذا كان من عبادهم وأحبارهم فهناك ترى العجب العجاب من الناموس الذي يعتمده والسنن التي يحدثها ويلحقها بالفرائض

فتراهم مسلمين له وهو يحتلب درّهم ويجتلب درهمهم. [وكل ما ذكره الشيخ في هذا الفصل فهو يدور حول حيلهم التي يردون بها الحق عن وجه، ومن وجه آخر يكتسبون من وراء ذلك الدرهم والدينار أو الشرف والجاه].

فصل

ومن تلاعبه بهم أنهم إذا شق عليهم شيء من التكاليف طلبوا التخلص منه بوجه من الحيل فإن أعيتهم الحيل قالوا: هذا كان علينا لما كان لنا الملك والرياسة: فمن ذلك أن من أحكام شريعتهم أنه إذا قام إخوان في موضع ومات أحدهما ولم يعقب ولداً فلا تخرج امرأة الميت إلى رجل أجنبي، بل ولد حموها ينكحها، وأول ولد ينسب إلى أخيه الدارج. فإن كان مبغضاً لها أو كانت هي زاهدة به لا تريد نكاحه فعلوا حيلة وهي أن يحضر عند الحاكم ويلقنوها أن تقول: إن ابن حَمِي أبى أن يقيم لأخيه مقاماً في بني إسرائيل، فلم يرد نكاحي. فيحضرها هناك ويكلفه أن يقول: ما أردت نكاحها فتتناول المرأة بحقه فتخرجه من رجله وتمسكه بيدها وتبصق في وجهه وتنادي عليه كذا فليصنع بالرجل الذي لا يبغي بيت أخيه ويدعى بعد ذلك بالمخلوع وبنوه ببني المخلوع، فيلزمونها بالكذب عليه إن أراد نكاحها وكرهته هي. فإذا لقنوها هذه الألفاظ قالتها فيأمرونه بالكذب ولعل ذلك سؤله ومنيته فيأمرونه بأن يكذب. ولم يكفهم أن كذبوا عليه وألزموه أن يكذب حتى سلطوها أن تبصق في وجهه وتخزيه ويسمون هذه المسألة مسألة اليتامى والجالنوس. وقد تقدم من التنبيه على حيلهم في استباحة محارم الله فهم بيت الحيل والكيد والمكر والخبث.

وقد أرادوا قتل رسول الله ﷺ، فصعدوا على سطح وأخذوا رحى أرادوا طرحها عليه وهو جالس في ظل حائط فأتاه الوحي بذلك وظاهروا عليه أعداءه

وأرادوا قتله بالسُّم فأعلمه الله به فسحروه حتى كان يخيل إليه أنه يفعل الشيء ولم يفعله ولم يزالوا في الكيد والمكر. ومن تلاعبه بهم أنهم ينتظرون قائماً من ولد داود إذا حرك شفتيه بالوعاء مات جميع الأمم وزعموا أنه المسيح الذي وعدوا به. وهم في الحقيقة إنما ينتظرون مسيح الضلالة وهو الدجال فهم أكثر أتباعه وإلا فمسيح الهدى عيسى ابن مريم صلوات الله عليه يقتلهم ولا يبقي منهم أحداً. والأمم الثلاث تنتظر منتظراً يخرج في آخر الزمان فإنهم وعدوا به والمسلمون ينتظرون المسيح عيسى ابن مريم وينتظرون خروج المهدي من أهل بيت النبوة يملأ الأرض عدلاً كما مُلِأتْ جوراً.

فصل

ومن تلاعب الشيطان بهذه الأمة الغضبية: أنهم في العشر الأولى من الشهر الأول من كل سنة يقولون في صلاتهم: كم تقول الأمم: أين إلههم؟ انتبه كم تنام يا رب؛ استيقظ من قدرتك. وإنما أقدموا على هذه الكفريات من شدة ضجرهم من الذل والعبودية وانتظار فرج لا يزداد منهم إلا بعداً ويظنون أنها تقع من الله بموقع عظيم ومن ذلك أنهم ينسبون إلى الله الندم على ما يفعل.

فمن ذلك قولهم في التوراة التي بأيديهم: وندم الله على خلق البشر وشق عليه وعاد في رأيه وذلك عندهم في قصة نوح. زعموا أنه لما رأى تعالى فساد قوم نوح وأن كفرهم وشرهم قد عظم ندم على البشر والكثير منهم يقولون: أنه بكى على الطوفان حتى رقد وعادته الملائكة وأنه عض على أنامله حتى جرى منها الدم، وقد واجهوا رسول الله ﷺ وأصحابه بمثل هذه الكفريات. فقال قائل للنبي ﷺ: إن الله خلق السماوات والأرض في ستة أيام ثم استراح فشق ذلك على النبي ﷺ فأنزل الله تكذيباً لهم ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا

مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴿٣٨﴾ فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ [سورة ق: ٣٨-٣٩].

فصل

ومن تلاعبه بهم أنهم يقدحون في الأنبياء وقد آذوا موسى في حياته ونسبوه إلى ما برأه الله منه ونهى الله عن مثل فعلهم، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْاْ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُواْۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا ﴿٦٩﴾﴾ [سورة الأحزاب: ٦٩] وثبت في الصحيحين[1] من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «**كَانَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ يَغْتَسِلُونَ عُرَاةً يَنْظُرُ بَعْضُهُمْ إِلَى سَوْأَةِ بَعْضٍ وَكَانَ مُوسَى يَغْتَسِلُ وَحْدَهُ فَقَالَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ: مَا يَمْنَعُ مُوسَى أَنْ يَغْتَسِلَ مَعَنَا إِلَّا أَنَّهُ آدَرُ فَذَهَبَ مُوسَى يَغْتَسِلُ فَوَضَعَ ثَوْبَهُ عَلَى حَجَرٍ فَفَرَّ الحَجَرُ بِثَوْبِهِ قَالَ: فَخَرَجَ مُوسَى بِإِثْرِهِ يَقُولُ: ثَوْبِي حَجَرٌ ثَوْبِي حَجَرٌ حَتَّى نَظَرَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ إِلَى سَوْأَتِهِ وَقَالُوا: وَالله مَا بِمُوسَى مِنْ بَأْسٍ**». وقيل في تفسير الآية: أنه صعد موسى وهارون الجبل، فمات هارون فاتهموه بقتله، فأمر الملائكة فحملته وشافهت بني إسرائيل موته. وقد بالغوا في عداوة النبي ﷺ بالقول والفعل وقدحوا في كثير من الأنبياء، ومن ذلك ما نسبوه إلى نص التوراة: أنه لما أهلك الله قوم لوط ولم ينج منهم إلا (لوط) عليه السلام وابنتاه قالت إحدى ابنتيه للأخرى: هلم نسق أبانا خمراً ونضاجعه لنستبقي من أبينا نسلاً. وأعجب من هذا أن في التوراة التي بأيديهم أن يهوذا بن يعقوب زوَّج ولده الأكبر بامرأة يقال لها تاما، وكان يأتيها مستدبراً، فغضب الله من فعله فأهلكه فزوَّج بها يهوذا ولده الآخر، فكان يعزل عنها، علماً منه بأن أول مولود ينسب إلى أخيه، فكره الله منه ذلك فأماته، فأمرها يهوذا باللحاق ببيت أبيها حتى يكبر ولد صغير له، ويتم عقله حذراً من أن يصيبه ما يصاب أخويه، فأقامت في بيت أبيها،

---

(١) رواه البخاري (٢٧٨) ومسلم (٣٣٩).

وصعد يوماً إلى منزل له فلبست زوجة ابنه زِي الزواني وتعرضت له فراودها ورهن عندها عصاه وخاتمه بأجرتها ودخل بها، فعلقت منه فلما أخبر (يهوذا) أن زوجة ابنه علقت من الزنا أذن بإحراقها، فبعثت إليه بخاتمه وعصاه، فاعتذر بأنه لم يعرفها ولم يستحل معاودتها، قالوا: ومن ولدها من ذلك الزنا داود عليه السلام.

ومن أكاذيبهم أن الزوج إذا راجع زوجته بعد أن طلقها ونكحت غيره كان أولادهما أولاد زنا.

قالوا: والمسلمون أولاد زنا بهذه الواسطة، قالوا: وعبدالله بن سلام هو الذي وضع ذلك قصد به أن يجعل أولاد المسلمين أولاد زنا. قالوا: وكان محمد عليه الصلاة والسلام قد رأى أحلاماً تدل على أنه صاحب دولة فسافر إلى الشام في تجارة لخديجة اجتمع بأحبار يهود وقص عليهم أحلامه فعلموا أنه صاحب دولة فأصحبوه (عبدالله بن سلام) فقرأ عليه علوم التوراة ونسبوا الفصاحة والإعجاز اللذين في القرآن إلى عبدالله بن سلام، وهذا غير مستنكر من أمة قدحت في معبودها ونسبته إلى ما لا يليق بجلاله ورمت أنبياءه بالعظائم كقولهم: عيسى عليه السلام ولد غية، ونسبتهم لأمه إلى الفجور.

وقولهم في لوط: إنه وطئ ابنتيه وهو سكران.

ونسبة السحر إلى سليمان، وأنه ملك ساحر.

وقولهم في يوسف أنه حل سراويل سيدته وقعد منها مقعد الرجل من امرأته، فانشق الحائط، ورأى أباه يعقوب عاضاً على أنامله. فلم يقم حتى نزل جبريل فقال: يا يوسف تكون من الزناة وأنت معدود عند الله من الأنبياء، فلم يرتدع عن الفاحشة إلا بذلك، وفي هذا غاية الذم.

وقولهم: أن عيسى كان يداوي المرضى بالأدوية ويوهم أن ذلك حصل بدعائه. ومن العجب أن في التوراة التي بأيديهم لا يزول الملك من آل يهوذا إلى أن

يأتي المسيح، وفي ضمن هذا إقرارهم بنبوة المسيح فإنهم كانوا أصحاب دولة انقضى ملكهم بظهوره. قالوا: وهو ولد يوسف النجار لغية لا لرشدة إلا أنه عرف الاسم الأعظم، مع قولهم بأن موسى عليه السلام اطلع على الاسم المركب من اثنين وأربعين حرفاً وبه شق البحر واتفق له سائر المعجزات ولم يجعلوا ذلك قادحاً في نبوته كما توسلوا به إلى جحد نبوة عيسى عليه السلام. حتى قال بعضهم: موسى أعلمه الله بذلك وعيسى إنما يعلمه من حيطان بيت المقدس وهذا من مكابرتهم وبهتهم.

فصل في الكلام على تبديل التوراة وتحريفها

وقد اختلف في التوراة التي بأيديهم هل هي مبدلة أم التبديل في التأويل دون التنزيل؟ على ثلاثة أقوال:

قالت طائفة: كلها أو أكثرها مبدل وغلا بعضهم حتى قال: يجوز الاستجمار بها.

وقالت طائفة من أئمة الحديث والفقه والكلام: إنما وقع التبديل في التأويل قال البخاري في صحيحه: يحرفون: يزيلون وليس أحد يزيل لفظ كتاب من الكتب التي أنزلها الله ولكنهم يتأولونه على غير تأويله وهي اختيار الرازي أيضاً وسمعت شيخنا يقول: وقع النزاع بين الفضلاء فأجاز هذا المذهب ووهّى غيره فأنكر عليه فأظهر خمسة عشر نقلاً به. ومن حجة هؤلاء أن التوراة قد طبقت مشارق الأرض ومغاربها وانتشرت جنوباً وشمالاً ولا يعلم عدد نسخها إلا الله فيمتنع التواطؤ على التبديل والتغيير في جميع تلك النسخ حتى لا يبقى في الأرض نسخة إلا مبدلة وهذا مما يحيله العقل. قالوا: وقد قال تعالى لنبيه: ﴿قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٩٣﴾﴾ [سورة آل عمران: ٩٣] قالوا: وقد اتفقوا على ترك فريضة الرجم

ولم يمكنهم تغييرها من التوراة ولذا لما قرأوها على النبي ﷺ وضع القارئ يده على آية الرجم فقال له عبدالله بن سلام: ارفع يدك فرفعها فإذا هي تلوح تحتها. وتوسطت طائفة فقالوا: قد زيد فيها وغيرها أشياء يسيرة جداً واختاره شيخنا في (الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح) قال: وهذا كما في التواتر عندهم: أن الله سبحانه قال لإبراهيم: اذبح ابنك بكرك أو وحيدك إسحاق.

قلت: والزيادة باطلة من وجوه عشرة:

الأول: أن بِكْرَه ووحيده إسماعيل باتفاق الملل الثلاث.

الثاني: أنه سبحانه أمر إبراهيم أن ينقل هاجر وابنها إسماعيل عن سارة ويسكنها في برية مكة لئلا تغار سارة، فأمره بإبعاد السرية وولدها عنها فكيف يأمر بعد هذا بذبح ابن سارة وإبقاء ابن السرية؟ هذا مما لا تقتضيه الحكمة.

الثالث: أن قصة الذبح كانت بمكة قطعاً وإذا جعل الله سبحانه ذبح الهدايا والقرابين بمكة تذكير الأمة بما كان من إبراهيم مع ولده هنالك.

الرابع: أن الله بشر سارة أم إسحاق بإسحاق ومن ورائه يعقوب فبشرها بهما جميعاً فكيف يأمر بعد ذلك بذبح إسحاق وقد بشر أبويه بولد ولده.

الخامس: أن الله لما ذكر قصة الذبح وتسليمه نفسه لله وإقدام إبراهيم على ذبحه وفرغ من قصته قال بعدها ﴿وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٢﴾﴾ [سورة الصافات: ١١٢] فشكر الله له استسلامه وبذلك ولده له وجعل من آياته على ذلك أن آتاه إسحاق فنجا إسماعيل من الذبح وزاد عليه إسحاق.

السادس: أن إبراهيم عليه السلام سأل ربه الولد فأجاب دعاءه وبشره به فلما بلغ معه السعي أمره بذبحه قال تعالى: ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٩٩﴾ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠٠﴾ فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾ [سورة الصافات: ٩٩-١٠١] فهذا

دليل على أن هذا الولد إنما بشر به بعد دعائه وسؤاله ربه أن يهب له ولداً.

وهذا المبشر به هو المأمور بذبحه قطعا بنص القرآن وأما إسحاق فإنه بشر به من غير دعوة منه بل على كبر سنه وكون مثله لا يولد له وإنما كانت البشارة به لامرأته سارة ولذا تعجبت من حصول الولد منها.

السابع: أن إبراهيم لم يقدم بإسحاق إلى مكة ألبتة ولم يفرق بينه وبين أمه وكيف يأمر الله أن يذهب بابن امرأته فيذبحه بموضع ضرتها وفي بلدها ويدع ابن ضرتها؟

الثامن: أن الله لما اتخذ إبراهيم خليلاً والخلة تتضمن أن يكون قلبه كله متعلقاً بربه وليس فيه سعة كغيره فلما سأل الولد وهب له إسماعيل فتعلق به شعبة من قلبه فأراد خليله أن تخلص تلك الشعبة له فامتحنه بذبح ولده فلما امتثل خلصت تلك الخلة لله فنسخ الأمر بذبحه لحصول الغرض وهو العزم وتوطين النفس على الامتثال. ومن المعلوم أن هذا إنما يكون في أول الأولاد لا في آخرها. فلما حصل هذا المقصود مع الولد الأول لم يحتج إلى مثله مع الولد الآخر فإنه لو زاحمت محبة الولد الآخر الخلة لأمر بذبحه فلو كان المأمور بذبحه هو الولد الآخر لكان قد أقره في الأول على مزاحمة الخلق به مدة طويلة ثم أمره بما يزيل المزاحم بعد ذلك وهو خلاف مقتضى الحكم فليتأمل.

التاسع: أن إبراهيم إنما رزق إسحاق على الكبر وإسماعيل رزقه في عنفوان شبابه والعادة أن القلب أعلق بالأول (بل أعلق بالآخر غالباً).

العاشر: أن النبي ﷺ كان يفتخر بأنه ابن الذبيحين يعني أباه: عبدالله وجده إسماعيل.

والمقصود أن هذه اللفظة مما زادوه في التوراة والسبب في ذلك هو أن موسى عليه السلام صان التوراة عن بني إسرائيل خوفاً من افتراقهم بعده في تأويلها

وتفرقهم أحزاباً. وإنما دفعها إلى الأئمة، ولم يكن حفظ التوراة فرضاً عليهم ولا سنة بل كان يحفظ فصلاً منها والآخر يحفظ فصلاً آخر. فلما قتل (بختنصر) من يحفظ أكثر التوراة من الأئمة الهارونيين وأحرق هياكلهم؛ جمع (عزير) من محفوظاته ما اجتمعت منه هذه التوراة التي بأيديهم وأملى ذلك غيباً عليهم. ولذا بالغوا في تعظيمه حتى غلوا فيه. فهذه التوراة الموجودة عندهم من إملاء عزير فيها كثير من التوراة ثم تداولتها أمة قد مزقها الله فلحقها أمور ثلاث:

الأول: بعض الزيادة والنقص.

الثاني: اختلاف الترجمة.

الثالث: اختلاف التأويل ويذكر من ذلك أمثلة.

المثال الأول: ما تقدم من قوله: ولهم في الصحراء فريسة لا تأكلوا وللكلب ألقوا وتقدم بيان تحريفهم له.

المثال الثاني: قوله في التوراة: نبياً أقيم لهم من وسط إخوتهم، فحرفوا تأويله وقالوا: هي بشارة نبي من بني إسرائيل. وهو باطل من وجوه:

الأول: أنه لو أراد ذلك لقال من أنفسهم.

الثاني: أن المعهود من الآخرة في التوراة خلاف ما قالوا. ففي الجزء الأول من السفر الخامس: أنتم عامرون من لحوم إخوتكم (بني عيص) القدس في (سعير) وإياكم أن تطمعوا في شيء من أرضهم. فإذا كان بنو العيص إخوة لبني إسرائيل فكذلك بنو إسماعيل.

الثالث: أن هذه البشارة لو كانت لـ (شمويل) أو غيره من بني إسرائيل لم يصح أن يقال: بنو إسرائيل إخوة بني إسرائيل.

الرابع: أنه قال أقيم لهم نبياً مثلك وفي موضع آخر أنزل عليهم توراة مثل توراة موسى. ومعلوم أن له في بني إسرائيل من نزل عليه توراة مثل توراة موسى إلا

محمد والمسيح لكن المسيح من أنس بني إسرائيل.

المثال الثالث: قوله في التوراة: جاء الله من طور سيناء وأشرق نوره من سيعير، واستعلن من جبال فاران ومعه ديوان المقدسين. وهم يعلمون أن جبل سيعير جبل السراة الذي يسكنه بنو العيص الذين أمنوا بعيسى وأن هذا الجبل كان مقام المسيح وأن سينا هو جبل الطور. وأما جبال فاران من أسماء مكة وعليه نص التوراة: أن إسماعيل لما فارق أباه أقام في برية فاران وأنكحته أمه امرأة من أرض مصر فثبت بنص التوراة أن جبال فاران مسكن ولد إسماعيل. فإذا كانت التوراة قد أشارت إلى نبوة تنزل على جبال فاران لزم أنها تنزل على ولد إسماعيل لأنهم سكانها ومن المعلوم أنها لم تنزل على غير محمد ﷺ. فهذه فصول مختصرة في كيد الشيطان وتلاعبه بالأمم ليعرف بها كل مسلم قدر رحمة الله عليه، وما مَنّ به عليه من العلم والإيمان. انتهى من «إغاثة اللهفان» لابن القيم قد نقلها المصنف واختصرت منها ما يناسب المقام، وصلى الله على محمد وآله وصحبه.

تم الانتهاء من تأليفه في عام ١٣٩٣هـ. في يوليو من تلك السنة.

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة